نوتشيو أوردينه

Nuccio Ordine

لوجْهِ مَا لا يَلزم

L'utilità dell'inutile

دار الجـــديد

نوتشيو أوردينه
Nuccio Ordine

لوجْهِ مَا لا يَلزم

L'utilità dell'inutile

يليه

في لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها

بقلم

أبراهام فلكسنر

دار الجـــديد

دار الجـــديد

حقوق التَّرْجَمَة العربيّة محفوظة
الطبعـــــة الأولـــى، ٢٠١٩

دارة محسن سليم، حارة حريك
صنـــــدوق بريـــد: ٥ - ٢٥
الغبيـــري بيروت ـ لبنان
هاتف: ٠٥ ٣٦ ٥٥ ١ ٩٦١
www.dar-al-jadeed.com
daraljadeedbeirut@gmail.com

ISBN 978-9953-1-139-1
خطوط الغلاف: علي عاصـــي

صدر هذا الكـــــتـاب، في طبعتـه الإيطاليّة، تحت عنـــوان:
L'utilità dell'inutile
© 2013 Nuccio Ordine
© Giunti Editore S.p.A Firenze-Milano جميع الحقوق محفوظة لـ
first published under the imprint Bompiani in 2013.

هذه التَّرْجَمَةُ بَلْ هذا التَّلْخيص...

... وَما يَزالُ بَعْضُهُم، كُلَّما نَقَلَ كِتابًا مِنْ لُغَةٍ مِنَ اللُّغاتِ إلى العَرَبِيَّةِ، يَحْتَجُّ لِما دَعاهُ إلى نَقْلِ هذا الكِتابِ إلَيْها بِحُجَّةٍ مِنْ قَبيلِ أنَّ نَقْلَهُ هذا الكِتابَ، أوْ ذاكَ، يَسُدُّ نَقْصًا ــ (فادِحًا... يا لَلْهَوْلِ!) ــ يَعْتَوِرُ المَكْتَبَةَ العَرَبِيَّةَ بِعُوارِهِ، أو يَرْأَبُ صَدْعًا يَعيبُ بُنْيانَها.

وَحَقَّ لِدارِ الجَديدِ أنْ تَتَكاسَلَ، وأنْ تَحْتَجَّ لِما دَعاها إلى نَقْلِ هذا الكِتابِ بِتِلْكَ الحُجَّةِ، مُثَنِّيَةً عَلَيْها، مَثَلًا، بأنَّ هذا الكِتابَ قَدْ تُرْجِمَ، حتّى الآنَ، بِبِضْعِ عَشَرَةِ لُغَةٍ، وأنَّهُ لا يَليقُ بالعَرَبِيَّةِ أنْ تَتَخَلَّفَ عَنْ رَكْبِ اللُّغاتِ، وما يَجْري مَجْرى هذا الكَلامِ السّاقِطِ مِنْ تَفاهاتٍ ومِنْ حَماقات.

بَيْـدَ أنَّنـا لا نَفْعَـلُ، ولا يَعْنينـا أنْ نَفْعَـلَ، لِسَـبَبَيْنِ اثْنَيْـنِ: أوَّلًا لِقليـلِ اقْتِناعِنـا بـأنَّ مِـنْ شَـأْنِ أيِّ كِـتابٍ، سَـواءٌ أكانَ مَوْضوعًـا بِالعَرَبِيَّـةِ ابْتِـداءً أمْ مُتَرْجَمًا إلَيْها، أنْ يَسُدَّ ثَقْبًا أو أنْ يُصْلِـحَ نَقْصًا أو مـا شـابَهَ، أيْ أنْ يُرَتَّـبَ لِوَظيفَـةٍ مِـنْ قَبيـلِ الرَّتْقِ أو التَّرْميـمِ؛ وثانِيًا لأنَّ هذا الكِـتابَ، والمَكْـتوبُ يُقْـرَأُ مِـنْ عُنوانِـهِ، لا يَقْبَـلُ أصْـلًا أنْ يُنْقَـلَ إلـى العَرَبِيَّـةِ لِهَـذِهِ الغايَـة.

كُلُّ مـا فـي الأمْـرِ أنَّ صَديقًـا عَزيـزًا، الأُسْـتاذَ يوسـف مُعَـوَّض، أهْـدى دارَ الجديـدِ لِنَحْـوِ عـامٍ خـلا، فـي سِـياقِ مـا بَيْنَـهُ وبَيْنَهـا مِـنْ حَبْـلِ كَلامٍ وقِـراءَةٍ مَوْصولَيْـنِ، هذا الكِـتابَ، وَوَقَعَ الكِـتابُ مِنّـا، بَعْدَ مُطالَعَتِهِ، مَوْقِـعَ الحَفـاوَةِ بِهِ، وأخْطَرَتْ لنـا هـذِهِ الحَفـاوَةُ فِكْـرَةَ نَقْلِـهِ إلـى العَرَبِيَّـة!

وإذْ تَعَـذَّرَ علـى دارِ الجَديـدِ أنْ تَتَّصِـلَ بِمُتَرْجِـمٍ يَنْقُـلُ النَّـصَّ مِـنَ الإيطاليَّـةِ، لُغَتِـهِ الأصْلِيَّـةِ، إلـى

العَرَبِيَّـةِ، وإذْ وَافَـقَ مُؤَلِّفُـهُ الأُسـتاذُ نوتشـيو أوردينـه علـى أنْ يُنْقَـلَ الِكـتابُ مِـنَ الفَرَنْسِـيَّةِ التـي وَقَـفَ بِنَفْسِـهِ علـى تَرْجَمَـةِ كِـتابِهِ هـذا إلَيْهـا، ارْتـأتْ دارُ الجَديـدِ، نَظَـرًا إلـى تَـنَوُّعِ مـادَّةِ الكِـتابِ وثَرائِهـا، أنْ يُتَرْجَـمَ الكِـتابُ على مَرحَلَتَيْـنِ اثْنَتَيْـنِ، فأوْكَلَـتْ، بِدايَـةً، إلـى الأُسـتاذِ مُحَمَّـد علـي بَـدَوي أن يُعِـدَّ مُسَـوَّدَةَ تَرْجَمَـةٍ، فَفَعَـلَ مَشْـكورًا واضِعًـا مَعارِفَـهُ الثَّرَّةَ فـي تَصَرُّفِ هـذا العَمَـلِ، ثُـمَّ تَعَهَّـدَتْ، دارُ الجديـدِ، بِقَلَمِهـا، تَوْجيـهَ هَـذهِ التَّرْجَمَـةِ الوُجْهَـةَ التي قَـرَأَتْ، هِيَ، علـى هَـدْيٍ مِنْهـا، هـذا الكِـتاب.

مِـنْ ثَـمَّ، وبالنَّظَرِ إلـى النَّصِّ العَرَبِيِّ الـذي انْتَهَيْنا إلَيْـهِ مِـنْ مَنْظـورِ «الأَصْـلِ» الـذي اعْتَمَدْنـا عَلَيْهِ، أي طَبْعَتَـيِّ النَّـصِّ الفَرَنْسِـيِّ الأوْلـى والثّانِيَـةِ، لا نَـرى غَضاضَةً في القَـوْلِ إنَّهُ أدْنى إلـى التَّلْخيصِ، بالمَعْنـى الـذي تَدَبَّـرَتْ بِـهِ العَرَبِيَّـةُ التَّلْخيـصَ، مِنْـهُ بالتَّرْجَمَـةِ الحَرْفِيَّـةِ؛ (ومِـنْ نافِـلِ القَـوْلِ إنَّ

التَّلْخيـصَ، بِهَـذا المَعْنـى، أبْعَـدُ مـا يَـكونُ عَـنِ الإيجـازِ والاخْتِصـار).

أخْـذًا بِمَذْهِبِ التَّلْخيـصِ هذا، وتَلْبِيَـةً لِهذهِ النِّيَّةِ فـي نَقْـلِ هذا النَّـصِّ إلـى العَرَبِيَّةِ، وبِنـاءً على أنَّ مَتْـنَ **لِوَجْهِ ما لا يَلْزَمُ** وحواشِـيهِ وهوامِشَـهُ مَبْنًى واحِـدٌ أحَـدٌ، بدا لَنـا أيْضًا أنَّ اطِّـراحَ المَراجِعِ التي يُحيـلُ إلَيْها المُؤَلِّـفُ، وإضافَةَ عَدَدٍ مِـنَ الهَوامِشِ المُخْتـارَةِ التـي تَأْخُـذُ بِيَدِ القارِئِ في شِـعابِ هذا النَّصِّ المَوْسـوعِيِّ علـى قَليلِ صَفَحاتِـهِ، لَيْسَ مِمّا يُخالِـفُ ما قَصَـدَ إلَيْهِ الأكاديميُّ نوتشـيو أوردينه مِـنْ وَراءِ وَضْعِـهِ هـذا الكِـتابَ الـذي يَصِفُـهُ هو نَفْسُـهُ بـ«البَيـانِ» («المانيفسـتو»)، ولا هـوَ مِمّـا يَتَقَـوَّلُ عَلَيْـهِ ما لَمْ يَقْصِـدْ إلَيْه.

لِوَجْهِ ما تَمَتَّعْنا بِهِ خِلالَ مُطالَعَتِنا هذا الكِـتابَ/ البيـانَ إذًا، بَـلْ عِرْفانًـا بِمـا تَمَتَّعْنـا بِـهِ، نَقَلْنا هذا

الكِـتابَ إلـى العَرَبِيَّـةِ علـى النَّحْـوِ المَذْكـورِ، فَعَسـى أنْ نَـكونَ قَـدْ أصَبْنـا فـي مـا ذَهَبْنـا إلَيْه مِـن اجْتِهـادٍ، وأن تُؤْجَـرَ مُتْعَتُنـا بِمِثْلِهـا!

نَقـولُ قَوْلَنـا هـذا، ويَنْعَقِـدُ أمَلُنـا علـى هـذا المُؤَمَّـلِ، غَيْـرَ أنَّـهُ لَيْـسَ مِمّـا نَمُـلُّ مِنْـهُ أنْ نُـرَدِّدَ المَـرَّةَ تِلْـوَ المَـرَّةِ قَوْلَ القاضـي البيسـانِيِّ مِنْ أنَّهُ «لا يَكْـتُبُ أحَدٌ كِـتابًا في يَوْمِهِ إلّا قالَ في غَدِهِ: لَـو غُيِّـرَ هذا لَـكانَ أحْسَـنَ، ولـو زيدَ هذا لَـكانَ يُسْتَحْسَـنُ، ولـو قُدِّمَ هذا لَـكانَ أفْضَـلَ، ولو تُرِكَ هـذا لَـكانَ أجْمَلَ، وهذا أعْظَـمُ العِبَرِ، وهو دَليلٌ علـى اسْـتيلاءِ النَّقْصِ علـى جُمْلَةِ البَشَـر»؛ فأنْعِمْ بِـهِ مِـنْ نَقْـصٍ وأنْعِمـي، وتَمَتَّـعْ وتَمَتَّعي...

دار الجـــديد
بيروت، تشرين الأوّل ٢٠١٨

إلى روزاليا

«وَمِنْ آياتِ الفَلْسَفَةِ
أنَّها تَـكْشِفُ لَنا جَدْوى ما لا جَدْوى
مِنْهُ، أو قُلْ: مِنْ آياتِها أنَّها تُعَلِّمُنا أنْ نُمَيِّزَ
بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ لِكَلِمَة جَدْوى».

پيار هادو(*)

مَدْخَل

(*) پيار هادو، (١٩٢٢ ٢٠١٠)، فَيْلَسوفٌ فَرَنْسِيٌّ مُتَبَحِّرٌ في الفَلْسَفَةِ القَديمَةِ، ولا سِيَّما الفَلْسَفَةَ النِّيوأفْلاطونيَّة.

حَـقُّ الطِّبـاقِ الذي أتَّخِـذْهُ عُنْوانًا لِهذا الكِـتابِ أنْ أُبَيِّـنَ بَعْـضَ مَقاصِدِه.

فالجَـدْوى أو اللُّـزومُ اللَّـذانِ يَـدورُ عَلَيْهِمـا كَلامـي هُنا، لا شـأنَ لَهُما بالجَدْوى أو اللُّزومِ اللَّذَيْن يُـقالُ باسْـمِهِما، على سَـبيلِ المِثالِ، إنَّ العُلومَ الإنْسـانِيَّةَ، والمَعـارِفَ النَّظَرِيَّـةَ عُمومًا، لا لُـزومَ لها ولا جَدْوى مِنهـا. وإنَّمـا اصْطَنِـعُ لِهَذَيْـنِ المَفْهومَيْـنِ، فـي الصَّفَحـاتِ التّالِيَـةِ، مَعْنًى أكْـثَرَ انْبِسـاطًا وكُلِّيَّة.

فَمَـدارُ تَفْكيـري، وَمَـدارُ حَديثـي، هُنا، علـى لُزومِ، المَعـارِفِ التـي لا صِلَـةَ، ولا رَحِـمَ، بَيْـنَ قَدْرِهـا وَقيمَتِهـا مِـنْ حَيْـثُ هـي كـذا ــ وعلـى جَدْواهـا اسْـتِطرادًا ــ وبَيْـنَ الغايـاتِ والمَـآرِبِ النَّفْعِيَّـةِ، أيًّا تَـكُنْ هـذِهِ الغايـاتُ والمَـآرِب.

نَعَـمْ، لِبَعْـضِ المَعـارِفِ والعُلـومِ غايَـةٌ مُضَمَّنَـةٌ فـي نَفْسِـها؛ ولأنَّ هـذهِ المَعـارِفَ، وهـذهِ العُلـومَ، مُتَرَفِّعَـةٌ عَـنِ الغايـاتِ وعـنِ المَـآرِبِ العَمَلِيَّـةِ والرِّبْحِيَّـة، فَمِـنْ شَـأْنِها أنْ تُسـاهِمَ إسْـهاماتٍ حاسِـمَةً فـي تَطَـوُّرِ الفِكْـرِ، وفـي تَرَقّـي السُّـلوكِ البَشَـرِيِّ والحَضـارَةِ الإنْسـانِيَّة.

وإذْ هَوْ كَذَلِكَ، فلا مُؤَدّى لاسْتِعْلاءِ المَنْطِقِ الرِّبْحِيِّ على ما سِواهُ إلّا تَقْويضُ أُسُسِ المُؤَسَّساتِ والمَرافِقِ التي يُفْتَرَضُ بِها أنْ تَرْعى هَذِهِ المَعارِفَ والعُلومَ في مَنأى مِنْ هاجِسِ الرِّبْحِ الآنِيِّ وَوَسْواسِ الاسْتِخْدامِ العَمَلِيِّ، وأعْني بِهَذِهِ المُؤَسَّساتِ والمَرافِقِ المَدارِسَ والجامِعاتِ والمَراكِزَ العِلْمِيَّةَ والمُخْتَبَراتِ والمَكْـتَباتِ وما يُعادِلُها مِنْ دورِ الثَّقافَةِ والفُنون.

بِالطَّبْـعِ، يُمكِـنُ لِلمَتاحِـفِ ولِلمَواقِـعِ الأثَرِيَّـةِ أنْ تَـدُرَّ عَوائِـدَ ماليَّـةً لا يُسْـتهانُ بِها أحْيانًـا غَيْرَ أنَّ السَّـبَبَ المُوجِبَ لإنْشـاءِ هـذا المُتْحَفِ أو ذاكَ، والسَّـبَبَ المُوجِـبَ لِرِعايَـةِ هـذا المَوقِـعِ الأثَرِيِّ

أو ذاكَ، لَيْسَ في الجَدْوى، بالمَعْنى التِّجاريِّ، مِنْهُ، وإنَّما في أصْلِ فِكْرَةِ وُجودِ هذا المُتْحَفِ، أوْ ذاكَ، وفي أصْلِ فِكْرَةِ المُحافَظَةِ على هذا المَوْقِعِ الأثَرِيِّ، أو ذاكَ، وإتاحَتِهِ أمامَ الزُّوّار. مَقولُهُ: إنَّ وُجودَ هذا المُتْحَفِ أو ذاكَ يَنْبَغي ألّا يَرْتَبِطَ، بِخِلافِ ما يُرَوِّجُ لَهُ البَعْضُ، بِما يَدُرُّهُ مِنْ عَوائِدَ أو لا يَدُرُّه.

وعلى غِرارِ المَتاحِفِ والمَواقِعِ الأثَرِيَّةِ، المَكْتَباتُ ومَراكِزُ التَّوْثيقِ وما يَجْرى مَجراها مِمّا يَجِبُ أنْ يُنْزَلَ في مَنْزِلَةِ الوَقْفِ الجَماعِيِّ المَوْقوفِ للخَيْرِ العامِّ، ومِمّا يَجِبُ أنْ يُرْتَخَصَ في سَبيلِ وُجودِهِ وبقائِهِ الغالي والنَّفيس.

أبْني على هذا لأُضيفَ بأنَّ صِفَةَ الوَقْفِ هذِهِ حُجَّةٌ كافِيَةٌ وافِيَةٌ للمُخالَفَةِ على أولَئكَ الذينَ يَستَبيحونَ كُلَّ شَيءٍ بِذَريعَةِ أنَّ الأوْقاتَ عَصيبَةٌ، وأنْ الزَّمَنَ زَمَنُ ضائِقَةٍ اقْتِصادِيَّةٍ وأنَّ أحْكامَ السّوقِ والمُضارَبَةِ تُبَرِّرُ التَّضْييقَ

المُطَّـرِدَ علـى مـا لا لُـزومَ لَـهُ، ولا نَفْـعَ مِنْـهُ، بِداعـي ضَبـطِ النَّفَقـاتِ ومـا شـابَه.

مِـنْ ثَـمَّ، لا ضَيْـرَ مِـنَ القَـوْلِ، بِـلا وَجَـلٍ ولا تَـرَدُّدٍ، إنَّ لُـزومَ المَعـارِفِ غَيـرِ المُجْدِيَةِ هو السَّـدُّ المَنيعُ الـذي يُمْكِـنُ أنْ يَحـولَ دونَ أنْ يَغْمُرَنـا طُوْفـانُ فِكْـرَةِ الجَـدْوى ــ الجَدْوى بِمَعْنـى أوَّلِيَّةِ المَنافِـعِ الاقْتِصادِيَّـةِ البَحْـتِ ــ وأنْ نَغْـرَقَ فـي لُجَجِـه.

فالجَـدْوى، بِالمَعْنـى المَذكورِ، أشْـبَهُ بِقاتِلٍ مُحْتَرِفٍ تَسـيلُ علـى يَدَيْـهِ، دونَ أنْ يَـرُفَّ لَـهُ جَفْـنٌ، دِمـاءُ الذّاكِـرَةِ والعُلـومِ الإنْسـانِيَّةِ واللُّغـاتِ القَديمَـةِ وحُرِّيَّـةِ البَحْـثِ والفُنـونِ والفِكْـرِ النَّقْـدِيِّ أعنـي: تَسـيلُ علـى يَدَيْـهِ دِمـاءُ كُلِّ المَعـارِفِ والمَلَـكاتِ التـي تَتَأسَّـسُ عَلَيْهـا الحَضـارَةُ والتـي يُفْتَـرَضُ أنْ تَـكونَ الغايَـةَ المَرْجَـوَّةَ لأيِّ جَهْـدٍ بَشَـريّ.

لِقُـرونٍ خَلَـتْ، في القَرْنِ الثّامِنَ عَشَـرَ، كَـتَبَ جان جاك روسّو(*):

(*)جـان جـاك روسّـو: أديـبٌ فَيْلسـوفٌ عالِـمٌ كانَـتْ ولادَتُـهُ فـي جنيـف سَـنَةَ ١٧١٢. يُعْتَبَـرُ روسّـو مِـنْ وُجـوهِ التّنْويـرِ الأُوروبِيِّ حَيْـثُ كانَ لأفْـكارِهِ ونَظَرِيّاتِهِ تَأثيـرٌ بالِـغٌ في السِّياسَـةِ والتَّرْبِيَـةِ والآداب.

«كانَتِ الأخْلاقُ والفَضائِلُ حَديثَ السّاسَةِ القُدامى، أمّا أهْلُ زَمانِنا فَلَيْسَ على ألْسِنَتِهِم سِوى حَديثِ التِّجارَةِ والمال».

مُؤَدّاهُ: كُلُّ ما لا يَسْتَجْلِبُ النَّفْعَ المادِيَّ، والرِّبْحَ المُباشَرَ، كَمالِيٌّ نافِلٌ لا فائِدَةَ مِنْهُ ولا لُزومَ لَهُ، بَلْ مُضَيِّعٌ للوَقْتِ وصادٌّ عمّا يَعودُ بالكَسْب.

أمّا رائِدُ عَصْرِ الأنوارِ دِنيه ديدرو(*) فَيُلاحِظُ بِدَوْرِهِ أنَّ

«كُلَّ ما لا جَدْوى مِنْهُ، ولا لُزومَ لَهُ، مُحْتَقَرٌ ومَوْضِعُ ازْدِراء... [فـ] الوَقْتُ [في زَمانِنا] أثْمَنُ مِنْ أنْ يُنْفَقَ [على ما يُحْمَلُ على مَحْمَلِ] التُّرَّهاتِ التي لا طائِلَ مِنْها».

أمّا الكَلِمَةُ الفَصْلُ فَتَبْقى لِشارل بودلير(**)، ولأبْياتِهِ الخالِدَةِ التي يَصِفُ فيها مِحْنَةَ الشّاعِرِ بَيْنَ النّاس. لا يَجِدُ بودلير ما يُشَبِّهُ بِهِ الشّاعِرَ إلّا طائِرَ القَطْرَس

(*) دنيه ديدرو، (١٧١٣ ـ ١٧٨٤)، مَوْسوعيٌّ وَفَيْلَسوفٌ فَرَنْسيٌّ مِنْ أعْلامِ التَّنْويرِ الأُوروبِيّ.

(**) شارل بودلير، (١٨٢١ ـ ١٨٦٧)، شاعِرٌ وناقِدٌ فَرَنْسي. أشْهَرُ دواوينه **أزهار الشَّرّ**.

الذي يَحولُ جَناحاهُ المارِدانِ، ما إنْ يَحُطَّ على يابِسَةٍ، بَيْنَهُ وبَيْنَ السَّيْرِ، ويَصيرُ أُضْحوكَةَ النّاظرين:

كذاكَ بَيْنَ النّاسِ حالُ الشّاعِرِ
حَظُّـهُ بَيْنَهُـم كَحَـظِّ الطّـائِرِ
يَقْتَحِمُ الإعْصـارَ في الظَّـلامْ
ولا يَـخْشـى رَمْيَـةَ كُـلِّ رامْ
لكِنَّـهُ عـلى الأرْضِ أسيـرُ
يُذْهِلُـهُ التَّصْفيـقُ والصَّفيـرُ
مِن ثِقَـلِ جَناحِهِ العِمْـلاقِ
يُعْجِزُهُ المَشْيُ مَشْيَ ذي السّاقِ(*)

لا تَدَّعـي صَفَحـاتُ هـذا الكِـتابِ الصَّغيـرِ أنَّهـا تُحيطُ إحاطَةً مُسْـتَغْرِقَةً بالمَوْضوعِ الذي تَـتَصَدّى لَـهُ. جُـلُّ أمْرِهـا أنَّهـا رَجْـعُ صَـدىً لأفـكارٍ وتَأَمُّلاتٍ أخْطَرَهـا لـي هـذا المَوضـوع. وإذْ ذَهَبْـتُ إلـى وَصْفِهـا بـ«البيـانِ»، («مانيفسـتو»)، علـى بَيِّنَةٍ مِنْ أنَّهـا لا تَسْـتَوْفي، مِـنْ حَيْـثُ الإحاطَـةُ مُقْتَضيـاتِ «البَيـانِ»، فَتَدْليلًا علـى طَبيعَتِهـا «المُلْتَزِمَةِ» وهي

(*) تَرْجَمَة عبد الهادي الإدْريسي.

طَبيعَةٌ لَمْ تَنْفَكَّ سِمَةً تَسِمُني شَخْصِيًّا، وَتَسِمُ ما أنْشَطُ لَه.

لَقَدْ أرَدْتُ هذِهِ الصَّفَحاتِ إطارًا أُدْرِجُ تَحْتَهُ جُمْلَةً مِنَ المُخْتاراتِ ومِنَ التَّأَمُّلاتِ التي تَجَمَّعَتْ لَدَيَّ خِلالَ السَّنَواتِ الطِّوالِ التي قَضَيْتُها في التَّعْليمِ والبَحْث. وأعْتَرِفُ، ابْتِداءً، بأنَّني جَمَعْتُ هَذِهِ المُنْتَخَباتِ وهَذِهِ التَّأَمُّلاتِ على سَجِيَّتي، ومِنْ ثَمَّ فَلَعَلَّها أقْرَبُ ما تكونُ إلى مُسَوَّدَةٍ بِرَسْمِ أنْ تُسْتَكْمَلَ وتُسْتَتَمَ مِنْها إلى الكِتابِ الذي يَسْتَوْفي الغَرَضَ مِنْه. وبِهذا الاعْتِبارِ، وشأنَ كُتُبِ المُنْتَخَباتِ والمُخْتاراتِ، فَلَعَلَّ شَيْئًا أهْمَلْتُهُ أو مَرَرْتُ دونَهُ أنْ يَبْدوَ للمُطالِعِ أجْدَرَ بالإثْباتِ مِمّا كانَ إثْباتُه.

على بَيِّنَةٍ مِنْ هَذِهِ العُيوبِ الأصْلِيَّةِ، رَسَمْتُ لِهذا البَيانِ أنْ يَدورَ على مداراتٍ ثَلاثَةٍ:

- مَدارٍ أوَّلٍ خَصَصْتُهُ بِجَدْوى الأدَبِ بِلِحاظِ ما يَبْدو عَلَيْهِ الأدَبُ مِنْ لاجَدْوى ومِنْ نُفول؛

- ومَدارٍ ثانٍ خَصَصْتُهُ بالعَواقِبِ الفادِحَةِ التي

تَسْتَجرُّها سِيادَةُ المَنْطِقِ النَّفْعِيِّ على التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمِيِّ وسِواهُما مِنَ النَّشاطاتِ الثَّقافِيَّة؛

- ومدارٍ ثالِثٍ أرَدْتُ مِنْ وَرائِهِ مَزيدَ إيْضاحٍ لِما رَمَيْتُ إلَيْه، فَعَرَضْتُ على مَتْنِ صَفَحاتِهِ أمْثِلَةً بالِغَةً على ما بَيْنَ اللُّزومِ وأضْدادِهِ مِنْ جَدَلٍ واسْتَعَدْتُ مُخْتاراتٍ بِقَلَمِ عَدَدٍ مِنْ أعْيانِ الأدَبِ، على مَرِّ العُصورِ، تُسَفِّهُ هاجِسَيِّ الحِيازَةِ والتَمَلُّكِ، وتُبَيِّنُ الطَّبيعَةَ الوَهْمِيَّةَ للشَّأْنِ والقَدْرِ اللَّذَيْنِ نَنْسِبُهُما لَهُما وتُدَلِّلُ على ما يَتَرَتَّبُ مِنْ أثَرٍ فادِحٍ مِنْ جَرّاءِ اسْتِعْلاءِ ذَيْنِكَ الهاجِسَيْنِ ولا سِيَّما على سَعْيِ الإنْسانِ إلى الكَمالِ وسَعْيِه إلى الحُبِّ والحَقيقَة.

كَذَلِكَ فَلَقَدِ اسْتَحْسَنتُ أنْ أسْتَكْمِلَ تأمُّلاتي بأنْ أُضيفَ إلَيْها بَحْثًا فَذًّا وَضَعَهُ أبراهام فلكسنر(*)

(*) أبراهام فلكسنر، (١٨٦٦ ـ ١٩٥٩)، مُرَبٍّ أميركيٌّ كانَ لَهُ دَوْرٌ حاسِمٌ في إصْلاحِ القِطاعِ التَّرْبَويِّ/التَّعْليميِّ في الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركِيَّةِ وكندا، ولَهُ يَعودُ الفَضْلُ بِتأسيسِ «مَعْهَدِ الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» المُلْحَقِ بِجامِعَةِ پرينستون.

سَـنَةَ ١٩٣٧ ونُشِـرَتْ مِنْـهُ نُسْـخَةٌ مُنَقَّحَـةٌ بَعْدَ ذَلِكَ بعامَيْـنِ اثْنَين.

ولِمَـنْ لا يَعْـرِفُ، فـإنَّ الفَضْـلَ فـي إنْشـاءِ «مَعْهَدُ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» التّابِـعِ لِجامِعَةِ پرينسـتون إنمـا يعودُ لَـهُ ولإصْـرارِه. والمَعْهَـدُ المَذْكـورُ إنَّما أُنْشِـئَ لإتاحَـةِ الفُرْصَـةِ أمـامَ العُلْمـاءِ والباحِثينَ ليَنْصَرِفـوا إلـى عُلومِهِـم وأبْحاثِهِـم مُتابِعيـنَ نِداءَ الفُضـولِ فـي مَنْـأى مِـنْ أيِّ مُوجِـبٍ أو اشْـتِراطٍ نَفْعـيٍّ أو عَمَلِـيّ.

وَحَسْـبُنا أنْ نُذَكِّـرَ بـأنَّ عِظامًـا مِـنْ مِثْـلِ ألبـرت آينْشـتاين(*) وروبرت أوپنهايمر(**) قَدْ قَضيا بَعْضًا مِـنْ عُمْرِهِمـا فـي هـذا المَعْهَـدِ لِنُـدْرِكَ مَكانَتَـهُ كَصَـرْحٍ عِلْمِـيٍّ نَسـيجَ وَحْـدِه.

(*) ألْبِرْت آينْشـتاين، (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥)، عالِمٌ ألْمانِيُّ المَوْلِدِ، سويسـرِيُّ الجِنْسِـيَّةِ وأميركِيُّها، مَوْلـودٌ لأبَوَيْـنِ يَهودِيَّيـن، وهـو واضِـعُ نَظَرِيَّتَـيْ النِّسْـبِيَّةِ الخاصَّـةِ وَالعامَّـةِ. حـازَ فـي عـامِ ١٩٢١ جائِـزَةَ نوبـل فـي الفيزياء.

(**) روبـرت أوپنهايمـر، (١٩٠٤ ـ ١٩٦٧)، فيزيائِـيٌّ أمريكِـيٌّ شَـغَلَ مَنْصِـبَ المُديـرِ العِلْمِـيِّ لـ«مَشْـروع مانهاتـن» الـذي أثْمَـرَ تَصْنيـعَ أوَّلِ سِـلاحٍ نَـوَوِيٍّ اسْـتُخْدِمَ فـي تاريـخِ البَشَـرِيَّة.

فـي هـذا النَّصِّ الرّائِـعِ الـذي أضْفنـاهُ إلـى كِـتابِنا هـذا، يَـرْوي لَنـا فلكسـنر سـيرَةَ بَعْـضِ الاكْـتِشافاتِ العِلْمِيَّـةِ الكُبْـرى مُبَيِّنًا فـي مَعْرِضِ رِوايَتِـهِ كَـيْفَ أنَّ أبْحاثًـا عِلْمِيَّـةً حُمِلَـتْ أوَّلَ الأمْـرِ علـى مَحْمَـلِ النّافِلَةِ والتي لا لُـزومَ لها ولا جَـدْوى مِنهـا لِخُلُـوِّ نِيَّـةِ أصْحابِهـا مِـنْ أيِّ غَـرَضٍ عَمَلِـيٍّ أو نَفْعِيٍّ، مَهَّدَتِ السَّـبيلَ إلى اخْتِراعاتٍ، مِـنْ قبيـلِ الكَهْرَبـاءِ والتَّواصُـلِ اللّاسِـلْكيّ، غَيَّرَتْ وَجْـهَ البَشَـرِيَّة.

فـي مـا يَعنينـي، لا بُـدَّ لـي مِـنَ الاعْتِـرافِ بـأنَّ بَحْـثَ فلكسـنر هـذا أعانَنـي علـى تَبْديدِ مـا قَدْ يَغْشـى مَواقِفـي مِـنْ الْتِبـاس.

فَبِطَبيعَـةِ الحـالِ، ومِمّـا لا أحْتـاجُ إلـى التَّأكيـدِ عليـه، أنَّـهُ لَيْـسَ فـي نِيَّتـي أنْ أنْصُـبَ المَعـارِفَ الإنْسـانِيَّةَ مَنْصِـبَ العَـداءِ مِنَ المَعـارِفِ العِلْمِيَّةِ علـى نَحْوِ ما سـادَ ابْتِـداءً مِنْ خَمْسـينيّاتِ القَرْنِ العِشْـرين تَحْتَ تَأْثيرِ بَحْثٍ شَـهيرٍ نَشَرَهُ أيّامذاك

تشارلز پرسي سنو[*]. ولو أنَّني سَعَيْتُ إلى ذَلِكَ لَكُنْتُ كَمَن يُحاوِلُ نَفْخَ النّارِ في رَمادٍ بارِدٍ، أو كَمَنْ يُحَمِّلُ نَفْسَهُ حِمْلًا ثَقيلًا ويَمْشي بِهِ في رِمالٍ مُتَحَرِّكَة، وَلَأَثْبَتُّ على نَفْسي قَليلَ فَهْمي لِما يَحُمُّ مِنَ ضرورَةِ الدَّعَوَةِ إلى وَحْدَةِ المَعارِف أي إلى ذَلِكَ «الحِلْفِ الجَديدِ» الذي رافَعَ عَنْهُ، في صَفَحاتٍ وَضيئَةٍ، حامِلُ جائِزَةَ نوبل إليا پريغوجين[**] وهي الوَحْدَةُ التي يَتَهَدَّدُها اليَوْمَ الإفْراطُ في تَبْعيضِ المَعارِفِ والتَّخَصُّصاتِ العِلْمِيَّةِ وتَجْزِئَتِها.

ومِمّا نَدينُ بِهِ لفلكسنر في بَحْثِهِ هذا، ما يُبَيِّنُهُ بالدَّليلِ القاطِعِ مِنْ أنَّ العُلومَ شاهِدٌ على لُزومِ ما لا يَلْزم، ومِنْ أنَّ لِرُوّادِ العُلومِ البَحْتِ يَدًا لا تَتَدَنّى عَنْ يَدِ عُلماءِ الإنْسانِيّاتِ في الحَرْبِ

(*) تشارلز پرسي سنو، (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، أديبٌ وكيميائيٌّ بريطانِيّ. مِنْ أشْهَرِ آثارِهِ **الثَّقافَتان**، (١٩٥٩)، الذي يَرْثي فيه للقَطيعَةِ بَيْنَ مَنْ يُسَمّيهِم «المُثَقَّفينَ الأدَبِيّين» وَمَنْ يُسَمّيهِم «المُثَقَّفينَ العِلْمِيّين».

(**) إليا پريغوجين، (١٩١٧ ـ ٢٠٠٣)، كيميائيٌّ وفيزيائيٌّ بلجيكيٌّ مِنْ أصْلٍ روسِيّ. حازَ جائِزَةَ نوبل عام ١٩٧٧.

على تَسَلُّطِ مَنْطِقِ الرِّبْحِ وتَسَيُّدِهِ، وفي الدِّفاعِ عَنْ حُرِّيَّةِ البَحْثِ العِلْمِيِّ ومَجَانِيَّةِ المَعْرِفة.

بِشَهادَةِ جُمْلَةٍ مِمّا انْتَهى إلَيْنا مِنْ تَأَمُّلاتِ أرسطو(*)، وبشهادَةِ عَدَدٍ مِنْ أخْبارِ إقليدس(**) وأرخميدس(***) وغَيْرِهِما، لَمْ يَفُتْ أهْلَ العُصورِ الخَوالي التَّمْييزُ بَيْنَ بابَيْنِ مِنْ العِلْمِ: عِلْمٍ تَأَمُّلِيٍّ مُتَرَفِّعٍ عَنِ الرِّبْحِيَّةِ وعَنِ المَنافِعِ الآنِيَّةِ، وعِلْمٍ ذي وُجْهَةٍ تَطْبيقيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ عَمَلِيَّة.

فَمِمّا يَتَعَذَّرُ، حَدَّ الاسْتِحالَةِ، أنْ تُكالَ القِيَمُ، وأنْ تُقاسَ، بِمَوازِينِ الكَيْلِ والقِياسِ الصّالِحَةِ لِكَيْلِ الكَمِيّاتِ. وَبِما أنَّ هذه المَوازينَ لا تَصْلُحُ بِطَبيعتها لكَيْلِ الكَيْفِيّاتِ وقياسِها لا بُدَّ مِنَ

(*) أرِسْطُو، (٣٨٤ ق.م. ـ ٣٢٢ ق. م)، فَيْلَسوفٌ يُونانيٌّ، تَتَلْمَذَ على أفلاطون وتَلْمَذَ الإسكندر الأكبر.

(**) أقليدس: فَيْلَسوفٌ ورِياضِيٌّ يُونانيٌّ كانَ مَوْلِدُهُ حوالى ٣٠٠ قَبْلَ الميلاد. لَهُ تُنْسَبُ «الهَنْدَسَة الإقليديَّة»، وَكِتابُهُ **العَناصِر** دُسْتورٌ مِنْ دَساتيرِ العِلْمِ الرِّياضِيِّ في تاريخِ البَشَرِيَّة.

(***) أرخميدس، (٢٨٧ ق.م. ـ ٢١٢ ق. م)، عالِمُ فَلَكٍ وطَبيعيّاتٍ وفيزيائيّاتٍ ومُهَنْدِسٌ ومُخْتَرِعٌ يُونانيّ.

التَّسْـليمِ بـأنَّ كُلَّ الاسْـتِثْماراتِ لا تُـزانُ بِعَوائِدِهـا المُباشَـرَةِ فَحَسْـب.

بَـلْ أكْـثَرُ مِنْ ذلكَ: إنَّ المَعـارِفَ، بِحَدِّ ذاتِها، هي سَـدٌّ مَنيـعٌ يَقْطَـعُ الطَّريقَ علـى أوْهـامِ الجَبَروتِ التـي يُزَيِّنُها امْتِـلاكُ الثَّرَواتِ والمُقَـدَّراتِ الماليَّة.

نَعَـم، لِلْمـالِ أنْ يَشْـتَرِيَ كُلَّ مـا لَـهُ مِـنْ ثَمَـن: يَشْـتَري المـالُ لِصاحِبِـهِ مَقْعَـدًا فـي المَجْلـسِ النِّيابـيِّ، أو فـي مَجْلِـسٍ مِـنْ مَجالِـسِ القَضـاء... يَشـتري لَـهُ وَجاهَـةً اجتماعيَّةً أو مَنْصِبًـا حُكومِيًّا؛ نَعَـم، يَشْـتَري المـالُ هـذهِ «الأشْـياءَ» وسِـواها كَـثيرٌ غَيْـرَ أنَّـهُ لَيْـسَ للمـالِ أنْ يَشْـتَريَ لِصاحِبِـهِ العِلْـمَ والمَعْرِفَـة!

فَثَمَـنُ العِلْـمِ والمَعْرِفَـةِ مِـنْ طَبيعَـةٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلَّ الاخْتِـلافِ عَمّـا يُمْكِـنُ للمـالِ أنْ يَشْـتَريه: حَتّـى شـيكٌ علـى بَيـاضٍ، شـيكٌ مَفْتـوحٌ، لا يُمْكِنـهُ أنْ يُحْـرِزَ لِحامِلِـه، تِلقائِيًّـا، مـا يَصْبو إلى إحْـرازِهِ مِنْ عِلْـمٍ ومَـنْ مَعْرِفَة. فلا إحْـرازَ للعِلْـمِ والمَعْرِفَةِ إلّا

مِـنْ طَريـقِ بَـذْلِ الجَهْدِ، ولا بَـذْلَ لِجَهْدٍ إلّا شَـوْقًا إلـى أمْـرٍ أو تَوْقًـا مَشْـبوبًا إلَيْه.

نَعَـم، لِطالِـبِ الوَجاهَـةِ العِلْمِيَّـةِ أن يَشْـتَرِيَ دَرَجَـةً عِلْمِيَّـةً، ولكـنْ هَـلْ تَزيدُهُ هذه الشَّـهادَةُ المُشْـتَراةُ كما تُشْـرى السِّـلَعُ عِلْمًـا؟ بالطَّبْع كلّا!

ثُـمَّ لنـا أنْ نَذْهَـبَ إلـى أبْعَـدَ مِمّـا ذَهَبْنـا إلَيْـه: فَمِـنْ شـيمَةِ المَعـارِفِ أنْ تَـتَحَدّى قَوانيـنَ السّـوقِ علـى وَجْـهٍ آخَـرَ: لا يَنْتَقِصُ مِـنْ مَعارِفِ الواحِـدِ مِنّـا شَـيئًا أنْ يُشْـرِكَ الآخريـنَ بِمَعارِفِـه. بَـلْ لَعَـلَّ هـذا الإشْـراكَ أنْ يُنَمِّيَهـا وأنْ يُضاعِفَها! فَعِنْدَمـا يُعَلِّـمُ واحِـدٌ مِـنَ النّـاسِ واحِـدًا آخَـرَ نَظَرِيَّـةَ النِّسْـبيَّةِ، أو يُفَسِّـرُ لَـهُ صَفْحَـةً مِـنْ أدَبِ ميشـال دو مونتينـه(*) لا يُقَلِّـلُ هـذا التَّعْليمُ مِنْ عِلْمِـهِ، هـو، بالنِّسْـبِيَّة أو بـأدَبِ دو مونتينـه في شَـيْءٍ بَـلْ يُتيـحُ لَـهُ أنْ يُثْـريَ عِلْمَـهُ بِهِمـا مِـنْ خِـلالِ التَّفاعُـلِ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ مَـنْ يُعَلِّـم، وهكـذا

(*) ميشـال دو مونتينـه، (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢)، أديـبٌ ومُفَكِّـرٌ فَرَنْسِـيٌّ مِـنْ أعْـلامِ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأُوروبِـيّ.

يَنْقَلِبُ العاطي كاسِبًا، والمُفْضِلُ مُفْضَلًا عَلَيْه، وهو ما يُخالِفُ قَوانينَ السّوقِ ومَنْطِقَه.

يَتَعَذَّرُ، نَعَم، في عالَمٍ، يَحْكُمُ فيهِ، وعَلَيْه، «الكائِنُ الاقْتِصاديُّ»، (الـ«هومو إيكونوميكوس»)، ــ يَتَعَذَّرُ أنْ نُدْرِكَ بِيُسْرٍ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ وجْدواه، ولا جَدْوى ما يَلْزَمُ وَنُفولَهُ، ومِصْداقُ هذا التَّعَذُّرِ أنَّ الكَثيرَ مِنَ السِّلَعِ النّافِلَةِ تُباعُ مِنّا بِوَصْفِها مِنَ الضَّروريّات!

وبِمِقْدارِ ما يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ، يُفْجِعُ، كُلَّ الفَجيعَةِ، ما نَراهُ مِنِ انْصِرافِ الكَثيرينَ مِنْ بَني البَشَرِ إلى تَكْديسِ الثَّرَواتِ والاسْتِئْثارِ بالسُّلْطَةِ، وَيُفْجِعُ كُلَّ الفَجيعَةِ ما نَراهُ على الشّاشاتِ وفي وَسائِلِ التَّواصُلِ الاجْتِماعِيِّ مِنْ تَقَمُّصِ «النَّجاحِ» على صُورَةِ مُقاوِلٍ أو رَجُلِ أعْمالٍ يَتَيَسَّرُ لَهُ، بِطُرُقِ الاحْتِيالِ، بِناءُ إمْبراطوريَّةٍ مُتَرامِيَةِ الأطْرافِ، أو على صورَةِ سِياسِيٍّ فاسِدٍ لا يُفْلِتُ مِنْ نَيْلِ العِقابِ على جرائِمِهِ فَحَسْب بَلْ يُهينُ مَفْهومَ التَّمْثيلِ الشَّعْبيِّ بأنْ يَجْعَلَ بَرْلَمانَ البَلَدِ الذي

يَنْتمي إلَيْهِ يُصَوِّتُ على قوانينَ وتَشريعاتٍ يُفيدُ مِنْها هو شَخْصِيًّا، بَلْ يُفْجِعُ، كُلَّ الفَجيعَةِ، أنْ يَتَحَوَّلَ الرِّبْحُ والإثْراءُ إلى أرْضِ ميعادٍ تَهْفو إلَيْها القُلوبُ ويُهْرَعُ النّاسُ إلَيْها لا مُبالينَ بِما تَدوسُ عَلَيْهِ أقْدامُهُم في هَرَعِهم هذا مِنْ ذَخائِرَ طَبيعيَّةٍ لا تَوازُنَ بيئِيًّا بِدونِها ولا كَرامةً بَشَرِيَّة.

ضِفْ إلَيهِ أنَّ الناسَ في سِباقِهِمِ المَجنونِ هذا إلى أرْضِ الميعادِ تِلْكَ يُعْمونَ عُيونَهُم بأيْديهم عَنْ مُتَعِ الحَياةِ والكَوْنِ وجَمالاتِهِما: عَنْ جَمالِ غُروبِ الشَّمْسِ أو جَمالِ السَّماءِ المُرَصَّعَةِ بالنُّجومِ، عَنْ جَمالِ زَهْرَةٍ تَتَفَتَّحُ أو فَراشَةٍ تَطيرُ أو طِفْلٍ يَبْتَسِمُ ولا يُسْتَهانَنَّ بِهَذِهِ الجَمالاتِ على بَساطَتِها فَهَيْهاتَ مِمَّنْ لا يَتَذَوَّقُ هذهِ التَّفاصيلَ أنْ يَسْتَمْتِعَ بِما هو فَوْقَها وأكْبَر مِنها.

ولَكَمْ أصابَ أوجين يونسكو(*) عِنْدما قال: «مَنْ

(*) أوجين يونسكو، (١٩٠٩ ـ ١٩٩٤)، مُؤَلِّفٌ مَسْرَحِيٌّ فَرَنْسِيٌّ رومانيُّ الأصْل. مِنْ أشْهَرِ مَسْرَحِيّاتِهِ المُعَرْبَة **الكَراسي** و**المُغَنِّيَة الصَّلْعاء**.

لا يَفْقَهُ لُزومَ ما لا يَلْزَمُ ونُفولَ ما يَلْزَمُ، لا يَفْقَهُ مِنَ الفَنِّ شَيْئًا». ومِنْ قَبْلِ أنْ تَوَصَّلَ يونسكو إلى قَناعَتِهِ هذِهِ كانَ مُثَقَّفٌ يابانِيٌّ، هو النّاقِدُ أوكاكورا كاكوزو، (١٨٦٢ ـ ١٩١٣)، قَدْ ذَهَبَ إلى ما مُفادُهُ أنَّ اللَّحْظَةَ التي انْفَصَلَ فيها الإنْسانُ عَنِ الكائِناتِ الحَيَّةِ الأُخْرى هي تِلْكَ اللَّحْظَةُ التي انْحَنى فيها لِأوَّلِ مَرَّةٍ وقَطَفَ فيها زَهْرَةً لِيُهْديها لِصاحِبَتِه:

«فإنَّما دَلَفَ الإنْسانُ إلى مَلَكوتِ الفَنِّ عِنْدما أحْسَنَ تَصْريفَ ما لا لُزومَ لَهُ مِنْ فِعْلٍ ومِنْ سُلوك».

مُنْتَهى القَوْلِ: لا شاعِرِيَّةَ مُمْكِنَةً إلّا في مَنأى مِنَ العَجَلَةِ ومِنْ حِساباتِ الرِّبْحِ والخِسارَة.

يَقولُ راينر ماريا ريلكه(*):

«لا يَكونُ الفنانُ فنّانًا حَقًّا إلّا مَتى أعْرَضَ عَنِ الحِسابِ وعَنِ الإحْصاء... لا يَكونُ الفَنّانُ فَنّانًا حَقًّا إلّا متى أشْبَهَ شَجَرَةً لا تَسْتَعْجِلُ دَورانَ

(*) راينر ماريا ريلكه، (١٨٧٥ـ ١٩٢٦)، شاعِرٌ نِمْساوِيٌّ مِنْ أبْرَزِ آثارِهِ **مَرْثِيّات دوينو ورَسائِل إلى شاعِرٍ شابّ**.

النُّسْغِ في أغْصانِها وعُروقِها ــ شَجَرَةً تَصْمُدُ لِعواصِفِ الرَّبيعِ واثِقَةً مِنْ أنَّ الرَّبيعَ على الأبواب...».

نَعَمْ، حاجَتُنا إلى النّافِلِ وما لا لُزومَ لَهُ كحاجَتِنا إلى الهَواء.

أعودُ عَوْدي إلى يونِسْكو:

«الشِّعْرُ والخَيالُ والإبْداعُ أشْكالٌ مِنَ التَّنَفُّسِ الذي لا حَياةَ مِنْ دونِه».

وهو كَذَلِكَ: فَهَذِهِ النَّشاطاتُ التي يَعُدُّها الكَثيرونَ نافِلَةً وغَيْرَ ذاتِ نَفْعٍ وجدَوى هي ما يَمُدُّنا بِما نَحْتاجِ إلَيْهِ من عَزْمٍ لِنَتَصَوَّرَ عالمًا أفْضَلَ مِنَ العالَمِ الذي نَعيشُ فيهِ أو لِنُؤَلِّفَ عَوالِمَ مِثالِيَّةً تَنْتَفي فيها المَظالِمُ والفَوارِقُ المُؤْلِمَةُ التي تَسودُ على عالَمِنا هذا.

ويَزيدُ مِنْ إلْحاحِ حاجَتِنا إلى النّافِلِ وما لزومَ لَهُ ما يكونُ في أوْقاتِ الأزَماتِ الاقْتِصاديَّةِ مِنْ تَقْديمٍ لِهاجِسِ اسْتِجلابِ المَنافِعِ. فالأنانِيَّةُ بأسْوأِ ما يُمْكِن أن تَتَهَيَّأَ عَلَيْه مِنْ هَيْئَةٍ تَصيرُ

البُوصَلَةَ التي يُؤْتَمُّ بِها، وخَشَبَةَ الخَلاصِ التي لا نَجاةَ إلّا على مَتْنِها.

ففي هَذِه الأوْقاتِ، أكْثَرَ مِنْ سِواها، يَلْزَمُنا أنْ «نَفْقَهَ، على ما يَقولُ عالِمانِ مَشْهودٌ لَهُما(*)، بِأنَّ جَدْوى ما لا جَدْوى مِنه هو رَفيقُ الحَياةِ والإبْداعِ والحُبِّ والرَّغَباتِ لأنَّ ما لا جَدْوى مِنْهُ هو الشَّجَرَةُ التي تُثْمِرُ لنا الثَّمَراتِ التي نَحْنُ بأمَسِّ الحاجَةِ إلَيْها، وأمَسُّ ما نَحتاجُ إلَيْهِ أحيانًا هو أنْ نَعِيَ أنَّ الحَياةَ لَيْسَتْ دائِمًا مُسابَقَةً للوَقْتِ تَحْتَ عُنوانِ عَدَمِ إضاعَتِه!».

ويَحْضُرُني هُنا ما قالَهُ ماريو فارجاس لوسّا(**) بِمناسَبَةِ تَسَلُّمِهِ جائِزَةَ نُوبل عام ٢٠١٠:

«إنَّ عالَمًا خالِيًا مِنَ الآدابِ والفُنونِ لَهُوَ عالَمٌ مَبْتورُ الرَّغَباتِ، مَنْزوعٌ مِنَ المِثالِيّات، مُعَطَّلٌ عَنِ الإقْدامِ، بَلْ قُلْ لَهُوَ عالَمٌ مِنَ الكائِناتِ الآلِيَّةِ المُفْتَقِرَةِ إلى ما يَجْعَلُ الكائِنَ البَشَرِيَّ يَسْتَحِقُّ هَذِهِ المَرْتَبَة؛ وإنَّما يُرَتِّبُ هذا الاسْتِحْقاقُ للكائِنِ البَشَرِيِّ ما

(*) هُما عالِما النَّفْسانِيّاتِ ميغال بنساياج وجيرار شميت.

(**) ماريو ڤارچاس لوسّا، (١٩٣٦ ـ)، كاتِبٌ وصِحافِيٌّ وسِياسِيٌّ مِنَ البيرو.

نَعْرِفهُ لَـهُ مِنَ قُـدْرَةٍ على أنْ يَنْجِتَ نَفْسَـهُ في الحُلْمِ والخَيـالِ، بِوَصِفِـهِ آخَـرَ، أوْ حتّـى آخَرين».

لا بُـدَّ للواحِـدِ مِنّـا، والواحِـدَةِ، أنْ يَقِـفَ علـى جَـدَلِ الجَدْوى وعَدَمِهـا واللُّزومِ وعَدَمِـهِ لِيَتَحَقَّقَ بِنَفْسِـهِ مِـنْ أحَـدِ تِلْـكَ التَّناقُضـاتِ الصَارِخَةِ التي يَعْمُـرُ بِهـا التّاريـخ: لَيْـسَ مِـنْ بـابِ الصُّدْفَـةِ أنَّ المَكْـتَباتِ والأعْمـالَ الفَنِيَّـةَ تَدْفَـعُ، فـي مَراحِـلِ التّاريـخِ التـي يَتَعَـزَّزُ فيهـا التَّعَصُّـبُ ويَشْـتَدُّ عَضُـدُهُ، أثْمانًـا مُسـاوِيَةً لِتِلْكَ التي يَدْفَعُها البَشَـرُ المُغْضـوبُ عَلَيْهـم باسـمِ ذَلِـكَ التَّعَصُّـب!

فـي هـذه المَراحِلِ مِنَ التّاريخِ يَشْـتَدُّ النَّكيرُ على كُلِّ مـا يَبْـدو نافِـلًا وغَيْـرَ ذي جَـدْوى، أو يُوسَـمُ بِوَسْـمِ النّافِـلِ وغَيْـر ذي الجَـدْوى واسْـتِطْرادًا بِوَسْـم اللّالُـزوم: أَلَيْـسَ بالاسْـتِنادِ إلى فَتـاوى مِنْ هـذا القَبيـلِ أنْ أُحْرِقَتْ في الإسْـكِنْدِرِيَّةِ عَشَـراتُ الكُـتُبِ المَوْسـومَةِ بـ«الوَثَنِيَّةِ» بأمْرٍ مِنَ الأسْقُفِ تيوفيـل؟ وأنْ أُحْرِقَـتِ المَكْـتَبَةُ المَلَـكِيَّةُ فـي الصّيـنِ بَعْـدَ اسْـتيلاءِ قبائِـلِ الهسـيونغ نـو علـى

مدينـةِ ليـو يانج في القَـرْنِ الرابِعِ للميلاد؟ وكُـتُبُ مَنِ اتَّهَمَتْهُم محاكِمُ التَّفْتيشِ بـ«الهَرْطَقَة»؟ وأَلَيْسِ باسْـمِ أمْثـالِ هـذِهِ الفَتـاوى أنْ أُحْرِقَتْ فـي بَرْلينَ، وَسْطَ احْتِفالاتٍ شَعْبِيَّةٍ، على أيْدي النّازِيّين، كُـتُبُ «الأدَبِ المُنْحَـطِّ»؟ وأنْ دَمَّـرَ الطّالبـانُ تَماثيلَ بوذا فـي باميـان (٢٠٠١)، وأنَّ «الجِهادِيّينَ» يُحاوِلونَ بِلا كلالَةٍ تَخْريبَ مَكْـتباتِ تومبوكـتو؟

لَيْسَـتْ هَـذِهِ العَيِّنـاتُ إلّا قَليـلًا مِـنْ كَثيـرٍ ولكِـنَّ فيهـا الكِفايَـةَ لِنَتَأَمَّـلَ فـي طَبيعَـةِ العُنْـفِ الـذي يُوَجَّـهُ أحْيانًـا إلـى جَمـاداتٍ عَـزلاءَ بِحُجَّـةِ لا جَدْواهـا، ولِنَخْلُـصَ مِـنْ هـذا التَّأمُّـلِ، فـي عِـدادِ خُلاصـاتٍ أخْـرى، إلـى أنَّ هـذا العُنْـفَ يُثْبِـتُ بِذاتِـهِ، وعلـى غَفْلَةٍ مِنْ أصْحابِـهِ، أنَّ مُجَرَّدَ وُجودِ هـذه الأشـياءِ التـي يَأْخُـذونَ عَلَيْهـا لا جَدْواهـا، ويَحْكُمـونَ عَلَيهـا بالإعْـدامِ، يَطْعَـنُ فـي المَنْطِقِ الذي يَتَأسَّـسُ عَلَيْـهِ رأيُهُم وتَشْـخيصُهم بِأنَّها غَيْرُ ذي نَفْـعٍ وجَـدْوى!

ومِـنْ دُروسِ التّاريـخِ أيْضًـا وأيْضًـا أنَّهُ ما مِـنْ مَرَّةٍ

انْحَطَّتْ فيها البَشَرِيَّةُ إلّا ورافَقَ هذا الانْحِطاطَ امِّحاءٌ للتَّعْبيراتِ الجَماليَّةِ الرَّفيعَة.

في الصَّفَحاتِ الأخيرَةِ مِنْ الرِّسالَةِ المُعَنْوَنَةِ **في البَديع**، وهي مِنْ أهَمِّ كُتُبِ النَّقْدِ الأدَبِيِّ التي خَلَّفَتْها لنا العُصورُ القَديمَةُ، يُفَصِّلُ لونجين الزّائِف(*)، واضِعُ هَذِهِ الرِّسالَةِ، الأسْبابَ التي أدَّتْ إلى انْحِطاطِ الآدابِ والمَعارِفِ في روما، والتي حالَتْ دَونَ أنْ يَبْزُغَ فيها بَعْدَ سُقوطِ نِظامِها الجُمهوريِّ كُتّابٌ كِبارٌ حَقًّا:

«نَعَمْ، إنَّ شَهْوَة المالِ والثَّرْوَةِ مَرَضٌ لا إبْلالَ مِنْهُ [...] حُبُّ الشَّهَواتِ يَسْتَرِقُّ المَرْءَ وشَهْوَةُ المالِ تَنتَقِصُ مِنْهُ [...] وإذْ يَنْشِغِلُ الأنانِيّونَ مِنَ البَشَرِ بِهَذِهِ المَعْبودات الزّائِفَةِ فَهُمْ يُشيحونَ بِأبْصارِهِم عَنِ النَّظَرِ إلى أعْلى بَلْ يَفْقِدونَ القُدْرَةَ على النَّظَرِ إلى أعلى [... ويَنْتهي الأمْرُ] بأنْ يَفْسُدَ ما جُبِلَتْ عَلَيْهِ نُفوسُهُم من عُلُوّ».

ومتى ما تَسَيَّدَ الانْحِطاطُ الأخْلاقِيُّ، و«متى ما

(*) لونجين الزائف هو اسْمٌ أطْلَقَهُ المُحَقِّقونَ على كاتِبٍ يونانيٍّ مَجْهولٍ عاشَ في القَرْنِ الثّاني أو الثّالث.

تَحَكَّمَ الفَسادُ بِحياةِ النّاسِ، فلا غَرْوَ أنْ يَضيقَ العالَمُ فلا يَتَّسِعُ لِما هو جَميلٌ ورَفيعٌ وسام».

وعلى ما لا يَفوتُ لونجين التَّذْكيرُ بِهِ فإنَّ الجَّميلَ والرَّفيعَ والسّامي لا يَتَفَتَّحُ خارِجَ الحُرِيَّة: فـ«الحُرِّيَّةُ مُرْضِعَةُ النُّفوسِ الكِبارِ وهي ما يَبْعَثُ الأمَلَ فيها».

شَأنَ لونجين، يَعْزو جيوردانو برونو(*) إلى شَهْوَةِ المالِ ما تَتَقَوَّضُهُ المَعارِفُ والقِيَمُ الكُلِّيَّةُ التي تَتَأَسَّسُ عَلَيها الحَياةُ المُتَمَدِّنَة.

يَقولُ برونو في كِتابِهِ **المُوَسَّع**:

«ما إنْ وَضَعَتْ مَدارِسُ الفَلْسَفَةِ الكَسْبَ وجَنْيَ المالِ نَصْبَ عُيونِها حتّى أخَذَتِ الحِكْمَةُ والعَدالَةُ تَهْجُران هذا العالَم [...] ومِمّا يكونُ مِنْ جَرّاءِ ذلك أنْ يَضيقَ صَدْرُ الدّينِ، وأنْ تَضيقَ أنْفاسُ الفَلْسَفَةِ، وأنْ يَعُمَّ الاضْطِرابُ الدُّوَلَ والمَمالِكَ مُسْتَغْرِقًا ناسَها أجْمَعينَ ولا مُمَيِّزًا بَيْنَ حاكِمٍ وَمَحْكومٍ وحَكيم».

(*) جيوردانو برونو، (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، فَيْلَسوفٌ وعالِمٌ إيطاليٌّ اتَّهَمَتْهُ الكَنيسَةُ بالهَرْطَقَةِ وأُعْدِمَ حَرْقًا. نوتشيو أوردينه، مُؤَلِّفُ هذا الكِتاب، مِنَ المُتَبَحِّرينَ في سيرةِ برونو وفَلْسَفَتِهِ، وقَدْ أَلَّفَ فيهما العَديدَ مِنَ المُؤَلَّفات.

بَيْنَ يَدَيِ هذا المَشْهَدِ يَنْبَري جورج شتاينر(*) وهُوَ مَنْ هُوَ في الدّفاعِ عَنِ القِيَمِ الإنسانِيَّة، وهو مَنْ هو في الدَّعْوَةِ إلى إيلاءِ مَشاغِلِ الفِكْرِ الأوَّلِيَّةَ على ما عداها مِنْ مَشاغِلَ — يَنْبَري لِيُحَذِّرَنا بِأنَّهُ «لَيْسَ مِنْ شَأْنِ ثَقافَةٍ ما مَهْما علا كَعَبُها، ولا مِنْ شَأنِ أخْلاقٍ، مَهما بَلَغَتْ مِنَ السَّماحَة، أنْ تَقينا مِنْ هَمَجِيَّةِ السِّياساتِ التّوتاليتاريَّة».

ويُضيفُ في مَعْرِضِ تَحْذيرِه:

«كَمْ وكَمْ مِنَ المُفَكِّرينَ ومِنَ الفَنّانينَ لَزِموا مَوْقِفَ اللّامُبالاةِ أمامَ الفَظائِعِ التي وَقَعَتْ تَحْتَ أنظارِهِم، بَلْ كَمْ وكَمْ مِنْهُم أزْرَوْا بِأنْفُسِهِم، لِقِلَّةِ مُبالاتِهِم، إلى مَزْرى الشُّرَكاءِ المَعْنَوِيِّينَ مِنَ الطُّغاةِ ومِنْ أنْظِمَتِهِم ومِنْ جرائِمِهِم».

حينَ استَحْضِرُ مُلاحَظَةَ شتاينر هَذِهِ يُسْرِعُ إلى خاطري بَعْضُ ما وَرَدَ في ذاكَ الحِوارِ

(*) جورج شتاينر، (١٩٢٩ ـ)، كاتِبٌ وناقِدٌ أدبِيٌّ وأستاذٌ جامِعيٌّ أميركي فرنسي مِنْ أساطينِ الفِكْرِ في العَصْرِ الحَديث.

الـذي يَخْتِـم بِـهِ إيتالـو كالڤينـو(*) كتابَـهُ **المُـدُن الخَفِيَّـة**. فـي مَعْـرِضِ حَديـثٍ بَيْـنَ ماركـو پولـو(**) وبَيْـنَ السُّـلطانِ قبـلاي خـان(***) يَقـولُ الرَّحّالَـةُ مُخاطِبًـا السُّـلْطان:

«كلّا، لَيْـسَ الجَحيـمُ فـي ظَهْـرِ الغَيْـبِ. إن صَـحَّ وُجـودُ جَحيـمٍ مـا فَهُـوَ الذي نَعيـشُ وَسْـطَهُ لِمُجَرَّدِ عَيْشِـنا مَعًـا. طريقـانِ أمامَ البَشَـرِ لِتَجَنُّـبِ عذاباتِ هـذا الجَحيـم: أمّـا الأوْلـى، وهـي الأهْـوَنُ علـى المُعْظَـمِ مِـنَ النّـاسِ، فالتَّسْـليمُ بالأمْـرِ الواقِـعِ والقَبـولِ بِـهِ حَـدَّ الانْدِمـاجِ فيـهِ والعَمـاءِ عَنْـه؛ أمّـا الثّانِيَـةُ فَمَحْفوفَـةٌ بِالمَخاطِـرِ حَيْـثُ إنَّهـا تَقْتَضـي مِنَ السّـائِرِ فيهـا مَزيدَ حَذَرٍ وجَهْـدًا مُتَواصِلًا وهَذِهِ الطَّريـقُ تَفْتَرِضُ بِسـالِكِها أنْ يَبْحَثَ وَسْـطَ الجَحيمِ عَمّـا لَيْـسَ جَحيمًـا. وإذْ تَسَـقَّطَ الواحِـدُ مِـنَ النّاسِ مـا لَيْـسَ بالجَحيـمِ فـي الجَحيـم، وَوَجَـدَهُ، فواجِبُهُ

(*) إيتالو كالڤينو، (١٩٢٣ ـ ١٩٨٥)، رِوائيٌّ وصِحافِيٌّ إيطاليٌّ.

(**) ماركـو پولـو، (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤)، تاجِـرٌ ورحّالـةٌ إيطالـيّ. يَعـودُ الفَضْـلُ إلَيْـهِ وإلـى أبيـهِ وعَمِّـهِ فـي اسْتِكشـافِ مـا يُعْـرَفُ بـ «طَريـقِ الحَريـر». اتَّصَلَـتْ بَيْنَ ماركـو پولـو والإمبراطـور قبـلاي خان صِلاتٌ وَطيدَةٌ وَثَّـقَ بَعْضًا مِـنْ فُصولِها في كِتـابِ رِحْلاتِه.

(***) الإمبراطـور قبـلاي خان، (١٢١٥ ـ ١٢٩٤)، إمبراطورُ الإمبراطوريَّةِ المَنْغوليَّةِ الخامِسُ، (١٢٦٠ ـ ١٢٩٤)، وإمْبراطورُ الصّين، (١٢٧٩ ـ ١٢٩٤).

عِنْدَئِذٍ أنْ يُحاوِلَ، قَدْرَ المُسْتَطاعِ، إدامَتَهُ وتَوْسيعَ مَساحَتِه».

ولكنْ، إنْ صَحَّ أنَّهُ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ السَّبيلُ إلى تَبَيُّنِ ما لَيْسَ جَحيمًا في وَسْطِ الجَحيم؟ هُنا أيْضًا لا بأسَ من الإحالَةِ إلى كالڤينو نَفْسِه الذي يَتَساءَلُ إلى أيِّ حَدٍّ يُمْكِنُ لِمُطالعَةِ كُتُبِ التُّراثِ الأُوروبِيِّ أنْ تُعينَنا على ذلكَ إذْ يَعْتَبِرُ أنَّ الوقوفَ عَلَيْها خَيْرٌ مِنْ إهْمالِها لِما تَمُدُّنا بِهِ مِنْ عَوْنٍ على فَهْمِ مَنْ نَكونُ، وكَيْفَ تَأَتّى لنا أن نَكونَ مَنْ نَحْن... غَيْرَ أنَّهُ يُحَذِّرُ مِنْ مُطالعَةِ هَذِهِ الأدَبِيّاتِ ابتغاءَ نَفْعٍ مُعَيَّنٍ أو عائِدٍ بِعَيْنه.

على خُطى كالڤينو يَبْدو لي أنَّ المُضِيَّ قُدُمًا في المُرافَعَةِ عَمّا لا لزومَ لَهْ ولا جَدْوى مِنْه مِنْ مَعارِفَ وفُنونٍ وآدابٍ، أصْلَحُ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ المَعارِفُ والفُنونُ والآدابُ تَرْفِدُنا بِمَزيدِ قُوَّةٍ للسَّيْرِ على دَرْبِ الكَمالِ والكرامَةِ الإنسانِيَّيْنِ مَهما بَلَغَتْ شَوْكَةُ هذا الدَّرْب.

فَوَسْطَ هذا العالَمِ الذي لا تَنْجو فيهِ فِكَرَةٌ أو قناعَةٌ مِنَ الشَّكَّ فيها أو المُساءَلَةِ، يَبْدو لي أنَّ المُعادَلَةَ الوَحيدَةَ التي لا رَيْبَ في صِحَّتِها هي التّالِيَة: إنْ تَخَلَّيْنا عَنْ كُلِّ هَذِهِ الأشياءِ التي لا لُزومَ لها ولا جَدْوى آنِيَّةً مِنها، وألْقَيْنا السَّمْعَ إلى نِداءِ الرِّبْحِ والكَسْبِ دونَ أيِّ نِداءٍ آخَرَ، فَلَنْ يَعْنيَ ذَلِكَ مِنْ شَيْء سِوى الحُكْمِ على الأجْيالِ الطّالِعَةَ مِنَ البَشَرِ أنْ تَكونَ أجْيالًا بِدونِ ذاكِرَةٍ لا تَفْقَهُ لِلحَياةِ، وَلِوجودِها في هذا العالَمِ، مِنْ مَعْنى. عِنْدَئِذٍ، لا دَهْشَ أنْ يَجِدَ الإنْسانُ (العاقِلُ)، (الـ«الهومو ساپيانس»)، نَفْسَهُ مُسْتَقيلًا حُكْمًا مِنَ المَسْؤولِيَّةِ التي وجِدَ لِكَيْ يَحْمِلَها: مَسْؤولِيَّةِ أنْ يَسيرَ بإنْسانِيَّتِهِ إلى مَزيدٍ مِنَ الإنْسانِيَّة!

الفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَووه

قِوامُ هـذا الكتابِ/البَيـانِ طائِفَةٌ مِـنْ الأفْكارِ ومِـنَ التَّأَمُّـلاتِ المُنَجَّمَةِ التـي سَـبَقَ لـي أنْ أذَعْـتُ بَعْضًـا مِنْها علـى المَـلأِ بِمُناسَـبَةِ مُحاضَراتٍ دُعِيْـتُ إلـى إلْقائِها خِـلالَ السَّـنَواتِ الماضِيَـةِ، وأخُـصُّ بالذِّكْـرِ مِنْهـا المُحاضَـرَةَ التـي ألقَيْتُها في نَيْسـانَ ٢٠١٢ في جامِعَـةِ ريو غراندي دل سـول بمدينَـةِ پورتـو أليغـري البرازيليَّـةِ عِنْدَ مَنْحـي شـهادَةَ الدُّكتوراه الفَخْرِيَّة.

وأُسـارِعُ فـي هـذا المَقـامِ إلـى إسْـداءِ الشُّـكْرِ الجَزيلِ لصَديقـي إرفنغ لاڤـن مِـنْ «مَعْهَـدِ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» بِجامِعَـةِ پرينسـتون لِفَضْلِـهِ فـي تَنْبيهـي علـى بَحـثِ أبراهـام فلكسـنر المُثْبَـتِ بِنَصِّـهِ علـى خِتام هـذا الكِتاب.

ففـي حزيـران ٢٠١١، خِـلالَ نَـدْوَةٍ دعـا إلَيْهـا «المَعْهَـدُ الإيطالـيُّ للدِّراسـاتِ الفَلْسَـفِيَّة» بناپولـي، اسْـتَرْعى اهْتِمـامَ لاڤـن عُنـوانُ مداخَلَتـي: «الإنْسـانِيّاتُ أوْ لِوَجْـهِ مـا لا يَلْـزَم»، ودَلَّنـي علـى بَحْـثِ أبراهـام فلكسـنر الـذي أعْتَـرِفُ بأنّنـي كُـنْتُ جاهِـلًا بِـهِ. اليَـوْمَ، وَقَـدْ غـادَرَ لاڤـن هـذا العالَـمَ، كأنّـي بـي، إذْ أُثْبِتُ نَصَّ فلكسـنر الـذي كانَ لَـهُ الفَضْـلُ بـأنْ هَدانـي إلَيْـه، أُعرِبُ لَـهُ مُجَـدّدًا عمّا كانَ مِـنْ إعجابي بِـهِ وبِعِلْمِـه.

يَـرِدُ اسْـمُ أبراهـام فلكسـنر علـى الصَّفْحَـةِ الثّالِثَـةِ مِـنْ هـذا الكِـتابِ بِحَـرفٍ أصْغَـرَ قليـلًا مِـنَ الحَـرْفِ الذي يَـرِدُ بِهِ اسْـمي، ولَيْـسَ في هذا الخِيـارِ الإخراجِـيِّ أدْنـى تَقْليـلٍ مِـنَ شَـأْنِ الرَّجُـلِ ونَصِّـه. كُلُّ مـا فـي الأمْـرِ أنَّ فلكسـنر الـذي رَحَـلَ عَـنْ هـذا العالَـمَ فـي سَـنَةِ ١٩٥٩ لَـمْ يُسْتَشَـرْ فـي إثْبـاتِ نَصِّـهِ إلـى جانِبِ نَصّي، ومِـنْ ثَمَّ ففي هـذا الخِيارِ الإخْراجِـيِّ عِرفـانٌ بِجَميلِـهِ لا يُرَتِّبُ عَلَيهِ في شَـيْءٍ مَسْـؤولِيَّةَ ما أقْتَرِحُ مِـنْ أفـكارٍ وتَأَمُّلات.

خِتامًا، حَقٌّ عَلَيَّ أن أُكَرِّرَ شُكري الذي لا يَنْقَضي للوك هرسان، مُتَرْجِمِ أبْحاثي إلى اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّة، ولا يَفوتُني في مَعْرِضِ الشُّكْرِ أنْ أُنَوِّهَ بِكُلِّ ما اسْتَفَدْتُهُ مِنْ جورج شتاينر ومِنْ آلان فيليب سيچوند(*) خلالَ ما كانَ بَيْني وبَيْنَهُما مِنْ حِواراتٍ شَيِّقَةٍ لا يَعْفوها النِّسْيان.

(*) آلان فيليـب سـيچوند، (١٩٤٢ ـ ٢٠١١)، فَقيـهٌ لُغَـوِيٌّ مِـنْ أحْبـارِ اليونانِيّـاتِ واللّاتينِيـاتِ عِـلاوَةً علـى تَضَلُّعِـهِ مِـنَ الفَلْسَـفَةِ وتاريـخِ العُلـوم.

«يا حَيّاها مِنْ مُفاجَأَةٍ أنْ تَنْجليَ لي
جَدْوى ما لا لُزومَ لَهُ ولا جَدْوى مِنْه!».

فيكـتور هوغو

I

في الآدابِ وَجَدْوَى لاجَدْواها

في أنَّ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ
لا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإعْراب

يَـرْوي ڤينشـينزو پـادولا، الرّاهِبُ الثّائِـرُ الذي عاشَ فـي كالابـري الإيطاليَّـةِ بيـن ١٨١٩ و١٨٩٣ ــ يَرْوي فـي سـيرَةٍ ذاتِيَّـةٍ لَـهُ أوَّلَ دَرْسٍ تَعَلَّمَـهُ فـي الحَيـاةِ فَيَقـولُ إنَّ والِـدَهُ سَـأَلَهُ يَوْمًـا أنْ يُفَسِّـرَ لَـهُ لِمـاذا يَتَقَـدَّمُ حَـرْفُ الـ«a» على سـائِرِ حُـروفِ الأبْجَدِيَّة؟ وَإذْ لَـمْ يَجِـرِ الإبْـنُ جَوابًـا أعادَ السُّـؤالَ إلـى والِدِهِ راجِيًـا إيّـاهُ أنْ يُفَسِّـرَ لَـهُ السَّـبَبَ في ذَلِـك... ومِمّا قالَـهُ لَـهُ والِـدُهُ وَرَواهُ هـو في السّـيرَةِ تِلْك:

«فـي عالَمِنـا البائِـسِ، لا مَحَـلَّ إلّا لِمَـنْ كانَ فـي مَرْتَبَـةِ الـ"a" مِـنْ أحْـرُفِ الهِجـاء؛ أمّـا المُعْدَمونَ فلا مَحَـلَّ لَهُم. لِهـذا يَتَقَدَّمُ حَـرْفُ الـ"a" سـائِرَ الحُروف. المُعْدَمـونَ فـي هـذا العالَـمِ أشْـبَهُ مـا يَكونـونَ

بالحُروفِ السّاكِنَة، أمّا المُثْرونَ فَهُمُ حُروفُ العِلَّةِ، وكما تَعْرِفُ، يا بُنَيَّ، فَلَيْسَ لِصَوْتٍ أنْ يَتَأَتّى مِنْ حَرْفٍ ساكِنٍ لا يُحَرِّكُهُ حَرْفُ عِلَّة».

رَغَمْ أنَّ هذا الوَصْفَ لِلْمُجْتَمَعِ على ما كانَ عَلَيْهِ لِنَحْوِ قَرْنَيْنِ خَلَوا قَدْ تَقادَمَ نَوْعًا ما حَيْثُ إنَّ الانْقِسامَ الأُفُقِيَّ الصّارِمَ بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ لا يَصْلُحُ بَعْدُ لِوَصْفِ مُجْتَمعاتِنا، لا بُدَّ لنا مِنَ التَّسْليمِ بِأنَّ الامْتِلاكَ والحِيازَةَ ما يَزالانِ مُقَدَّمَيْنِ على مَحْضِ الوجودِ والكَيْنونَةِ وَلَوْ أنَّ تَقَدُّمَهُما باتَ يَصْطَنِعُ أشْكالًا وَهَيْئاتٍ مُلْتَوِيَةً أعْصى على التَّبَيُّنِ وعلى التَّعْيين.

ومِنَ الشَّواهِدِ على ذَلِكَ ما يَطْغاهُ هَمُّ الرِّبْحِ واسْتِدْرارِ المَكاسِبِ على سائِرِ سُلوكاتِنا بِما فيها ما يَتَعَلَّقُ بالمَعْرِفَةِ والثَّقافَة: ما يَظْهَرُ عَلَيْهِ الواحِدُ مِنَ النّاسِ أثْقَلُ في ميزانِ «الرَّأْيِ العامِّ» مِمّا هو عَلَيْهِ حَقًّا... بَلْ إنَّ قيمَةَ الواحِدِ مِنَ النّاسِ باتَتْ تُعْزى إلى السَّيّارَةِ الفارِهَةِ التي يَقودُها، وإلى السّاعَةِ المُحَلّاةِ بالأحْجارِ

الكَريمَةِ التي يُطَوِّقُ بِها مِعْصَمَهُ، وإلى المَنْصِبِ الرَّفيعِ الذي يَتَبَوَّؤهُ أكْثَرَ مِمّا تُعْزى إلى عِلْمِهِ ومَعارِفِهِ وَثَقافَتِه.

في أنَّ المَعارِفَ التي لا رِبْحَ مِنْ ورائِها لا جَدْوى مِنْها

بِناءً على ما تَقَدَّمَ، لَيْسَ مِنْ قَبيلِ الصُّدْفَةِ أنْ أُزْرِيَ بالعُلومِ الإنْسانِيَّةِ في المَناهِجِ الدِّراسِيَّةِ، وفي الميزانيّاتِ الحُكومِيَّةِ، وفي مُؤَسَّساتِ البَحْثِ العِلْمي. فَفِيمَ إنْفاقُ الأمْوالِ، كما يَقولُ قائِلُهُم، على ما لا يَدُرُّ رِبْحًا؟ وفِيمَ وَقْفُ الأوْقافِ على عُلومٍ وَمَعارِفَ لا مَنْفَعَةَ اقْتِصادِيَّةً مُباشَرَةً وَمَلْموسَةً مِنها؟

على أنَّهُ، وعلى أنَّنا نَعيشُ في عالَمٍ يَتَقَدَّمُ فيهِ مُوجِبُ قِياسِ الأشْياءِ بِكَمِّيّاتِها، فإنَّ لِلأدَبِ، كما لِعَدَدٍ مِنَ العُلومِ الإنْسانِيَّةِ والعُلومِ البَحْتِ المُنْقَطِعَةِ عَنْ الجَدْوى المَباشَرَةِ مِنْها

ـــ على ما سَوْفَ نُبَيِّنُ في فُصولٍ لاحِقَةٍ ـــ للأدَبِ وَظيفَةً لا تَخْلو متى ما تَمَعَّنّا في بَعْضِ وُجوهِها أنْ تَكونَ جَوْهَرِيَّةً حَيْثَ إنَّ الأدَبَ، بِبَساطَةٍ، لا يُيَمِّمُ وَجْهَ أيِّ نَفْعٍ! إنَّما الأدَبُ فِعْلُ مُقاوَمَةٍ للنَّزَعاتِ الرِّبْحِيَّةِ التي تَسودُ عالَمَنا، وفِعْلُ تَصَدٍّ لما يَفْتُكُهُ المَنْطِقُ النَّفْعِيُّ بِنا وبِعلاقاتِنا الاجْتِماعِيَّةِ وَعَواطِفِنا الأكْثَرِ حَميميَّة. فالأدَبُ، لِمُجَرَّدِ وُجودِهِ، شاهِدٌ على ما يُمْكِنُ لـ«المَجّانِيَّة» ولـ«التَّرَفُّعِ» أنْ يَكونَ لَهُما مِنْ أثَرٍ في حَياتِنا وعَلَيْها ـ لا غافِلًا أنَّ المَجّانِيَّةَ والتَّرَفُّعَ بِوَصْفِهِما قيمَتَيْنِ قَدْ خَرَجَتا، أوْ تَكادانِ، مِنْ قاموسِ القِيَمِ الذي نُحيلُ إلَيْه...

فَسَّرَ الماءَ...
أو سَمَكتا ديڤيد فوستر والاس

على بِدايَةِ كُلِّ عامٍ جامِعِيٍّ يَحلو لي أنْ أتْلوَ على طُلّابي فِقْرَةً مِنَ الخِطابِ الذي ألْقاهُ ديڤيد فوستر والاس في ٢١ أيّار (مايو) ٢٠٠٥

على خِرّيجي مَعْهَدِ كينيون بالوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّة.

خاطَبَ الأديبُ الأميركيُّ الذي لا يَسَعُنا إلّا الرِّثاءَ لِرَحيلِهِ المُبْكِرِ في سَنَةِ ٢٠٠٨ عَنْ سِتَّةٍ وأرْبعينَ عامًا ـ خاطَبَ يَوْمَذاكَ طُلّابَهُ سارِدًا عَلَيْهم قِصَّةً مِنْ وَحْي الخَيالِ أرادَ مِنْ ورائِها أنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ دَوْرَ الأدَبِ وَوَظيفَتَهُ:

«كانَ يا مكان سَمَكَتانِ فَتِيَّتانِ تَسْبَحانِ في أحَدِ البِحارِ... وفي خِلالِ سِباحَتِهِما مَرَّتْ بِهِما سَمَكَةٌ مُسِنَّةٌ أَلْقَتْ عَلَيْهِما السَّلامَ ثُمَّ سَأَلَتْهُما: "كَيْفَ تَجِدانِ الماءَ يا صَغيرَتَيَّ؟". واصَلَتِ السَّمَكَتانِ الفَتِيَّتانِ السِّباحَةَ بُرْهَةً ثُمَّ اسْتَوْقَفَتْ إحْداهُما الأُخْرى وسَألَتْها: "أنْبِئيني يا هذِه ... أتَعْرِفينَ أنْتِ ما هُوَ الماء؟"».

ويَسْتَطْرِدُ والاس:

«أمّا العِبْرَةُ، بِلا لَفٍّ ولا دَوَران، مِنْ هذهِ السّالِفَةِ الخَيالِيَّةِ فَهِي أنَّ البَديهِيّاتِ الأحَضَرَ في حَياتِنا، والأحَكْمَ عَلَيها، هي الأعْصى، غالِبًا، على التَّعَيينِ والتَّسْمِيَة».

علـى غِـرارِ السَّمَكَـتَيْنِ الصَّغيرَتَيْـنِ فَنَحْـنُ، أيْضًا، لا نَفْقَـهُ مـا هـو «المـاءُ» الـذي نَسْـبَحُ فيـهِ طيلَةَ حياتِنـا، ولا نَفْقَـهُ أنَّ الآدابَ والمَعـارِفَ والثَّقافَـةَ هـي السّـائِلُ الحَيَـوِيُّ الـذي تَنْمـو فيـه مَفاهيـمُ الدّيمقراطيَّـةِ والحُرِّيَّـةِ والعَدالَـةِ والعَلْمانِيَّـةِ والتَّسـامُحِ والتَّضامُـنِ المُواطِنـيِّ وحُرِّيَّـةِ التَّعْبيـرِ والنَّقْـدِ ومـا إلَيْهـا، بَـلْ يُمْكِـنُ القَـوْلُ إنَّ هـذهِ المَفاهيـمَ ومـا يُصاحِبُهـا مِنْ قِـيَمٍ لا تَنْمـو عَفِيَّةً إلّا فـي هـذا السّـائِل.

الكولونيل بونديا وأسْماكُهُ الذَّهَب

بـلا تَـرَدُّدٍ، يُمْكِن القَـوْل إنَّ **مائَة عامٍ مِـنَ العُزْلَة**، روايَـةَ غابريـال غارثيـا ماركيـز(*) الأشْـهَرَ والأشْـيَعَ تَرْجَمَـةً، تَسْـكُنُ خَيـالاتِ المَلاييـنِ المُمَلْيَنَـةِ مِنْ القُـرّاءِ مِـنْ مُخْتَلَـفِ الأجْيـال. وَلَعَـلَّ عَمـودَ هَذِهِ

(*) غابريـال غارثيـا ماركيـز، (١٩٢٧ ـ ٢٠١٤)، رِوائـيٌّ وصِحافـيٌّ وناشِـرٌ وناشِـطٌ سِياسـيٌّ كولومبـيّ. حـازَ فـي عـامِ ١٩٨٢ جائِـزَةَ نوبـل لـلآداب.

الرِّوايَـةِ هـو فـي شَـخَصِيَّةِ بَطَلِها أورليانـو بونديا التـي تُسْتَشَـفُّ مِـنْ وَرائِها جَـدْوى الأدَبِ فـي أرْفَـعِ صُوَرِهـا رَغْـمَ ظاهِرِ لاجَـدْواه.

مُعْتَكِفًـا فـي مَسْـبَكٍ سِـرِّيٍّ يَسْـتَصْنِعُ الكولونيـلُ بونديـا أسْـماكًا ذَهَبًا صَغيرةً لا يَلْبَـثُ أنْ يُقايِضَها بِقِطَعِ نَقْدٍ ذَهَبِيَّةٍ، لا يَلْبَثُ أنْ يَصْهَرَها ويَسْـتَصْنِعَ مِنْها أسْـماكًا جَديـدةً وهكذا...

لا تَفـوتُ أورسُـلا، والِـدَةُ الكولونيـل، الطَّبيعَـةُ المُفَرَغَـةُ للدّائِرَةِ التي يَـدورُ فيها ابْنُها الكولونيل:

«لَـمْ تَفْهَـمْ أورسُـلا رَغْـمَ حِسِّـها العَمَلِـيِّ الثّاقِـبِ مـا يَنْصَـرِفُ إلَيْـهِ الكولونيـل مـن مُقايَضَـةِ أسـماكِهِ الصَّغيـرَةِ بِقِطَـعٍ نَقْدِيَّـةٍ ذَهَبِيَّـةٍ لا يَلْبَـثُ أن يَصْهَرَهـا ويَسْـتَصْنِعَ مِنهـا أسْـماكًا صَغيـرَةً وهكـذا دَوالَيـك... فَبِمِقْـدارِ مـا كانَـتْ تِجـارَةُ الكولونيـل تَزْدَهِـرُ كانَ يُضْطَـرُ إلـى إنْفـاقِ المَزيـدِ مِـنَ الوَقْـتِ ومِـنَ الجَهْدِ فـي اسْـتِصْناعِ المَزيـدِ مِـنَ الأسْـماكِ مِمّا صَيَّرَهُ أسـيرَ دائِـرَةٍ مُغْلَقَـةٍ لا أوَّلَ لهـا ولا آخِـر. كانَ ذَلِـكَ، ولكِـنَّ الحَقيقَـةَ الحَقيقَـةَ هـيَ أنَّ هَـمَّ الكولونيـل كانَ الاسْـتِزادَةَ مِـنَ العَمَـلِ لا مِـنَ البَيْـعِ والتجـارَة...».

وهـذهِ الحَقيقَـةُ هـي مـا يَعْتَـرِف بِـهِ الكولونيـلُ نَفْسُـه حَيْـثُ يَقـولُ بأنَّ اسْـتِصْناعَ الأسـماكِ باتَ مِنْـهُ، مُنْـذُ زمَـنٍ بَعيدٍ، مَصْـدَرَ السَّـعادَةِ الوحيدَ:

«لَقَـدِ اقْتَضـاهُ أنْ يُشْـعِلَ نيـرانَ ثَـلاثٍ وثلاثيـنَ حَرْبًـا، ولَقَـدِ اقْتضـاهُ أنْ يُخِـلَّ بِـكُلِّ المَواثيـقِ التـي انْعَقَـدَتْ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ المَـوْتِ، وأن يَتَمَـرَّغَ فـي المَجْـدِ كمـا يَتَمَـرَّغُ الخِنْزيـرُ فـي القُمامِةِ ـ اقْتَضـاهُ كُلُّ ذَلِـكَ لِيَكْـتَشِفَ في نِهايَـةِ المَطافِ، بَعْـدَ نَحْـوِ أربعيـنَ عامًـا، فَضائِـلَ البَسـاطَةِ وَمُتَعَهـا».

نَعَـمْ، لَعَـلَّ هـذِهِ «البَسـاطَةَ» التي يُحَرِّكُنـا إلَيْها طَلَـبُ سَـعادَةٍ مُنْقَطِعَـةٍ مِنْ أيَّـةِ أسْـبابٍ رِبْحِيَّةٍ هـي فـي أصْـلِ الإبْـداعِ الأدَبِـيّ. فَهَـلِ الإبْـداعُ الأدَبِـيُّ إلّا جَهْـدٌ يَبْذُلُـهُ الأديبُ لا لِوَجْـهٍ مُحَدَّدٍ، ولا لاسْـتِجْلابِ مَصْلَحَـةٍ أوْ مَنْفَعَـةٍ مُحَـدَّدَةٍ، أوْ قابِلَـةٍ للتَّسْـليعِ ولِلْمُقايَضَـةِ الماليَّـة؟ هو كذلكَ، وبِمُجَـرَّدِ أنَّـهُ كَذَلِـكَ فهُـوَ المُخالَفَـةُ بِعَيْنِها على اسْـتِعلاءِ مَنْطِـقِ السّـوقِ ومُوجِـبِ الرِّبْحِيَّـة وحُكْمِهـا.

دانَتِه وبترارك:
في أنَّ الأدَبَ لا يَخْضَعُ لِمَبْدأِ الرِّبْحِيَّة

لا جَديدَ في ما تَقَدَّمَ حَيْثُ إنَّ فِكْرَةَ خُروجِ الأدَبِ عَنْ مَبَدْأِ الرِّبْحِيَّةِ حاضِرَةٌ لدى آباءِ الأدَبِ الغَرْبِيّ. حَسْبِي مَثَلًا أنْ أُذَكِّرَ بِدانْتِه(*) وبِما كانَ مِنْ تَسْفيهِهِ أبْناءَ زمانِهِ مِنْ أدْعياءِ الأدَبِ الذين لا يَنْكَبّونَ على تَحَصيلِ الآدابِ لِنَفْسِها بَلْ لِما يَتَكَسَّبونَهُ مِنْ وَرائِها:

«هَيْهاتَ أنْ تَصِحَّ على هَؤلاءِ صِفَةُ الأُدَباء. مُنْتَهى قَصْدِهِم مِنَ الأدَبِ اسْتِدرارُ المَنافِعِ وطَلَبُ الجَاه. هَلْ يُسَمّى كُلُّ مَنِ اقْتَنى قيثارَةً عازِفًا؟».

بِكَلامٍ أوْضَح: لا شَأْنَ للآدابِ بالمَقاصِدِ النَّفْعِيَّة. وهذا ما يَذْهَبُ إلَيْهِ، بِدَوْرِهِ، فرانشيسكو بترارك(*) الذي وَضَعَ جُمْلَةً مِنَ التَّأَمُّلاتِ الشِّعْرِيَّةِ

(*) دانته أليغييري، (١٢٦٥ـ ١٣٢١)، شاعِرُ إيطاليا الأشْهَر. صاحِبُ **الكوميديا الإلهيَّة** في عِدادِ كَثيرٍ سواها. مِنْ آباءِ الإيطاليَّةِ الحديثة.

(**) فرانشيسكو بترارك، (١٣٠٤ـ ١٣٧٤)، شاعِرٌ وعالِمٌ يُعَدُّ الرُّكْنَ الرّكينَ مِنْ عَصْرِ النَّهْضَةِ الإيطاليّ.

والنَّثْرِيَّةِ في ذَمِّ تِلْكَ الحُثالَةِ التي لا هَمَّ لها إلّا كَنْزُ الكُنوزِ وتَكديسُ الثَّرَوات.

بالضِّدِّ مِنْ هذا الذَّمِّ، لا يَتَرَدَّدُ بترارك عَنْ مُناشَدَةِ صَديقٍ لَهُ بأنْ يَتَمَسَّكَ بـ«أهْدابِ النُّبْلِ»، وأنْ يَنْصَرِفَ إلى الآدابِ لا مُباليًا بِما قَدْ يَعودُ عَلَيْهِ بِهِ هذا الانْصِرافُ مِنْ ثَناءٍ وإطْراءٍ أوْ بِما قَدْ لا يَعود:

«لا رِفاقَ تأنَسُ إلَيْهِم على طَريقِ ذاتِ الشَّوْكَةِ هذِهِ ولكِنْ، نَشَدْتُكَ، يا ذا العَقْلِ الرّاجِحِ، أنْ تَسْتَمْسِكَ بأعْمالِ النَّبالَةِ وأهْدابِها!».

أرِسطو: لا لُزومَ عَمَلِيًّا للمَعرِفَة

وَقَبْلَ دانْتِه وبترارك كَتَبَ أرسطو في **ما وراء الطَّبيعَة** أنَّ «المَعْرِفَةَ»، في صُوَرِها العُلْيا، «لا غَرَضَ عَمَلِيًّا لها». فـ:

«مِنْ أوَّلِ الأمَرِ إلى يَوْمِنا هذا، إنَّما يَأخُذُ بِيَدِ البَشَرِ في طَريقِ الفَلْسَفَةِ الانْدِهاشُ مِمّا هي الأشْياءُ عَلَيْهِ والعَجَبُ؛ [و]إذْ جَدَّ النّاسُ في طَلَبِ المَعْرِفَةِ،

وَسَعوا إلى خَطْبِ وُدِّها، [أي، إذْ تَفَلْسَفوا]، فإنَّما فَعَلوا ذَلِكَ لِسَبْرِ كُنْهِ الأشْياءِ لا سَعْيًا إلى اسْتِجْناءِ الأرْباحِ. [...و] مِنْ ثَمَّ، فَمِمَّا لا يَحْتاجُ إلى مَزيدِ بَيانٍ أنَّ الفَلْسَفَةَ لا تَبْتَغي بُغَيَةً مُنْفَكَّةً عَنْها. وعلى غِرارِ ما تَصِحُّ على الرَّجُلِ الذي لا يَعْمَلُ إلّا قِيامًا بِأَوَدِهِ، لا بِأَوَدِ غَيْرِهِ، صِفَةُ الحُرِّ، كذَلِكَ فإنَّ هذا العِلْمَ الشَّريفَ، الفَلْسَفَةَ، هو، دونَ سائِرِ العُلومِ، الوَحيدُ الذي يَصْدِقُ فيهِ وَصْفُ الحُرِّيَّةِ باعْتِبارِ أنَّ مَدارَهُ على نَفْسِهِ ولا مَوْضوعَ لَهْ إلّا ذاتُه».

بِناءً عَلَيْهِ، ولأنَّ الفَلْسَفَةَ لا تُسْتَرَقُّ لأيَّةِ غايَةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ فَهِيَ الحُرَّةُ بَيْنَ العُلومِ وهي سَبيلُ البَشَرِ إلى التَّأَلُّهِ؛ («وَبِهَذا اللِّحاظِ فإنَّ التَّمَكُّنَ مِنْ هذا العِلْمِ، [مِنَ الفَلْسَفَةِ]، يَرْفَعُ المُتَمَكِّنَ مِنْهُ دَرَجاتٍ فَوْقَ طَبيعَتِهِ البَشَرِيَّة»).

بَيْنَ المُنَظِّرِ والمَلِكِ/الفَيْلَسوف: في تَناقُضاتِ أفلاطون

بِتَعْريفِ الفَلْسَفَةِ على هذا النَّحْو، يَرْفَعُ أرسطو إشْكالًا أفلاطونِيًّا لَمْ يَزَلْ يُحيقُ بِصورَةِ الفَيْلَسوفِ

فـي تَأَرْجُحِـهِ بَيْـنَ الانْصِـرافِ إلـى التَّأَمُّـلِ الخالِـصِ وبَيْـنَ المُشـارَكَةِ فـي الشَّـأْنِ العامّ.

في الكِتابِ السّـادِسِ مِـنَ الجُمْهوريَّة يَقولُ أفلاطون علـى لِسـانِ سُـقراط: «إنَّ هَـؤلاءِ، عامَّةَ النّـاسِ، قَلَّما يُلْقـونَ السَّـمْعَ، بِمـا فيـهِ الكِفايَـةُ، لِمـا يَصْـدرُ مِـنَ الأقَـوالِ عَـنِ المَشـاعِرِ النَّبيلَـةِ، أعْنـي للأقْـوالِ التـي يُـرادُ مِـنْ وَرائِهـا نُشْـدانُ الحَقيقَـةِ وبُلـوغُ مَقـامِ المَعْرِفَـة». أمّـا فـي الكِـتابِ السّـابِعِ، وفـي سـياقِ الحَديـثِ عَـنْ تَعْليـمِ النَّـشْءِ، فيُؤَكِّـدُ سُـقراط على ضَـرورَةِ ألّا يُقْصَـرَ التَّعْليـمُ علـى بَرْنامَـجٍ ذي بِنْيَـةٍ إلْزامِيَّـةٍ فـ:

«لَيْـسَ لِلْحُـرِّ أنْ يُعامَـلَ مُعامَلَةَ العَبْـدِ حتّى في مَجالِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليم».

إيمانويل كانط: إنَّما أحْكامُ الذَّوْقِ مِنْ بابِ ما لا لُزومَ لَهُ ولا جَدوى مِنْه

مَـعَ إيمانويـل كانـط دَخَلـتِ الأحْـكامُ الذَّوْقِيَّـةُ الجَماليَّـةُ تَحْـتَ حَـدِّ ما لا لُـزومَ لَهُ ولا جَـدْوى مِنْه.

ففـي الصَّفَحـاتِ الأوْلـى مِـنْ **نَقْـدِ مَلَـكَةِ التَّقْديـر** يُثْبِـتُ الفَيْلَسـوفُ الألمانـيُّ أنَّ اسْـتِحْضارَ أمْـرٍ مـا اسْـتِحْضارًا عَقْلِيًّـا كَفيـلٌ بـأنْ يَتَوَلَّـدَ عَنْـهُ لـدى المُسْـتَحْضِرِ شُـعورٌ بالرِّضا بِصَرْفِ النَّظَـرِ عَنْ حَقيقَةِ وُجـودِ هـذا الأمْـرِ أوْ عَدَمِهـا:

«ومِمّـا لا مَـراءَ فيـهِ أنَّ اسـتحضارَ أمْـرٍ مـا فـي العَقْلِ، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ حَقيقـةِ [وجـودِ] هـذا الأمْـرِ أو عَدَمِهـا، هـو المُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ فـي الحُكْـمِ عَلَيْـهِ ــ على هـذا الأمْـرِ ــ بالجَمـالِ، وهـو المُعَـوَّلُ عَلَيْـهِ، تاليًـا فـي إثْبـاتِ تَمَتُّـعِ الواحِـدِ مِـنَ النّـاسِ بِمَلكَـةِ التَّقْدير هـذهِ [...]؛ وَمِمّـا يَجْلـو هَـذهِ المُقَدِّمَـةَ ذاتَ الأهَمِّيَّةِ القُصْـوى مـا يَفْتَرِقُـهُ الرِّضـا المُتَرَفِّـعُ الـذي يَسْتَشْـعِرُهُ الواحِـدُ مِنّـا مِـنْ خِـلالِ تَقْديـرِهِ الذَّوْقِـيِّ وأحْكامِـهِ الذَّوْقِيَّـةِ عَـنِ الرِّضا الذي يُشْـتَرَطُ للشُّـعورِ بِـهِ حُضورُ المَرْضِـيِّ عَنْـهُ حُضـورًا جِسْـمِيًّا مَلْموسًـا».

فالمَنْفَعَـةُ، فـي عُرْفِ كانـط، مُرْتَبِطَةٌ أوْثَـقَ الارْتِباطِ بالمُتْعَـةِ وَبِوجودِ الشَّـيءِ الذي هو مَوْضـوعُ المُتْعَةِ هَـذِه. يَقول:

«صِنْـوُ المَنْفَعَـةِ الحاجَـةُ أو مـا يُرَتِّـبُ حاجَـةً مـا باعْتِبـارِ أنَّ الرِّضـا إنَّمـا هـو فـي تَلْبِيَـةِ هـذه الحاجَـةِ

المَغْروزَةِ فينا أو المُسْتَحْدَثَةِ لَدَيْنا. مِنْ ثَمَّ لا تَسْري على تَقَديرِنا لِما يُلَبّي هذِهِ الحاجَةَ صِفَةُ التَّقْديرِ الحُرّ. تَلْبيَةُ داعي الجَمالِ هي التَّلْبِيَةُ الوَحيدَةُ التي تَصْدِقُ عَلَيْها صِفَتا التَرَفُّعِ والحُرِّيَّةِ باعْتِبارِ أنَّها مُسْتَغْنِيَةٌ عن اسْتِجْلابِ أيَّةِ مَنْفَعَةٍ مادِيَّة حِسِّيَّةٍ أو عَقْلِيَّة».

بانِيًا على هذهِ المُقَدِّماتِ يَتَوَصَّلُ كانط إلى تَعْريفِ الذَّوْقِ فَيَقول:

«الذَّوْقُ هو مَلَكَةُ تَقْديرِ شَيْءٍ مِنَ الأشْياءِ، أو هو حُضورُ شَيْءٍ مِنَ الأشْياءِ، بِناءً على ما يُوْرِثُنا هذا الشَّيْءُ، أو حُضورُهُ، مِنْ شُعورٍ بالرِّضا أو مِنَ شُعورٍ بالكَدَر، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ أيَّةِ مَنْفَعَة. الجَميلُ، اسْتِطرادًا، هو ما يُشْعِرُنا، [تَحْتَ هَذِهِ الظَروفِ مِنَ التَّقْديرِ]، بالرِّضا».

أوڤيد:

لا أَلْزَمَ مِنَ الفُنونِ التي لا لُزومَ لها

يَكادُ أوڤيد(*) أنْ يَكونَ مِنْ أسْهَبِ الأدَباءِ تَعَرُّضًا

(*) أوڤيد: شاعِرٌ رومانيٌّ كانَتْ وِلادَتُهُ سَنَةَ ٤٣ قَبْلَ الميلادِ وَوَفاتُهُ سَنَةَ ١٧ بَعْدَه.

للُّـزومِ وعَدَمِـه. وفي الرَّسـائِلِ التي بَعَـثَ بِها إلى صديقِهِ أوريليوس كوتا ماكسـيموس ميسّـالينوس يُقِـرُّ أوڤيـد، بـلا لَـفٍّ ولا دَوَران، بأنَّـهُ «متـى مـا نَظَـرَ النّاظِـرُ إلـى مـا انْصَرَفْـتُ إلَيْـهِ فـي حَياتـي فَلَـنْ يَجِـدَ فيهـا مِـنْ شَـيْءٍ مُفيـدٍ إلّا مـا ثابَرْتُـهُ خِلالِهـا علـى مـا لا جَـدْوى مِنْـه ولا فائِدَة».

صَحيـحٌ أنَّ أوڤيـدَ يـرى فـي الشِّـعْرِ، أحْيانًـا، دَواءً شـافِيًا لآلامِ المَنْفـى، («فـي الشِّـعْر تَسْـلِيَةٌ عَـنِ البَلْـوى التـي أنـا فيهـا»)، إلّا أنَّهُ يُـدْرِكُ جَيِّـدًا أنَّهَ لا نَفْـعَ يُرَجّـى مِنْـه: «حتّـى الآنَ لَـمْ تَعُـدْ عَلَـيَّ مَؤَلَّفاتـي بـأيِّ نَفْـعٍ، ومِـنْ بَـرَكاتِ السَّـماءِ أنَّ أيًّـا مِنْهـا لَـمْ يُلْحِقْ بـي أيَّ ضرّ» ــ (ويقـول أوڤيدُ ما يَقـولُ عِلْمًا أنَّ أشْـعارَهُ هـي التي تَسَـبَّبَتْ لَهُ بِأنِ اضْطُـرَّ إلـى المَنْفـى علـى مـا يَـرِدُ أعْلاه).

مَـعَ هـذا جَميعًـا، فـإذْ يُجيـبُ أوڤيـدُ عَـنْ سُـؤالِ صَديقِـهِ المُنْدَهِـشِ مِنْ إصْرارِهِ ــ إصْرارِ أوڤيدَ ــ على الكِـتابَةِ يقول:

«نَعَـم، إنَّنـي مُصِـرٌّ علـى المُضِـيِّ فـي هـذا السَّـبيلِ

شَأني في ذَلِكَ شَأْنَ المُصارِعِ الذي لا تَرُدُّهُ الجِراحات التي يُمْنى بِها مِنَ العَوْدَةِ إلى الحَلَبَةِ، أو شَأنَ البَحّارِ الذي لا يَرُدُّهُ ما أوْشَكَ عَلَيْهِ يَوْمًا من غَرَقٍ مُحَتَّمٍ أنْ يعود إلى ركوبِ البَحر!».

دو مونتنيه:

لا شَيْءَ لا لُزومَ لَهُ حتّى ما لا لُزومَ لَهُ!

لَيْسَ لِكِتابٍ في نَفْسِ قارِئِه ما لِكِتابِ **المُحاولات**. إبتداءً، يُصارِحُ ميشال دو مونتنيه قُرّاءَ كتابِهِ بأنَّهُ لَمْ يُحَرِّرْ هَذهِ الصَّفَحاتِ إلّا إجابَةً لِدَواعٍ شَخْصِيَّةٍ خاصَّة. وحتّى إنْ تابَعَ الواحِدُ مِنّا الباحِثَةَ فاوْستا غاراثيني في نَبْشِها هذهِ الدَّواعِيَ الذّاتِيَّةَ الخاصَّةَ، وسَلَّمَ مَعَها بأنَّها شَيْءٌ مِنْ قَبيلِ دِفاعِ كائِنٍ وَجَدَ نَفْسَهُ فَجْأةً مُبَعْثَرًا مُبَدَّدًا عَنْ نَفْسِهِ، فإنَّ هذهِ المَعْرِفَةَ بالدَّواعي تِلْكَ لا تُقَدِّمُ في شَيْءٍ ولا تُؤَخِّر.

يَقولُ دو مونتنيه مُخاطِبًا القارِئَ الذي قَدْ يَقَعُ هذا الكِتابُ بَيْنَ يَدَيْه:

«بنـاءً عَلَيْهِ، يا قارِئي، فأنا نَفْسـي مادَّةُ هذا الكِـتابِ ومَوْضوعُـهُ؛ فاسْـتَبِنْ إذًا بأنَّكَ إذْ تُطالِعُـهُ فإنَّما تُنْفِقُ وَقْتَـك في أمْرٍ لا طائِـلَ مِنْه».

المُحاولات، إذًا، كِـتابٌ لا جَدْوى مِنْه؟

بَـلْ يَذهَـبُ دو مونتنيـه إلى أبْعَدَ مِمّـا تَقَدَّمَ حَيْثُ إنَّهُ يُشْرِكُ القارِئَ بأنَّهُ جَعَلَ المَكْـتَبَ الذي كَـتَبَ فيـه هـذا الكِتـابَ مَحَـلَّ غُرْفَـةِ المَلابِـسِ التي هي أقَـلُّ الأمْكِنَـةِ مِـنَ المَنِـزِل لُزومًا وجَـدْوى. في هذا المَكْـتَبِ المُرْتَجَلِ يَقْضي الكاتِبُ، مُنْعِزِلًا، سَـحابَةَ أوقاتِـهِ دارِسًـا مُطالِعًـا مُسْـتَغْرِقًا فـي تَحْصيـلٍ لا يُرَجـى مِنْـهُ أيُّ نَفْـعٍ أو جَدْوى:

«فـي شَـبابي انْكَبَبْـتُ علـى التَّحْصيـلِ طَلَبًـا للجـاهِ والسُّـؤْدَدِ، وفـي كُهولَتـي انْكَبَبْـتُ علـى التَّحْصيـلِ طَلَبًـا للحِكْمَـةِ، أمّـا الآنَ فأفْعَلُ لا لِوَجْهِ شَـيْءٍ سِـوى اللَّهْـوِ والمُتْعَـة».

ولا يَفوتُ الفَيْلسـوفَ الفَرَنْسِـيَّ، بِطَبيعَةِ الحالِ، أنَّ الفَلسَـفَةَ التـي يَنْصَـرِفُ إلَيْهـا في مـا يَنْصَـرِف إلَيْهِ مِـنْ عُلومٍ مَوْضِـعُ زِرايَـةٍ وَتَبْكيت:

«نَعَـم، إنَّـهُ لأمْـرٌ كَبيـرٌ أن يَصِـلَ الأمْـرُ فـي زَمانِنـا هـذا إلـى الإزْراءِ بِالفَلْسَـفَةِ والحَـطِّ مِـنْ قَدْرِهـا والتَّقْليـلِ مِـنْ شَـأْنِها علـى يَـدِ أُولَئِـكَ الذيـنَ تَأْلَـفُ مِنْهُـمُ الفِطْنَـةَ بِحُجَّـةِ أنَّهـا بَحْـثٌ فـي الخَياليّـاتِ والوَهْمِيّـاتِ لَيْـسَ إلّا...».

علـى الرَّغْـمِ مِـنْ هـذا جَميعًـا فـإنَّ دو مونتنيـه لا يَسْتَسْـلِمُ ولا يُلْقي السِّـلاحَ بَلْ يَدْعو قُرّاءَهُ، في غَيْرِ مَوْضِـعٍ، إلـى التَّأَمُّـلِ فـي مـا يَتَعـارَفُ النّـاسُ علـى وَصْمِـهِ بالنّافِـلِ وبِمـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا فائِـدَةَ مِنْـه:

«يَنْبغـي أنْ يُبْعَـثَ في صُدورِ النّـاسِ احْتِقارُ الذَّهَبِ والحَريرِ وسِـواهُما مِـنَ الأُمورِ الباطِلَـةِ كالجاهِ وحُبِّ المعالي».

ولا تَغيـبُ عَـنْ دو مونتينـه غُرْبَتُـهُ عَنْ بَنـي زَمانِهِ حَتّـى فـي مـا لا يُؤْخَـذُ عَلَيْهِ مِـنْ صِفات:

«حتّـى صِفاتـي التـي لا أُلامُ عَلَيْهـا لا لُـزومَ لهـا فـي هـذا العَصْرِ ولا جَـدْوى مِنها. فَتَسـامُحي يُحْمَلُ على مَحْمَـلِ الضَّعْـفِ والجُبْنِ، وتَمَسُّـكي بالوَفـاءِ وبإرضاءِ ضَميـري يُحْمَـلُ علـى مَحْمَـلِ الوَسْوَسَـةِ والتَّطَيُّر، أمّا صراحَتـي فـي قَـوْلِ الحَـقِّ فَتُنْسَـبُ إلـى قِلَّـةِ الأدَبِ، وحُرِّيَّتـي إلـى التَّهَوُّر».

لا تَدَّعـي مُحـاولاتُ دو مونتينـه أنَّهـا أكْـثَرُ مِـنْ شـهادَةٍ شَـخْصِيَّةٍ، وبِهذا الوَصْفِ فإنَّها لا تَسْـكُتُ عَمّـا قَـد يُضيـرُ صاحِبَهـا. كَذَلِـكَ لا يَتَـرَدَّدُ مِـنَ الاعْتِـرافِ، إنْ جـازَتِ العِبـارَةُ، بـأنَّ أوليـاءَهُ، وإنْ لَـمْ يَتَوَجَّسـوا يَوْمًـا أن يَمْضـيَ فـي مَناكِبِ الشَّـرِّ والرذيلَـة، لَـمْ يَفُتْهُـم أنْ يَتَوَجَّسـوا أنْ يَمْضـي في طَرِيـقِ البَطالَـةِ وأنْ يُوَظِّـفَ نَفْسَـهُ علـى مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا فائِـدَةَ مِنْـه:

«ولا بَـأْسَ لرُبَّمـا أنْ تُسَـنَّ تَشْـريعاتٌ، علـى غِـرارِ التَّشْـريعاتِ التـي يُحْجَـرُ بِمُوجِبِهـا على المُشَـرَّدينَ، يَكـونُ مِـنْ شَـأْنِها أنْ تَضْبُـطَ الأُدبـاءَ الحُمْقـى والبطّاليـن. ولَعَلّـي أنْ أُعَـدَّ، كمـا غَيْـري مِـنَ الأُدبـاءِ، فـي عِـدادِ هَـؤلاءِ البَطّاليـن. وأقـولُ قَوْلـي هـذا لا هـازِلًا ولا مَـنْ يَحْزَنـون!».

بالطَّبْـعِ، لا يَنْبَغـي أن يُحْمَـلَ كَلامُ دو مونتينـه علـى نَصِّـهِ وحَرْفِـهِ، وهـو مـا شَـدَّدَ عَلَيْـه أندريه تورنـون فـي تَعْليقاتِـهِ علـى هـذه الفِقْـراتِ مِـنَ المُحـاولاتِ، بَـلِ الأَوْلـى، لَرُبَّمـا، أنْ نَـرى فيهـا ما تَمَتَّـعَ بِـهِ المُفَكِّـرُ مِـنْ وَعْـيٍ ثاقِـبٍ أتـاحَ لَـهُ أنْ

يَـرى بالعَيْنِ نَفْسِـها نُفولَ مَكانِـهِ في العَصْرِ الذي عـاشَ فيـهِ، ولُـزومَ كُلِّ مـا لا يَلْـزَمُ فـي الطَّبيعَـةِ والحَيـاةِ، بِمـا فـي ذلـكَ مـا لا يَلْـزَمُ نَفْسُـه.

ليوپاردي المُتَسَكِّع:
في أنَّ الانْحِيازَ إلى النّافِلِ مُخالَفَةٌ على نَفْعِيَّةِ هذا «العَصْرِ الصَّلِفِ والأبْلَه»

طَـوالَ عامَيْـنِ اثْنَيْـنِ، (١٨٣١ و١٨٣٢)، انْصَـرَفَ الشّـاعِرُ الإيطالـيُّ جاكومـو ليوپـاردي(*) وصَديقُـهُ الحَميـمُ أنطونيـو رانييـري(**) إلـى العَمَـلِ علـى إصْـدارِ مَطْبوعَـةٍ أُسْـبوعيَّةٍ «لا لُـزومَ لهـا ولا جَـدْوى مِنهـا». ففـي زَمَـنٍ هَـمُّ أبْنائِـهِ اسْـتِجلابُ المنافِـعِ، لا مَفَـرَّ مِـنَ المُرافَعَـةِ عَمّـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْـه:

«فـي هـذا الزَّمَنِ الـذي تَبْدو فيـهِ سـائِرُ المَطْبوعاتِ

(*) جاكومو ليوپاردي، (١٧٩٨ ـ ١٨٣٧)، شاعِرٌ وكاتِبٌ إيطاليّ.

(**) أنطونيـو رانييـري، (١٨٠٦ ـ ١٨٨٨)، أديـبٌ إيطالـيٌّ رافَـقَ جاكومـو ليوپـاردي خِـلالَ سَـنَواتِ عُمْـرِهِ الأخيـرة. عِـلاوَةً علـى عَـدَدٍ مِـنَ المُؤَلَّفـاتِ، يُذْكَـرُ رانييـري بأنَّـهُ وَقَـفَ بَعْـدَ رَحيـلِ ليوپـاردي علـى نَشْـرِ آثـارِه.

مِـنْ كُـتُبٍ ومَنْشـوراتٍ وحتّـى مِنْ بطاقـاتِ تَعْريفٍ شَـخْصِيَّةٍ مُوَجَّهَـةً وُجْهَـةً نَفْعِيَّـةً، مِنَ المُفيـدِ، بَلْ مِنَ الضَّـروريِّ فـي عُرْفِنـا أنْ نُبـادِرَ إلـى إصْـدارِ مَطبوعَةٍ شِـعارُها أنْ لا لُـزومَ لهـا ولا فائِـدَةَ مِنْهـا. شـيمَةُ الإنْسـانِ أنْ يُحـاوِلَ التَّمَيُّزَ عَنْ بَني جِنْسِـهِ، ولمّا كانَ أبْنـاءُ الجِنْـسِ مُسْـتَغرِقينَ فـي ما هو نافِـعٌ ومُجْدٍ، لا يَبْقـى لِمَـنْ يُريـدُ التَّمَيُّـزَ عَنْهُـم إلّا أن يَتَعَبَّـدَ لِوَجْـهِ مـا لا يَلْزم!».

ولمّـا كانَـتْ قَناعَـةُ ليوپـاردي أنَّ المُمْتِـعَ مُقَـدَّمٌ علـى المُفيدِ، فَلَقَد تَوَسَّـمَ في النِّسـاءِ اللّامبالِياتِ جُمْهـورًا لهـذِهِ المَطْبوعَـةِ: «ولا أقْصِـدُ النِّسـاءَ هَـؤلاءِ مِنْ بـابِ مُجامَلَتِهِـنَّ وإنّما لِما أُقَـدِّرُ أنَّهُنَّ يُحْسِـنَّهُ مِـنْ ظَـنٍّ فـي مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَدْوى مِنْه»...

لَـمْ يَحْصُـلْ ليوپـاردي وصديقُـهُ علـى الرُّخْصَـةِ المَطْلوبَـةِ لإصْـدارِ هـذهِ المَطبوعَـةِ مِـنَ السُّـلُطاتِ الفلورَنْسِـيَّةِ، بَيْـدَ أنَّ عَـدَمَ حُصولِهِمـا عَلَيْهـا لا يُقَلِّـلُ فـي شَـيْءٍ مِـنْ فَضْـلِ المُحاوَلَـةِ التـي قامـا بِهـا.

وبِما أنَّ الشِّيْءَ بالشّيْءِ يُذْكَرُ، لا بأسَ مِنَ الإشارَةِ إلى أنَّ مَشْروعَ المَطْبوعَةِ هذهِ لَمْ يَكُنْ أوَّلَ قُرْبانٍ يَسْعى ليوپاردي إلى تَقْديمِهِ على مَذْبَحِ النّافِلِ وما لا لُزومَ لَهُ. فَقَبْلَ أعْوامٍ على ذَلِكَ خَطَرَ لَهُ أنْ يَضَعَ مَوْسوعَةً ــ لا أقَلَّ مِنْ ذَلِكَ! ــ يَقِفُها على المَعارِفِ التي لا لُزومَ لها ولا جَدْوى مِنها! على غِرارِ تِلْكَ المَطْبوعَةِ، لَمْ يُكْتَبْ لِهَذِهِ المَوْسوعَةِ أنْ تَرى النّورَ ولكنَّ مُجَرَّدَ التَّفْكيرِ بِوَضْعِها يُخَبِّرُ عَنِ القَلَقِ العَميقِ الذي كانَ يَعْتَمِلُ في نَفْسِ أديبٍ يَعيشُ مُتَغَرِّبًا في مُجْتَمَعٍ يَسودُ فيهِ، وعَلَيْهِ، على ما يَرِدُ في رِسالَةٍ وَجَّهَها ليوپاردي إلى ناشِرِهِ في تموز ١٨٢٧ــ «التُّجّارُ ومَنْ على شاكِلَتِهِم مِنْ طُلّابِ المالِ والثَّرْوَة»:

«كأنّي بِهِم، [ناسِ هذا العَصْر]، يَخْتَلِفونَ في كُلِّ شَيْءٍ إلّا في ما يَنْسِبونَهُ مِنْ قَدْرٍ إلى المالِ ومِنْ شَأنٍ حتّى لَيَكادُ الواحِدُ أنْ يَظُنَّ بأنَّ المالَ، والمالَ وَحْدَهُ، هو، في قناعَتِهِم، جَوْهَرُ الكائِنِ البَشَرِيِّ وماهِيَّتُهُ. إنَّ الشَّواهِدَ لَتَتَضافَرُ أنَّ

الإعـلاءَ مِـنْ قَـدْرِ المالِ وَشَـأْنِهِ مَبْـدأٌ أزَلِـيٌّ. ولَعَلَّهُ عـلا أكْـثَرَ فـي زَمانِنـا هـذا. وإذْ يَكـونُ هـذا فـإنَّ كُلَّ الصِّفـاتِ القَبيحَـةِ، مِـنْ لامُبـالاةٍ وأنانِيَّـةٍ وبُخْلٍ وزَيْـفٍ وخُبْـثٍ، تَنْتَشِـرُ وتَفْشـو، فيمـا الصِّفـاتُ الحَميـدَةُ تَنْحَسِـر».

لَـمْ يَـرْمِ ليوبـاردي مِنْ خـلالِ دفاعِـهِ عَـنِ النّافِلِ وعَمّـا لا لُـزومَ لَـهُ أنَّ يَتَسَـقَّطَ للنَّشـاطِ الفِكْـريِّ حَبْـلَ نَجـاةٍ يَتَمَسَّـكُ بِـهِ فَحَسْـبُ، ولكنَّـهُ سَـعى أيْضًـا إلـى التَّأْكيـدِ علـى أهَمِيَّـةِ الحَيـاةِ والأدَبِ والحُـبِّ والخَيـالِ وَسْـطَ عَصْـرٍ لَـمْ يَتَـرَدَّدَ عَـنْ وَصْفِـهِ بـ«الصَّلِـفِ والأبْلَـه».

جون لوك: ضِدّ الشِّعْر

مُتَحَزِّبًـا لِلْمَنْطِـقِ النَّفْعِـيِّ، يَذْهَـبُ جـون لوك(*) فـي دِفاعِـهِ عـن أوَّلِيَّـةِ كُلِّ مـا لَـهُ لُـزومٌ وجَدْوى إلـى مُهاجَمَةِ الشِّـعْر.

ففـي رِسـالَةٍ وَضَعَهـا لـوك وأدارَهـا علـى مَبـادِئِ

(*) جون لوك، (١٦٢٣ ـ ١٧٠٤)، فَيْلَسوفٌ ومُفَكِّرٌ سِياسِيٌّ إنْجليزيّ.

التَّرْبِيَـةِ، يَنْتَقِـدُ أشَـدَّ الانْتِقـادِ أولَئِـكَ الذيـن يَفرِضـونَ علـى الأوْلادِ تَعَلُّـمَ مَبـادِئِ العَـروضِ:

«إنْ لَـمْ يَتَمَتَّعِ الوَلَـدُ بذائِقَـةِ الشِّـعْرِ فَعَبَثًـا إرْهاقُـهُ بِتَعَلُّـمِ مـا يُضَيِّـعُ وَقْتَـهُ طالَمـا أنَّـهُ أصْـلًا لَـنْ يَبْـرَعَ فيـه».

وَلكنَّـهُ لا يَكْتفـي بِذَلِـكَ فَحَسْـبُ بَـلْ يَنْتَقِـدُ بِعبـاراتٍ أشَـدَّ أُولئِـكَ الأوليـاءَ الذيـن يَدَعـونَ لأبْنائِهِـم ذَوي المواهِـبِ الشِّـعْرِيَّةِ أن يُنَمّـوا هَـذِهِ المواهِـبَ:

«وإذا اتَّفَـقَ لِوَلَـدٍ أنْ أوتـيَ مَوْهِبَـةَ الشِّـعْرِ فإنّـي لأسْـتَغْرِبُ كُلَّ الاسْـتِغْرابِ أنْ يَنْشُـدَ أوْلِيـاؤُهُ أنْ تَنْمُـوَ هـذهِ المَوْهِبَـةُ لَدَيْـهِ أو أنْ يُعينـوهُ علـى تَنْمِيَتِهـا».

ففـي شَـرْعِ لـوك، لا فائِـدَةَ ماديَّـةً تُرْجّـى مِـنْ صُحْبَـةِ شَـياطينِ الشِّـعْر:

«... مِـنْ ثَـمَّ يَبـدو لـي أنَّ الأحْـرى بالأهْـلِ أنْ يَكْبُتـوا قَـدْرَ المُسْـتَطاعِ هَـذِه المَوْهِبَـة. فالحَقيقةُ أنّـي لا أفْهَـمُ تَشْـجيعَ والِـدٍ لِوَلَـدِهِ على الشِّـعَرِ إلّا تَنْفيـرًا لَـه عَـنْ مِهَـنِ الحيـاةِ الأُخـرى. وهُنـاكَ مـا هُـوَ أسْـوأُ مِـنْ كُلِّ هـذا بَعْـدُ: فَلِنَفْتَـرِضْ أنَّ الوَلَـدَ

بَـرَعَ فـي نَظْمِ الشِّـعْرِ، أيَـنْ تَظُنُّهُ سَـيَقضي أوقاتَهُ وسَـيَصْرِفُ أمْوالَـه؟ هَلْ سَـمِعَ أحَدٌ مِنّـا عَنْ مناجِمِ ذَهَـبٍ وفِضَّـةٍ فـي جِبـالِ البِرنـاس؟(*) لَعَـلَّ هَـواءَ تِلْـكَ الجِبـالِ عَليـلٌ ولَكِـنَّ تُرْبَتَهـا جَدْبـاءُ فَقيـرَةٌ... فَقَليـلٌ، قَليـلٌ جِدًّا، مِمَّـن اخْتارَها وَطَـنًا أفْلَحَ في زِيـادَةِ ثَرْوَتِـهِ مِـنَ التَّنْقيـبِ فـي أرْضِها».

مِمّـا لا جِدالَ فيهِ أنَّ غايَـةَ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليمِ على مـا رأى لـوك إلَيْهِمـا هـي تَـكْوينُ «الجَنْتِلمـان» المُتَمَتِّـعِ بالكَفـاءَاتِ العِلْمِيَّـةِ والتِّقْنِيَّـةِ التـي تُمَكِّنُـهُ مِنْ خَـوْضِ الحَيـاةِ العَمَلِيَّةِ ومِـنَ النَّجاحِ فيهـا. ولَعَلَّنـا أنْ نَعْذُرَ شِـدَّةَ نَـكيرِهِ على الشِّـعْرِ وعلـى التَّشْـجيعِ عَلَيْـهِ إذا ما أخَذْنا فـي الاعْتبارِ مـا سـادَ فـي المَناهِـجِ التَّرْبَوِيَّـةِ فـي زَمانِـهِ مِـنِ احْتِفـالٍ بِعُلـومِ البَلاغَـةِ وإعْـلاءٍ مِنْ شَـأْنِها.

ثُـمَّ لنـا أنْ نَسْـأَلَ عَـنْ تَأْثيـرِ لـوك فـي نَظَرِيّاتِـهِ هـذِهِ علـى صُنّـاعِ السِّياسـاتِ التَّعْليميَّـةِ مِـنْ أهْـلِ عَصْرِنـا، وحَـقٌّ عَلَيْنـا أنْ نَعْتَـرِف بـأنَّ

(*) جِبـالُ البارنـاس، فـي الميثولوجيـا اليُونانيَّـةِ، هـي مَوْطِـنُ رَبّـاتِ الشِّـعْرِ وشَـياطينِه.

الجَوابَ عَنْ هذا السُّؤالِ لَيْسَ بالبَدْهِيِّ أوْ بالسَّهْل: فَمُنْذُ عُقودٍ خَلَتْ أسْمَعُ عَدَدًا لا يُسْتَهانُ بِهِ مِنْ أوْلِياءِ الطَّلَبَةِ يَتَساءَلون: «أيُّ شَيءٍ سَيَكونُ مِنْ أمْرِ ابني/ابنتي إنْ حازَ/زَتْ شهادَةً في الآداب؟». والأرْجَحُ، عِنْدي، أنَّ في هذا التَّساؤلِ شَيْئًا مِنْ رَجْعِ الصَّدى لِما شَنَّهُ لوك، ذاتَ يَوْمٍ، مِنْ حَرْبٍ على الشِّعَرِ وعلى الموسيقى...

بوكاتشو: الخُبْزُ والشِّعْر

رَبّاتُ الشِّعْرِ، كما يُصَوِّرُهُنَّ جيوڤاني بوكاتشو(*)، نِساءٌ مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ لا تَزيدُ المَرْءَ صُحْبَتُهُنَّ إلّا هَناءً على هَناء.

بِناءً على هذا الانْحيازِ الكامِلِ إلى الشِّعْرِ، لا يُسْتَغْرَبُ مِنْ صاحِبِهِ أنْ يُخَصِّصَ صَفَحاتٍ

(*) جيوڤاني بوكاتشو، (١٣١٣ ـ ١٣٧٥)، كاتِبٌ وشاعِرٌ إيطاليٌّ مِنْ أرْكانِ عَصْرِ النَّهْضَةِ شَأنَ صَديقِهِ پترارك.

مِـنْ كِـتابِهِ **الديكاميـرون**(*) لِمُجادَلَـةِ أولَئِـكَ الّذيـنَ يَحُثّونَـهُ علـى السَّـعْيِ وراءَ الخُبْـزِ عِـوَضَ الانْصِـرافِ إلـى الشِّـعْرِ وتُرَّهاتِـه.

«ثُـمَّ هاكُـمْ أولَئِـكَ الذيـنَ يَدَّعـونَ الحِـرْصَ عَلَـيَّ وعلـى شَـهِيَّتي إلـى الطَّعـامِ فَيَنْصَحـونَ إلـيَّ أنْ أُوَجِّـهَ هَمِّـيَ وجَهْـديَ إلـى كَسْـبِ قُوتِـيَ اليَوْمـيِّ مِـنَ الخُبْـز. كَيْـفَ يَسَـعُني أنْ أُخاطِـبَ هَـؤلاء؟ لا أعْـرِفُ، فـي الحَقيقَـةِ مـا قَـدْ يكـونُ عَلَيْـهِ جَوابُهُم لَـوْ سَـأَلْتُهُم "وكَـيْفَ لـي أنْ أفْعَـلَ ذَلِـكَ؟" وَلَـوْ أنَّنـي لا أسْـتَبْعِدُ أنْ يَكـونَ الجَـوابُ مِـنْ بَعْضِهِـم: "بالانْصِـرافِ إلـى الشِّـعْر". فَلَكَـمْ مِـنْ شـاعِرٍ جَنى مِـنْ شِـعْرِهِ ما لَمْ يَجْنِـهِ الأثْرِياءُ مِنْ كَـنْزِ الثَّرَواتِ، ولَكَـمْ مِـنْ مُحِبٍّ للشِّـعْرِ امْتَـدَّ بِهِ العُمْـرُ في حينِ بَكَّـرَ المَـوْتُ إلـى السّـاعينَ وراءَ الخُبْـز».

نَعَـمْ، بِصَـرْفِ النَّظَـرِ عَـنْ كَمِيَّـةِ الخُبْـزِ الـذي تَؤْتيـهِ أشْـعارُ الشُّـعَراءِ فَهِـيَ حاكِمَـةٌ علـى فَهْمِنا

(*) المَعْنـى الحَرْفِـيُّ لـ **ديكاميـرون** هـو «الأيّـام العَشْـرَة». وَضَعَ بوكاتشـو هذا الكِـتابَ بَيْـنَ ١٣٤٨ و١٣٥٨ وهـو يَضُـمُّ مائَـةَ أُقْصوصَـةٍ رُوِيَـتْ خِـلالَ عَشْـرَةِ أيّـامٍ علـى ألْسِـنَةِ عَشْـرَةِ فِتْيـانٍ جَمَـعَ بَيْنَهُـم فِرارُهُـم مِـنَ الطّاعونِ الـذي فَتَكَ أيّامَـذاكَ بِحَواضِـرَ كثيـرَةٍ مِـنْ عِدادِهـا فلورنسـا. يُذْكَـرُ هـذا الكِـتابُ، فـي مـا يُذْكَـرُ، لِمـا كانَ لَـهُ مِـنْ أثَـرٍ لاحِـقٍ علـى فُحـولٍ مِـنْ أمْثـالِ شاوسـر وشكسـبير.

لِما نَحْتاجُ إلَيْهِ مِنْ خُبْزٍ ومِنْ سِواهُ، فَمِنْها ــ مِنْ أشْعارِ الشُّعَراءِ ــ نَتَعَلَّمُ الدِّفاعَ عَنْ أنْفُسِنا مِنْ تَسَلُّطِ وَساوِسِ الرِّبْحِ عَلَيْها، عِلمًا أنَّ هذهِ الوَساوِسَ، كما يُلاحِظُ بوكاتشو، لا تَخْلو، على وَجْهِ الحَقيقَةِ لا على وَجْهِ المَجازِ فَحَسْبُ، أنْ تَكونَ مِنْ أسْبابِ المَوْتِ المُبْكِر!

غارثيا لوركا:
لَيْسَ مِنَ الأمانِ في شَيْءٍ أنْ يَعيشَ الإنْسانُ في مَنأى مِنْ جُنونِ الشِّعْر!

كُثُرٌ هُمُ الشُّعَراءُ والأُدَباءُ الذينَ حاجّوا لوك، ولَوْ بِشَكْلٍ غَيْرِ مُباشَرٍ، في جَدْوى الشِّعْرِ والأدَبِ بانْصِرافِهِم إلَيْهِما.

مِنْ كُلِّ هَؤلاءِ لِغارثيا لوركا(*) مَنْزِلَةٌ على حِدَةٍ ولَعَلَّ الكَلِماتِ التي قَدَّمَ بِها لأحَدِ دواوينِ

(*) فيديريكو غارثيا لوركا، شاعِرٌ إسبانِيٌّ وكاتِبٌ مَسْرَحِيٌّ ورَسّامٌ وعازِفُ پيانو كانت وِلادَتُهُ بغرناطَةَ سَنَةَ ١٨٩٨. أعْدَمَهُ الفَرانْكِيّونَ على بِداياتِ الحَرْبِ الأهْلِيَّةِ الإسْبانِيَّةِ في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٣٦.

يابلـو نيـرودا(*) أنْ تَـكونَ مِنْ أفْحَـمِ الرُّدودِ على لوك:

«نَصيحَتـي لَـكُمْ أنْ ألْقـوا السَّـمْعَ إلـى مـا يَقولُهُ هـذا الشّـاعِرُ، وليحـاوِلْ كُلُّ واحِـدٍ مِنْكُـم أنْ يُشـاطِرَهُ أحاسيسَـهُ كَيْفَمـا يَشـاء. نَعَـم، لا يَخلـو الشِّـعْرُ مِـنْ أنْ يَقتَضـيَ دُرْبَـةً مـا عَلَيْـه؛ ومَثَـلُ الشِّـعْرِ فـي هـذا، مَثَـلُ سـائِرِ الرِّياضـاتِ... بَيْـدَ أنَّ فـي كُلِّ شِـعْرٍ حَقيـقٍ بـأنْ يُنْسَـبَ إلى الشِّـعْرِ شَـميمُ عِطْـرٍ، وَوَقْـعُ نَغَمٍ، وشُـعاعَةُ نـورٍ لا يَحْتاجُ الواحِـدُ مِنّـا إلـى أيَّـةِ دُرْبَـةٍ لِيَتَمَتَّـعَ بِأَريجِهـا، أو لِتُشَـنِّفَ أُذُنَيْـهِ أوْ لِتَضيـعَ بَيـنَ يَديْـه. ألّا فَلْيُمَـنَّ علـى كُلِّ واحِـدٍ مِنّـا أنْ تَنْمـوَ فـي نَفْسِـهِ هَـذِهِ اللُّوثَـةُ المَغْروسَـةُ فينا مِـنَ الجُنونِ والتـي يُحاوِلُ البَعْـضُ مِنّـا وَأْدَهـا مُخَلِّيًـا مَحَلَّها لِما يَتَيَسَّـرُ لَهُ مِنْ عِلْـمٍ كُـتُبِيٍّ ثَقيـلِ الظِّـلِّ لا مُـدْرِكًا أنَّهُ بِـوَأْدِهِ هذهِ اللُّوثَـةَ إنَّمـا يُجَـرِّدُ نَفْسَـهُ مِـنْ بَعْـضِ مـا تُدافِـعُ بِهِ نَفْسُـهُ عَـنْ نَفْسِـها!».

لَيْـسَ بالقَليـلِ أنْ يَقـولَ شـاعِرٌ كبيـرٌ مِثْـلَ هـذا

(*) يابلـو نيـرودا، (١٩٠٤ ـ ١٩٧٣)، شـاعِرٌ وسِياسِـيٌّ تشـيليٌّ شُـيوعِيُّ الهَـوى. حـازَ عـامَ ١٩٧١ جائِـزَةَ نوبـل لـلآداب.

الـكلامِ فـي شـاعِرٍ آخَـر، ويَزيـدُ مِـنْ شَـأْنِ هـذا الـكلامِ أنَّ لـوركا جـاءَ بِـهِ أمـامَ مَـلَأٍ مِـنْ طُـلّابِ جامِعَـةِ مدريـدَ فـي عـامِ ١٩٣٤!

لَعَـلَّ هـذا التَّفْصيـلَ الزَّمانِـيَّ والمَكانِـيَّ يَكْفـي تَفْسـيرًا لِمـا حَـدا بِنـا أنْ نُعَنْـوِنَ هـذا الفَصْـلَ، مُسْـتَوحينَ لـوركا: لَيْـسَ مِـنَ الأمانِ في شَـيْءٍ أنْ يَعيـشَ الإنْسـانُ فـي مَنـأى مَـنْ جُنـونِ الشِّـعْر!

سُلْطانُ «الوَقائِـع»:
مُخالفاتُ ديكنز على المبدأ النَّفْعِيّ

لَـمْ يَتَفَّـوَقْ أحَـدٌ، على الكاتِـبِ الإنْكلِيزِيِّ تشـارلز ديكنـز(*) فـي تَصْويـرِ مـا يُشَـنُّ مِـنْ حَـرْبٍ علـى الخَيـالِ باسْـمِ الواقِـعِ والواقِعِيَّـةِ والوقائِـع ومِـنْ وَراءِ هَـذِهِ الثُّلاثيَّـةِ باسْـمِ المَبـدأِ النَّفْعِـيّ.

ففـي مدينَـة كوكـتاون التـي يَتَّخِذُهـا مَسْـرَحًا

(*) تشـارلز ديكنـز، (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، أعْظَـمُ الرِّوائِييـن الإنْكليـزِ فـي العَصْـرِ الفِكْـتوريّ.

لِروايَتِهِ **الأوقات العَصيبَة** ما مِنْ شَيْءٍ فَوْقَ غِرْبالِ النَّفْعِ والجَدْوى، أو مِنْ شَيءٍ لا يُقاسُ بِمِقياسِ النَّفْعِ والجَدْوى: في كوكتاون لا يَخْتَلِفُ المَصْرِفيُّ عَنْ أُسْتاذِ المَدْرَسَةِ في حَرْبِهِما اليَوْمِيَّةِ على كُلِّ ما يَحْرِفُ الخَيالَ عَنِ الواقِعِ أو يُعَوِّقُ الانْتاج:

«في هَذِهِ الحَياةِ، لا حاجَةَ بِنا إلّا إلى الوَقائِعِ... إلى الوقائِعِ وحَسْب!».

كَذَلِكَ لا غَرْوَ أنْ يُصَوَّرَ أُستاذُ المَدْرَسَةِ بهَيْئَةِ شَخْصٍ مُعادٍ للخَيالِ وللمَشاعِرِ «في يَدِهِ، على الدَّوامِ، مِسْطَرَةٌ، وفي جَيْبِهِ جَدْوَلُ الضَّرْب». التَّعْليمُ، في عُرْفِ هذا الأُسْتاذِ، «مَسْأَلَةٌ حِسابِيَّةٌ لا أكْثَرَ ولا أقَلَّ»، أمّا التَّلامِذَةُ، فـ«صَفٌّ مِنَ الأواني التي تَنْتَظِرُ أنْ تُمْلأَ بالوَقائِع».

هَذِهِ المَدْرَسَةُ حَيْثُ التَّلامِذَةُ أوانٍ صورَةٌ طِبْقُ الأصْلِ عَنِ المَدينَةِ نَفْسِها حَيْثُ «أهْلوها مُتَشابِهونَ كُلَّ التَّشابُهِ، يُغادِرونَ مَنازِلَهُم في السّاعَةِ نَفْسِها، ويَحُثّونَ الخُطى إلى أماكِنِ

عَمَلِهِم على الرَّصيفِ نَفْسِهِ بِالسُّرْعَةِ نَفْسِها، وَتَتَشابَهُ أيّامُهُم كُلَّ التَّشابُهِ حتّى لا يَكادُ يُمَيَّزُ بَيْنَ أمسٍ وغَد».

كَذَلِكَ، لا أثَرَ في هذه المَدينَةِ لما قَدْ يَعْلو على «الواقِعِ» ووقائِعِهِ المُتَرادِفَة:

«وقائِع! لا شَيْءَ في هذه المَدينَةِ سِوى وقائِعَ ومَلْموساتٍ وما يَجري مَجْرى الوَقائِعِ والمَلْموسات. المَدْرَسَةُ وَقائِعُ، مَعْهَدُ التَّصْميمِ الصِّناعيِّ وقائِعُ، الحَضانَةُ وقائِعُ، وكَذَلِكَ المَقْبَرَةُ وأيًّا مِنْ شَيء لا يَقَعُ تَحْتَ حَدِّ الكَيْلِ لا مَكانَ لَهُ في هذه المَدينَةِ ــ في هذه المدينَةِ حَيْثُ لا مَحَلَّ مِنَ الإعْرابِ إلّا لِما يُمْكِنُ أنْ يُشْرى بأبْخَسِ الأثْمانِ ليُباعَ بأبْهَظِها مِنَ اليَوْمِ إلى أبَدِ الآبدين، آمين».

هيدغر: لَيْسَ بالأمْرِ السَّهْلِ أنْ نَفْقَهَ النّافِلَ الذي لا لُزومَ لَه

مَرّاتٌ عَديدَةٌ تَفَقَّدَ الفَيْلَسوفُ الألمانِيُّ مارتن هيدغر مَسْأَلَةَ ذي اللُّزومِ والجَدْوى وضِدِّهِ

النّافِلِ وغَيْرِ ذي اللَّزومِ والجَدْوى. ولَقَدْ جاءَ تَفَقُّدُ هيدغر لِهَذِهِ المسألَةِ أكْثَرَ ما جاءَ في سِياقِ تأمُّلِهِ في الأعْمالِ الفَنِّيَّةِ وماهِيَّتِها.

أكْتفي في ما يلي بالتَّذْكيرِ بِبَعْضِ ما أدْلى بِهِ هيدغر مِنْ آراءٍ ثاقِبَةٍ يَوْمَ أنْ دَعاهُ طَبيبُ النَّفْسِ السّويسريُّ الألمانيُّ مِدار بوس(*) إلى نَدْوَةٍ مُسْتَفيضَةٍ مَدارُها على الفينومينولوجيا شَرَحَ خِلالَها الفَيْلَسوفُ على نِيَّةِ مَجْموعَةٍ من المُعالِجينَ النَّفْسِيّينَ الشّبابِ مَقاطِعَ من كتابِهِ **الوجود والزمان**.

بِمُناسَبَةٍ أُخرى ـ بِمُناسَبَةِ نَقاهَةٍ قَضاها هيدغر وبوس عام ١٩٦٣ في جَزيرَةٍ صقلِّية ـــ سَألَ بوس هيدغر أنْ يَسْتَرْسِلَ في بَيانِ رأيِهِ في أمْرِ الكائِنِ البَشَرِيِّ في علاقَتِهِ بالآخَر.

في مَعْرِضِ هَذِهِ المُحادَثَةِ التي تَبَوَّأَ فيها

(*) مِدار بوس، (١٩٠٣ ـ ١٩٩٠)، عالِمُ نَفْسِيّاتٍ سويسريٌّ تُنْسَبُ إلَيْهِ مَدْرَسَةٌ في الطِّبِّ النَّفْسِيِّ تَسْتَوحي فَلْسَفَةَ هَيْدغر.

«الدّازَيْـن» ــ الكائِـنُ فـي مَكانِـهِ مِـنَ العالَـم ــ مَحَـلَّ الصَّـدارَةِ ذَهَـبَ هيدغـر إلـى التّالـي:

«الأجْـدَى، قاطِبَـةً، هـو مـا لا جَـدْوى مِنْـه. على أنَّ اخْتِبـارَ مـا لا جَـدْوى مِنْـهُ هـو الأقَـلُّ يُسْـرًا علـى إنْسـانِ اليَـوْم. فالمُفيـدُ والمُجْـدي يُتَرْجِـمُ عَـنْ نَفْسِـه بِوَصْفِـهِ مـا هـو قابِـلٌ للاسْـتِعمالِ ومـا لَـهُ غايَـةٌ مُباشَـرَةٌ يَسْـتَصْلِحُها الإنْسـانُ فـي التِّجـارَةِ أو الصِّناعَـة. [أمّـا غَيْرُ المُفيدِ، وغَيْرُ المُجدي، مُباشَـرَةً فـلا يُمْكِـنُ النَّظَـرُ إلَيْـهِ علـى هـذا النَّحْـو]. يَنْبغـي علـى الإنْسـانِ أن يَتَوَصَّـلَ إلـى النَّظَـرِ إلـى المُفيـدِ المُجْـدي علـى أنَّـهُ ذو خاصِيَّـةٍ خَلاصِيَّـةٍ تُقَرِّبُـهُ، [تُقَـرِّبُ الإنْسـانَ]، أقَـرَبَ مـا يُمْكِـنُ مِـنْ نَفْسِـه».

مِـنْ هَـذِهِ الطَّريـقِ يُحـاوِلُ هيدغـر أنْ يَعْـزِلَ مَفهـومَ المُفيـدِ والمُجْـدي ومـا لُـزومَ لَـهُ عَـنِ الغائِيَّـةِ التِّقْنِيَّـةِ أو التِّجارِيَّةِ الصِّـرْفِ ولكِنَّهُ، رَغْمَ سَـعْيِهِ هـذا، يُقِـرُّ بِصُعوبَـةِ تَقَبُّـلِ المُعاصِريـنَ أهَمِيَّـةَ مـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَدْوى مِنْـه؛ وعلى ما يَقـولُ هـو نَفْسُـهُ:

«مِـنَ الصُعوبَـةِ بِمـكانٍ على إنْسـانِ اليَـوْمِ أنْ يُلْقي بـالًا إلـى مـا لا تَطبيقَ أو اسْـتِخداماتٍ عَمَلِيَّـةً لَه...».

اللّالزوم وجَوْهَرُ الحَياة:
جوانغ زي وأوكاكورا كاكوزو

فـي القَـرْنِ الرَابِـعِ قَبْـلَ المَسـيحِ وَجَـدَ الحَكيـمُ الصّينـيُّ جوانـغ زي(*) نَفْسَـهُ بَيْـنَ يَـدَيِ المَسْـأَلَةِ نَفْسِـها: تَزاحُـمُ الـلّازِمِ ومـا لُـزومَ لَـهُ، وَلَقَـدْ تَصَدّى لهـا فـي غَيْـرِ مَوْضِـعٍ مِـنْ مُؤَلَّفِـهِ العُمْـدَةِ الـذي تَنـاوَلَ فيـهِ الطَّبيعَـةَ والتَّناسُـخاتِ المُتواصِلَـةَ والأُسْـلوبَ الأَمْثَـلَ فـي العَيْـش.

مُتَأَمِّلًا ذاتَ يَوْمٍ في شَـجَرَةٍ مُعَمِّرَةٍ قال:

«لـم تَبْلُـغْ هـذهِ الشَّـجَرَةُ فـي سُـموقِها عَنـانَ السَّـماءِ إلّا لأنَّهـا تُرِكَـتْ لِشَـأْنِها فـي مَنـأىً مِـنْ أيَّـةِ مُحاوَلَـةٍ للإفـادَةِ مِنْ خَشَـبِها. كَذَلِكَ الإنْسـانُ، الإنْسـانُ الإلهـيُّ، لا يَبْلُـغُ هـذه المَرْتَبَـةَ إلّا متـى تُـرِكَ لِشَـأْنِهِ وَلَـمْ يُرَجّـى مِنْـهُ أنْ يَقـومَ بمـا يَعـودُ بالنَّفْـعِ المـادِيّ. بِخِـلافِ هـذهِ الشَّـجَرَةِ، مَقْتَـلُ كُلِّ الأشْـجارِ الأُخْـرى هـو فـي مـا تُوَظَّـفُ لَـهُ مِـنِ اسْـتِعْمالات».

(*) جوانغ زي: فَيْلَسوفٌ صينيٌّ عاشَ في القَرْنِ الرّابِعِ قَبْلَ الميلاد.

فـي مَوْضِـعٍ آخَـرَ مِنْ هذا الكِـتابِ، فـي مُحاوَرَةٍ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ السُّفسـطائِيِّ هـوي تسـو، يُبَيِّـنُ جوانـغ زي مَحْدوديَّـةَ أُولئِـكَ الذين يَأْنَسـونَ مِنْ أنْفُسِـهِم القُـدَرْةَ علـى التَّمْييـزِ بَيْـنَ مـا لُـزومَ لَهُ ومـا لا لُـزوم.

يقـولُ هوي تسـو: «لا لُزومَ لمـا تَقولُـهُ»، فَيُجيبُهُ جوانـغ زي: لا بُـدَّ مِـنْ عِلْمِ ما لا لُزومَ لـه للحُكْمِ علـى مـا لُزومَ لـه بأنَّهُ لا لُـزومَ له...».

أمّا الكاتِبُ اليابانيُّ أوكاكورا كاكوزو، (١٨٦٢ ـ ١٩١٣)، فيعتَبِرُ أنَّ التَّوَصُّلَ إلى حَمْلِ ما لا لُزومَ لَهُ على مَحْمَلِ الجَدِّ هو الحَدُّ الفاصِلُ بَيْنَ الوَحْشِيَّةِ والإنْسِيَّةِ وهو المَفازَةُ التي لا بُدَّ مِنِ اجْتيازِها للانْتِقالِ مِنْ هذهِ الحالَةِ إلى تِلْك.

فـي فَصْـلٍ من **كِـتاب الشّـاي** الـذي كانَ صُدورُهُ فـي عـامِ ١٩٠٦ يُخَصِّصُهُ كاكوزو للأزْهـارِ يَذهَبُ إلـى القَـوْلِ إنَّ شِـعْرَ الغَـزَلِ إنَّمـا نَشَـأَ مِـنْ حُبِّ البَشَـرِ للأزْهار.

«يَـوْمَ أهْـدى الإنْسـانُ الأوَّلُ لِصاحِبَتِـهِ أوَّلَ باقَـةٍ مِـنَ الأزْهـارِ ــ يَوْمَها غـادَرَ بِدائِيَّتَـهُ، وارْتَفَـعَ عَنْ حاجاتِـهِ البَهيميَّـةِ، ودَخَـلَ تَحْـتَ حَـدِّ الإنْسِـيَّةِ وذلـكَ بـأنْ تَلَمَّسَ ذلكَ الإنْسـانُ، يَومـذاكَ، فَحْوى النّافِـلِ، فدَخَـلَ مَلَـكوتَ الفَـنّ».

أوجين يونيسكو:
مـا لُزومَ له عِبْءٌ لا لُزومَ له

بانِيًـا علـى تَشْـخيصٍ مُفـادُهُ أنَّ البَشَـرِيَّةَ بَلَغَـتْ مِـنَ الانْهِـزامِ حَـدًّا فَقَـدَتْ مَعَـهُ ذائِقَـةَ الحَيـاةِ، اقْتَرَحَ أوجين يونيسـكو بِمُناسَـبَةِ مُحاضَـرَةٍ ألْقاها فـي شُـباط (فبرايـر) ١٩٦٠ جُمْلَـةَ أفْكارٍ لَـمْ تَفْقِدْ شَـيْئًا مِـنْ فُتُوَّتِهـا ونَضارَتِها.

خُلاصَـةُ مـا يَذْهَـبُ إلَيْهِ يونيسـكو وبَيْـتُ قَصيدِهِ أنَّ شَـيْئًا لا يَسُـدُّ مَسَـدَّ مـا لا يَلْـزَمُ ومِـنْ ثَـمَّ فـإنَّ حاجَتَنـا إلَيْهِ ماسَّـة:

«أنْظـروا إلـى النّـاسِ فـي الشَّـوارِعِ يَهَرْوِلـونَ بانْهِمـاك. لَيْـسَ مِنْهُـم مَـنْ يَلْتَفِـتُ ذاتَ اليَميـنِ أو ذاتَ اليَسـار. لا يَحْتـاجُ أحَـدٌ مِنْهُـم أنْ يَنْظُـرَ

أمامَـهُ أو أنْ يَتَـرَدَّدَ لأنَّ كُلًّا مِنْهُـم يَسـيرُ إلـى حَيْثُ يَقْصِـدُ مُسَـيَّرًا تَسْـييرًا شِـبْهَ آلِـيٍّ لا يَحْتـاجُ مِنْهُ إلى أكْـثَرَ مِـنَ تَحْريـكِ قَدَمَيْـه! فـي كُلِّ مُـدُنِ العالَـمِ وحواضِـرِهِ يَسـيرُ النّاسُ هكـذا... إنْسـانُ عَصْرِنـا كائِـنٌ مُسْـتَعْجِلٌ لا وَقْـتَ لَدَيْـهِ لِمـا لا يَقَـعُ تَحْـتَ حَـدِّ الضَّـرورَة. إنْسـانُ عَصرِنـا لا يَفْقَـهُ أنَّ فـي هذا العالَـمِ مـا لَيْـسَ مِـنَ الضَّـروراتِ والضَّروريّـات. إنسـانُ عَصْرِنـا لا يَشْـتَبِهُ لِلَحْظَـةٍ أنَّ الضَّـروريَّ قَـدْ يَكـونُ عِبْئًـا لا لُـزومَ لَـهُ ولا جَـدْوى مِنْـه. وطالمـا أنَّ إنْسـانَ عَصْرِنـا لا يُـدْرِكُ مـا يَنْتَسِـجُ مِـنْ عَلاقَـةٍ جَدَلِيَّـةٍ بَيْـنَ الضَّـروريِّ والنّافِـلِ، اللّازِمِ ومـا لا لُزومَ لَـهُ فهـو يَقْطَـعُ الطَّريـقَ بِنَفْسِـهِ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ الفَـنّ. وإنَّ بَلَـدًا لا يُعْـرَفُ فيـهِ الفَـنُّ ويُكَرَّمُ هـو حَتْمًا بَلَدٌ أهْلـوهُ مِـنَ العَبيـدِ ومِـنَ الكائِنـاتِ المُسَـيَّرَة؛ هـو بَلَدٌ أهْلوهُ تُعَسـاءُ لا يَبْتَسِـمونَ ولا يَضْحَكون... بَلَدٌ بـلا روحٍ يَسـودُ فيـهِ وعَلَيْـهِ الحَنَـقُ والحِقْـد».

إنَّ الإنْسـانَ المُعاصِـرَ الـذي لا يَتَّسِـعُ وَقْتُـهُ للتَّمَكُّـثِ عِنْـدَ النَّوافِـلِ مَحْكـومٌ بـأنْ يَتَحَوَّلَ إلى آلَـةٍ بـلا روح.

مُسْتَأْسَـرًا بالضَّروريّـاتِ وَلَها، يِفْقِدُ هذا الإنْسـانُ شَـيْئًا فَشَـيْئًا القُـدْرَةَ علـى أنْ يُـدْرِكَ بـأنَّ هـذِهِ

الضَّروريّـاتِ آيلَـةٌ إلـى أنْ تَتَحَوَّلَ مِنْـهُ إلى أعْباءٍ ثَقيلَـةٍ تُرْهِـقُ كاهِلَـه. وإذْ يُضيـفُ يونيسـكو أنَّ القُصـورَ عَنْ فَهْـمِ الجَدَلِ بَيْنَ الضَّـروريِّ والنّافِلِ صِنْـوٌ للقُصـورِ عَـنْ فَهْـمِ الفَـنِّ والاحْتِفـالِ بِـهِ، فـإنَّ أخْطَـرَ مُتَرتِّبـاتِ هذا القُصورِ الذي يَسْـتَلِبُ مِـنَ الإنْسـانِ حُرِّيَّتَهُ هو أنَّ هذا الاسْـتِلابَ يُصَيِّرُ الإنْسـانَ فَريسَـةً سـائِغَةً للتَّعَصُّـبِ المُتَفَلِّتِ مِنْ أيِّ عِقـالٍ، ولا سِـيَّما لِضُـروبِ التَّعَصُّـبِ الدّينِـيِّ أو فَريسَـةً لِضُـروبِ «السُّـعارِ الجَماعي»:

«ذلـكَ أنَّ هَـؤلاءِ النّـاسَ المَهْمومينَ بالضَّروريّاتِ، القَلِقيـنَ مِـنْ عَـدمِ القُـدْرَةِ علـى تَحْصيلِهـا، المُسْـتَعْجِلينَ إلـى اكْـتِسابِ مـا يَتَيَسَّـرُ مِنْها، إنَّما يُسْـرِعونَ فـي سَـعَيْهِم هـذا إلـى غايـاتٍ لَيْسَـتْ مِـنَ الإنْسـانِيَّةِ فـي شَـيْءٍ أو هِـيَ فـي أحْسَـنِ الأحْـوالِ غايـاتٌ مِـنْ وَهْـمٍ وسَـراب. إنَّ هَـؤلاءِ النّـاسَ أنْفُسَـهُم عُرْضَـةٌ لأنْ يَسْـتَوْلِيَ عَلَيْهِـم، على غَفْلَـةٍ مِنْهُـم، أيُّمـا تَعَصُّـبٍ جامِحٍ أو سُـعارٍ يَضْرِبُ نَفيـرَهُ مَجْنـونٌ مِنْ هُنـا أو يَدْعو إلَيْهِ مُشَـعْوِذٌ مِنْ هنـاك. إنَّ البَشَـرِيَّةَ، اليَـوْمَ، تَحْـتَ هـذا الخَطَـرِ ــ خَطَـرِ أنْ تَسْـتَيْقِظَ نَوْبـاتُ السُّـعارِ هـذهِ، سِـيّانَ تَزَيَّنَـتْ بِشـعاراتٍ يَمينيَّـةٍ أو يَسـاريَّة. ويَزيـدُ مِنْ

إحْداقِ هذا الخَطَرِ أنَّ النّاسَ لا يُخَلّونَ بَيْنَ أنْفُسِهِم وبَيْنَ النَّظَرِ في ما هُمُ فيهِ وفي ما يَدورُ مِنْ حَوْلِهِم!».

إيتالو كالڤينو: النّافِلُ هو الجوهري!

بِجَدارَةٍ يَتَبَوَّأُ إيتالو كالڤينو مَكانَةً على حِدَةٍ بَيْنَ أولئكَ الذين مَحَّصوا ما بين الآدابِ والعُلومِ مِنْ صِلات. ومِنَ الخُلاصاتِ التي تَوَصَّلَ إلَيْها كالڤينو أنَّهُ لا أشْأى مِنَ النَّشاطاتِ التي تَبْدو لِلْوَهْلَةِ الأولى نافِلَةً وغَيْرَ ذاتِ أهَمِيَّة.

«في كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ، يَنْتَهي الأمْرُ بِما يَخوضُ فيهِ البَشَرُ مِنْ نَشاطاتٍ لا غايَةَ مِنْ وَرائِها سِوى المُتْعَةِ والتَّسْرِيَةِ عَنِ النَّفْسِ يَنْتَهي الأمْرُ بأنْ تَتَأتّى عِنْ هذهِ النَّشاطاتِ نَتائِجُ غايةً في الأهَمِّيَّةِ وثَمَراتٌ لَمْ يَتَوَقَّعْها أحَد. وإن تَصِحُّ هذِهِ الرَّمْياتُ دونَ رامٍ في الشِّعْرِ والفَنِّ فَهِي تَصِحُّ أيْضًا في مَجالِ العُلومِ والتِّكْنولوجيا».

ويُتابِعُ كالڤينو الرَّدَّ على شُبُهاتِ النَّفْعِيّينَ فَيُذَكِّرُنا بأنَّ الواحِدَ مِنّا والواحِدَةَ لا يُمضي

السّاعاتِ في مُطالَعَةِ عُيونِ الأدَبِ طَلَبًا لِفائِدَةٍ مُعَيَّنَةٍ وإنَّما لِوَجْهِ المُتَعِ التي تُوفِّرُها لنا هذهِ المُطالَعَةُ مُتَعِ التَّغَرُّبِ والمَعْرِفَة.

سيوران وسقراط

في ما كان الجَلّادُ يُعِدُّ لِسُقْراطَ السُّمَّ الذي حُكِمَ عَلَيْهِ بِتَجَرُّعِهِ، كانَ سُقراطُ، على ما يَرْوي سيوران(*)، يُمَرِّنُ نَفْسَهُ على عَزْفِ أحَدِ الألْحان. وإذْ سَأَلَهُ أحدَهُمُ عَنِ الفائِدَةِ مِنْ ذلكَ فيما هو مُقْبِلٌ على مَوْتٍ مُحَتَّمٍ أجابَ الفَيْلَسوف: «لِكَيْ أتَمَكَّنَ مِنْ عَزْفِ هذا اللَّحْنِ قَبْلَ أنْ أموت...».

أمّا الحِكْمَةُ مِنْ هذا الشاهِدِ فَتَكادُ ألّا تَحْتاجَ إلى بَيان: مَعَ اليَقينِ بِأنَّهُ لَيْسَ لإبْداعٍ أدبِيٍّ أو فَنِّيٍّ غايَةٌ عَمَلِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، فلا سَبيلَ لنا أن نُنْكِرَ أنَّ الفَضْلَ في إبْقاءِ شُعْلَةِ الأمَلِ مُتَّقِدَةً وَسْطَ

(*) إميل سيوران، (١٩١١ ـ ١٩٩٥)، كاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ أصولٍ رومانيّة.

هـذا الصَّقيعِ الـذي يُخَيِّـمُ علـى الوَعْـي العـامِّ والـذي تَـكادُ الحَيـاةُ مَعَـهُ أنْ تَتَجَمَّـدَ، إنَّما يَعودُ إلـى مـا يَسْـتَمِرُّ البَعْضُ فـي مُراكَمَتِهِ مِـنْ مَعارِفَ إنْسـانِيَّةٍ لا يُبْغـى مـن وَرائِهـا النَّفْـعُ والرِّبْح.

إنَّ مَجّانِيَّـةَ هـذا الجَهْـدِ، ومـا يُنْسَـبُ إلَيْـهِ مِـنْ نُفـولٍ، هـي مـا يُمْكِـنُ أنْ يَحَوِّلَهُ إلى سِـلاحٍ ماضٍ تَـتَصَدّى بِـهِ البَشَـرِيَّةُ لِوَسْـواسِ الهَمَجيَّـةِ، بَلْ أنْ يُحَوِّلَـهُ إلـى صَوْمَعَةٍ يُحْفَـظُ فيها ما يُحْكَـمُ عَلَيْهِ، ظُلْمًـا، بالخُمولِ والنِّسـيان.

«لَسْتُ مَوْهوبًا بِمواهِبَ خاصَّةٍ؛
كُلُّ ما في الأمْرِ أنَّني فُضولِيٌّ
إلى أبْعَدِ الحُدود...».

ألبرت آينشتاين

II

الجامِعَةُ بِوَصْفِها مُؤَسَّسَةً تِجارِيَّةً والطّالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا

في انْسِحابِ الدَّوْلَةِ
مِنْ قِطاعَيِّ التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمِيّ

قَبْلَ أنْ أمْضيَ قُدُمًا، وأنْ أقْتَرِحَ على قُرّاءِ بيانِيَ هذا مُطالَعَةَ بَعْضِ النُّصوصِ المَناراتِ ذاتِ الصِّلَةِ بِمَوْضوعِنا، لا أرى ليَ بُدًّا مِنَ التَّوَقُّفِ وَقَفاتٍ عَجْلى عِنْدَ المُتَرَتِّباتِ الكارِثِيَّةِ لِغَلَبَةِ المَنْطِقِ الرِّبْحِيِّ في قِطاعِ التَّعْليم.

لوَقْتٍ قَريبٍ خلا انكَبَّتِ الأُسْتاذَةُ الجامِعِيَّةُ القَديرَةُ مارثا نوسباوم(*) على فَحْصِ وُجوهِ هذا التَّراجُعِ المُطَّرِد فَتَبَيَّنَ لَها أنَّ التَّعْديلاتِ التي

(*) تُعَدُّ مارتا نوسباوم، (مواليدِ نيويورك، ١٩٤٧)، من صُفْوَةِ فلاسِفَةِ جِيلِها ومُفَكِّريه. عِلاوَةً على تَدْريسِها الفَلْسَفَةَ السِّياسِيَّةَ والأخْلاقَ والإلَهِيّاتِ في عَدَدٍ مِنْ كُبْرَياتِ الجامِعاتِ الأميركيَّةِ. لنوسباوم عَدَدٌ وافِرٌ مِنَ المُؤَلَّفاتِ يُعَبِّرُ عَنْ تَنَوُّعِ اهْتِماماتِها.

أُدْخِلَتْ خِلالَ العَقْدِ المُنْصَرِم على المَناهِجِ التَّرْبَوِيَّةِ في المُعْظَمِ مِنَ الدُّوَلِ الأوروبِيَّةِ تَحْتَ عُنوانِ إصْلاحِها، (مَعَ اسْتِثْناءٍ لا يُسْتَهانُ بِهِ هو ألمانيا)، كانَ لها، وكانَ للتَّخْفيضاتِ التي رافَقَتْها في ميزانيّاتِ التَّعْليمِ، أسْوَأُ الأثَرِ على المُؤَسَّساتِ التَّعْليميَّةِ مِنْ مَدارِسَ وجامِعات؛ (ولَعَلَّ إيطاليا أنْ تَكونَ النَّموذَجَ الأبْرَزَ على هذا التَّدَهْور). أمّا العُنوانُ الأبْرَزُ لهذِهِ الإصْلاحاتِ فكانَ الانْسِحابَ الاقْتِصادِيَّ التَّدْريجيَّ، وإنَّما المُقْلِقُ، للدَّوْلَةِ مِنْ قِطاعَيِّ التَّعْليمِ والبَحْثِ العِلْمي.

في مُوازاةِ هذا المَسارِ، بَدَأَ مَسارٌ آخَرُ قِوامُهُ تَحْويلُ الجامعاتِ إلى مَدارِس. والحَقُّ أنَّ هذا التَّحْويلَ هو أشْبَهُ بانْقِلابٍ لنْ نَخْلوَ في السَّنَواتِ المُقْبِلَةِ مِنْ تَلَمُّسِ آثارِهِ سَواءٌ على مُسْتَوى الدَّوْرِ الذي يَضْطَلِعُ بِهِ الجِهازُ التَّعْليميُّ أو على مُسْتَوى نَوعيَّةِ التَّعْليمِ بِحَدِّ ذاتِها. فَواقِعُ الحالِ أنَّ المُعْظَمَ مِنْ دُوَلِ أوروبّا

تَنْحو إلى خَفْضِ مُسْتَوى اشْتِراطاتِها مِنَ المُلْتَحِقينَ/المُلْتَحِقاتِ بالتَّعْليمِ الجامِعِيِّ بِما يُتيحُ لِهؤلاءِ اجْتيازَ الامْتِحاناتِ بِيُسْرٍ وسُهولَةٍ وذلكَ على الأمَلِ المَوْهومِ بأنَّ يُسْعِفَ هذا الخَفْضُ المُتَعَثِّرينَ مِنْهُمْ والمُتَعَثِّرات.

فَبُغْيَةُ تَخْريجِ هَؤلاءِ الطُّلّابِ ضِمْنَ الآجالِ التي تُحَدِّدُها القَوانينُ، وبُغْيَةَ «تَيْسيرِ» العَمَلِيَّةِ التَّعْليميَّةِ، خُفِّضَ حَجْمُ الجَهْدِ والتَّضْحِيَةِ المَطْلوبَيْنِ مِنْ هَؤلاءِ الطُّلّابِ، واخْتُزِلَتْ بَرامِجُ التَّدْريسِ إلى أقْصى الحُدودِ، وحُوِّلَتِ الدُّروسُ إلى مُباريات تَفاعُلِيَّةٍ سَخيفَةٍ لُحْمَتُها الخِطابُ البَصَرِيُّ وَسَداها ـ وذلِكَ بالإكْثارِ مِنْ اسْتِعْمالِ الصُّوَرِ ـــ وأُزْرِيَ بالامْتِحانِ بأنْ تَحَوَّلَ إلى مُجَرَّدِ اخْتِيارٍ بَيْنَ مَجْموعَةٍ مِنَ الجَوابات!

ولكنْ حَبَّذا وَقَفَ الأمْرُ عِنْدَ هذا الحَدّ! ففي إيطاليا حَيْثُ يَتَّخِذُ التَّعَثُّرُ بَيْنَ الطُّلّابِ الجامِعِيِّينَ أبْعادًا مُقْلِقَةً، تُكافِأُ الجامِعاتُ التي تَنْجَحُ في تَخْريجِ طُلّابِها ضِمْنَ الآجالِ

المَنْصوصِ عَلَيْها بِمِنَحٍ ماليَّةٍ، أمّا تِلْكَ التي تُخْفِقُ في ذلك فتُعاقَبُ وَتُغَرَّم.

فعلى افْتِراضِ أنَّ ألْفَ طالِبٍ وطالِبَةٍ تَسَجَّلوا سَنَةَ كذا في الجامِعَةِ الفُلانيَّةِ، لا بُدَّ، في غُضونِ ثَلاثِ سَنَواتٍ، أنْ يُخَرَّجَ هؤلاءِ الطُلّابُ والطّالِبات. ولا عَيْبَ في هذا المَطْمَحِ لَوْ أنَّ المُشَرِّعينَ وَضَعوا نَصْبَ أعْيُنِهِم جَوْدَةَ التَّعْليمِ الذي يُرادُ أنْ يُزَوَّدَ بِهِ هَؤلاءِ الطُلّابُ والطّالباتُ لا كَمَيَّتَهُ فَحَسْب. ولكنْ، وبِما أنَّ أحْدًا لا يَمْلِكُ أنْ يُؤَكِّدَ جَوْدَةَ التَّعْليمِ هذا، وأنْ يَكيلَ المَهاراتِ الحَقيقيَّةَ التي يَكْتَسِبُها هؤلاءِ الطَّلَبَةُ والطّالباتُ، لا مَفَرَّ مِنَ التَّسْليمِ بأنَّ هذِهِ الآلِيَّةَ لَيْسَتْ سِوى حيلَةٍ لِتَحْفيزِ المُؤَسَّساتِ الجامِعِيَّةِ النّاشِدَةِ دَوْمًا مَزيدًا مِنَ التَّمْويلِ، ولا سِيَّما أنَّ خَفْضَ الميزانيّاتِ يُؤَدّي، حُكْمًا، إلى اشْتِدادِ المُنافَسَةِ بَيْنَ المُؤَسَّساتِ الجامِعِيَّةِ على المَوارِدِ الماليَّةِ التي تُخَصِّصُها الدُّوَلُ لهذا القِطاع. كذلكَ يَنْتَهي الأمْرُ بأنْ تَنْقَلِبَ هذِهِ

المُؤَسَّساتُ إلى مَزارِعَ لِتَخْريجِ الجامِعِيِّين لا أكْثَرَ ولا أقَلّ!

الطالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا

في مُحاضَرَةٍ مَدارُها على انْحِطاطِ المُؤَسَّسَةِ الجامِعِيَّةِ بَيَّنَ سيمون ليس(*) أنَّ بَعْضَ طُلّابِ كُلِّيّاتِ الجامِعاتِ في كندا باتوا يُعامَلونَ مُعامَلَةَ الزَّبائِنِ بالمَعْنى الحَرْفِيِّ للكَلِمَة.

ولا يُظَنَّنَّ أنَّ في هذا التَّشْخيصِ مُبالَغَة. فَمَنْ يُطالِعْ بَعْضَ التَّحْقيقاتِ التي وُضِعَتْ عن جامِعَةِ هارڤرد، وهيَ ما هيَ بَيْنَ مُؤَسَّساتِ التَّعْليمِ الجامِعِيِّ في العالَمِ، لا يَمْلِكُ إلّا التَّسْليمَ بِصِدْقِ هذا التَّشْخيصِ وواقِعِيَّتِه.

عَلَيك مَثَلًا بِما يَقولُهُ إيمانويل جافلان(**) في

(*) سيمون ليس، (١٩٣٥ ـ ٢٠١٤)، واسْمُهُ الحَقيقِيُّ پيار ريكمانز، كاتِبٌ وناقِدٌ أدبي ومُتَرْجِمٌ، وعالِمُ صينيّات وأسْتاذٌ جامِعِيٌّ بلجيكيٌّ أسترالي.

(**) إيمانويل جافلان: مُفَكِّرٌ وكاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ مَواليدِ ١٩٦٣. في سيرَتِهِ أيْضًا سَنواتٌ مِنَ الخِدْمَةِ في السِّلْكِ الدّيبلوماسيِّ قادَتْهُ إلى أنْغولا والبرازيل.

العَلاقَةِ الزَّبائِنِيَّةِ بَيْنَ طُلّابِ هذِهِ الجامِعَةِ العَريقَةِ وأساتِذَتِها في مَقالَةٍ نَشَرَتْها **لو موند** الفَرَنْسِيَّةُ في ٢٨ أيار (مايو) ٢٠١٢:

«بِما أنَّ الطالِبَ المُلْتَحِقَ بهارڤرد يَدْفَعُ الأثْمانَ الباهِظَةَ لِقاءَ الْتِحاقِهِ بهذِهِ المُؤَسَّسَةِ، فهو لا يَتَوَقَّعُ مِنْ أساتِذَتِهِ التَّمَكُّنَ التَّعْليمِيَّ والكَفاءَةَ التَّعْليميَّةَ فَحَسْبُ، وإنَّما الطَّاعَةُ أيْضًا... أَلَيْسَ أنَّ الزَّبونَ دائِمًا على حَقٍّ؟».

أمّا تَفْسيرُ ذلك تَفْسيرًا اقْتِصاديًّا فَبَسيطٌ للغايَة: يَبْلُغُ حَجْمُ المَبالِغِ التي يَسْتَدينُها الطُلّابُ الأميركيّونَ لِتَسْديدِ نَفَقاتِ دِراسَتِهِم الجامِعِيَّةِ حوالى ألْفِ مِليارِ دولار. مِنْ ثَمَّ فإنَّ هَؤلاءِ الطُلّابَ يَلْتَحِقونَ بالجامِعاتِ وَهُمُ أقَلُّ سَعْيًا إلى المَعْرِفَةِ مِنْهُم إلى تَحْصيلِ الفوائِدِ الماليَّةِ التي يُمْكِنُ أن يَعودَ بها عَلَيْهِم ما اسْتَثْمَروهُ خِلالَ الْتِحاقِهِم بالجامِعَة.

إنَّ ما تَدُرُّهُ رُسومُ التَّسْجيلِ على خَزائِنِ الجامِعاتِ يُمَثِّلُ كُتْلَةً لا يُسْتَهانُ بِها مِنْ ميزانيَّةِ كُلِّ جامِعَةٍ

وهـذِهِ المُلاحَظَـةُ تَصْـدُقُ على الجامِعـاتِ الخاصَّةِ كمـا علـى الجامِعـاتِ الحُكوميَّـة. هـذا عِلْمًـا أنَّ الجامِعـاتِ لَيْسَـتْ فـي الخِيَـرَةِ مِـنْ أمْرِهـا فـي ضَـرورةِ السَّـعْي إلـى اجْتِـذابِ الطُـلّابِ والطّالباتِ بِشَـتّى السُّـبُلِ والوَسـائِلِ المُمْكِنَـةِ تَمامًـا شَـأْنَ الحَمَـلاتِ الدِّعائِيَّـةِ التـي يُـرادُ مِنْهـا التَّرْويـجُ لأيِّ مُنْتَـجٍ اسْـتِهلاكِيّ. وهكـذا يَنْتَهي الأمْـرُ بالجامِعاتِ إلـى مُؤَسَّسـاتٍ تُدَلِّـلُ علـى شَـهاداتِها مُرَكِّـزَةً فـي تَدْليلِهـا هـذا، بِشَـكْلٍ خـاصٍّ، علـى أنَّهـا تُوَفِّـرُ لِزَبائِنِهـا مِـنَ الطُـلّابِ بَضائِـعَ عِلْمِيَّـةً واخْتِصاصاتٍ يَسْـهُلُ تَسْـييلُها فـي سـوقِ العَمَـلِ، وأنَّ العائِدَ مِنْ وَرائِهـا مَضْمـونٌ أو شِـبْهُ مَضْمـونٍ بأقْصـى سُـرْعَةٍ مُمْكِنَة .

الجامِعاتُ كَمَشاريعَ تِجارِيَّةٍ والأساتِذَةُ كَمُوَظَّفين إداريِّين

بِنـاءً علـى مـا تَقَـدَّمَ لا مُبالَغَـةَ قَـطُّ فـي القَـوْلِ بأنَّ المَـدارِسَ والجامِعـاتِ تَحَوَّلَـتْ شَـيْئًا فَشَـيْئًا إلـى

مَشاريعَ تِجارِيَّة. ولا ما يُقالُ في ذلكَ لولا ما يُؤَدّي إلَيْهِ هذا التَّحَوُّلُ مِنْ تَبْذيرٍ في الميزانيّاتِ العامَّةِ ومِنْ شَطَطٍ في إدارَةِ هذِهِ الميزانيّات. ضِفْ إلى ما تَقَدَّمَ أنَّ تَحَوُّلَ الجامِعاتِ إلى مَشاريعَ تِجارِيَّةٍ يُؤَدّي اسْتِطرادًا إلى تَحَوُّلٍ في وَظيفَةِ مُدَراءِ الجامِعاتِ وعُمَدائها.

فالمُديرُ، أوِ العَميدُ، في مُؤَسَّسَةٍ جامِعِيَّةٍ هَمُّها التِّجارَةُ، إنَّما يُوْصَفُ بالنّاجِحِ بِمِقْدارِ ما يَتَيَسَّرُ لَهُ أنْ يَضُخَّ مُتَخَرِّجينَ جُدُدًا في شَرايينِ سوقِ العَمَلِ لا أكْثَرَ ولا أقلّ. وهكذا يَتَخَلّى هَؤلاءِ الأساتِذَةُ والنُّظّارُ عَنْ وَظيفَتِهِم التَّرْبويَّةِ وَيَتَقَمَّصونَ قَميصَ رِجالِ أعْمالٍ هَمُّهُمُ الحِرْصُ على ميزانِيّاتِ المُؤَسَّساتِ/المَشاريعِ التِّجارِيَّةِ التي يُديرونَها.

وإذْ يَتَحَوَّلُ المُديرُ إلى رَجُلِ أعْمالٍ فلا عَجَبَ بأنْ يَتَحَوَّلَ الأساتِذَةُ إلى بيروقراطيِّينَ مُطيعينَ في خِدْمَةِ رَبِّ عَمَلِهِم. وَعِوَضَ أنْ يَنْصَرِفَ الواحِدُ مِنْهُم إلى ما يُنْتَظَرُ مِنْ أسْتاذٍ جامعِيٍّ أنْ يَنْصَرِفَ إلَيْهِ، تَراهُم يَقْضونَ السّاعاتِ الطِّوالَ في

ضَبْطِ المَلَفّاتِ الإداريَّةِ، وفي تَدْقيقِ الحِساباتِ، وفي وَضْعِ تَقاريرَ تُوَظَّفُ لاحِقًا في إحْصائِيّاتٍ مَشْكوكٍ بالجَدْوى مِنْها، وفي مُراجَعَةِ ميزانيّاتٍ تَتَقَلَّصُ مِنْ فَصْلٍ إلى آخَرَ، وفي مَلْءِ اسْتِماراتٍ لَمْ يُنْزَلْ بِها مِنْ سُلْطانٍ، وفي كِتابَةِ مَشاريعَ يُؤَمَّلُ أنْ تأتِيَ بِمِنَحٍ وإعاناتٍ، وفي تَأَوُّلِ تَعاميمَ وِزارِيَّةٍ غامِضَةٍ ومُتَناقِضَة.

يِنَصْرِفُ الأساتِذَةُ إلى كُلِّ هذِهِ المَهامِ، أمّا ما يَبْقى مِنْ وَقْتٍ، إنْ بَقِيَ، فَيَقْضونَهُ بَيْنَ الاجْتِماعاتِ المُتلاحِقَةِ، (اجْتِماعاتِ مَجْلِسِ الإدارَةِ، مَجْلِسِ الكُلِّيَّةِ، مَجْلِسِ القِسْم)، فَتَمْضي السَّنَةُ الجامِعِيَّةُ ولا يَبْقى إلّا انْتِظارُ السَّنةِ التّالِيَة!

نَعَم، آخِرُ هَمِّ الجامِعاتِ عِنْدَما تَتَحَوَّلُ إلى مَشاريعَ تِجارِيَّةٍ جَوْدَةُ التَّعْليمِ والبَحْثُ العِلْمِيّ. وإنَّما تَأْخُذُ هذِهِ المُلاحَظَةُ مَداها، وتَتَبَيَّنُ فَداحَتُها، متى ما ذَكَّرَ الواحِدُ مِنّا نَفْسَهُ أنَّ الأُسْتاذَ الجامِعِيَّ هو، تَعْريفًا، طالِبُ عِلْمٍ بلا كَلالَةٍ ولا انْقِطاع، وأنَّ الأُسْتاذَ هذا، متى ما تَعَذَّرَ عَلَيْهِ أنْ

يُعِدَّ دَرْسَهُ بالشَّكْلِ المُناسِبِ لا يُؤَدّي المُتَوَقَّعَ مِنْه كما يَنْبغي أنْ يكون. مِنْ هُنا، فإنَّ ما هو حاصِلٌ مِنْ طَلاقٍ بَيْنَ التَّدْريسِ وبَيْنَ البَحْثِ العِلْمِيِّ يَحْكُمُ على حِصَصِ التَّدْريسِ بأنْ تَتَناسَخَ في تَكرارٍ سَطْحِيٍّ لا يُفيدُ ولا يُسْتَفادُ مِنْه.

خُلاصَةُ القَوْلِ إنَّهُ مِنَ المُسْتَحيلِ أنْ تُدَبَّرَ المَدارِسُ والجامِعاتُ، وأن تُدارَ، كَما المَشاريعُ التِّجارِيَّةُ الرِّبْحِيَّة!

على الضِّدِّ مِمّا تُبَشِّرُ بِهِ قَوانينُ السّوقِ فإنَّ جَوْهَرَ الثَّقافَةِ هو «المَجّانيَّة». هذا ما يُذَكِّرُنا بِهِ النَّظَرُ في التّاريخِ العَريقِ للجامِعاتِ والمُؤَسَّساتِ العِلْمِيَّةِ الأوروبيَّةِ مِنْ مِثْلِ الكوليج دو فرانس(*).

إنَّ وَظيفَةَ هذِهِ المُؤَسَّساتِ على ما يُبَصِّرُنا

(*) الكوليج دو فرانس: مَعْهَدٌ فَرَنْسِيٌّ كانَ إنْشاؤُهُ عامَ ١٥٣٠ على يَدِ المَلِكِ فرانسوا الأوّل (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) يُعْنى بالبَحْثِ العِلْمِيِّ والتَّعْليم العالي. شِعارُ هذا المَعْهَدِ «نُعَلِّمُ كُلَّ شَيْء»، والتَّعْليمُ فيهِ تَشْريفٌ للمُبَرَّزينَ مِنَ العُلَماءِ، أمّا حُضورُ الدُّروسِ فَمُتاحٌ، إلا اسْتِثْناءً، بالمَجّانِ، للجَميع.

النَّظَرُ في ذلكَ التّاريخِ هي اكْتِسابُ المَعارِفِ وتَطْويرُها في مَنْأى وفي مَعْزِلٍ مِنْ أيِّ إمْلاءٍ نَفْعِيٍّ أوْ عَمَلِيّ. فَبِفَضْلِ هذا النَّمَطِ مِنَ الاكْتِسابِ، يَزْدادُ واحِدُنا نُضْجًا وَقُدْرَةً على تَمْييزِ الأُمورِ واسْتِطرادًا على الاسْتِقلالِ بِرَأْيِهِ فيها. وكما يُسْتَفادُ مِنَ النَّظَرِ في ذَلِكَ التّاريخِ أيْضًا وأيْضًا، فإنَّ مِراسَ النّافِلِ والمَجّانِيِّ وكُلَّ ما يَتَعَذَّرُ قِياسُهُ بالمَقاييسِ السّائِرَةِ لا يَلْبَثُ أنْ يُؤْتِيَ، على المدى الطَّويلِ، ما لا يُتَوَقَّعُ مِنْ ثِمارٍ ومِنْ مَرابِح.

بِطبيعَةِ الحالِ، لَيْسَ القَصْدُ مِمّا تَقَدَّمَ الازْدِراءُ بالتَّدْريبِ المِهَنِيِّ بِوَصْفِهِ أحَدَ أهْدافِ التَّعْليمِ والدِّراسَةِ الجامِعِيَّة. لَيْسَ كذلكَ بَلِ الضِّدُّ مِنْه: مَنْ ذا يَجْرؤُ على القَوْلِ مَثَلًا بأنَّ غايَةَ التَّعْليمِ القُصْوى والوَحيدَةَ هي إعْدادُ أطِبّاءَ مَهَرَةٍ ومُهَنْدسينَ حاذِقينَ ومُحامينَ مُفَوَّهين؟ إنَّ تَوْجيهَ التَّعْليمِ هذا المُوَجَّهَ المِهَنِيَّ يُسْقِطُ عَنْهُ، عَنِ التَّعْليمِ، بُعْدَهُ الكُلِّيَّ الإنْسانيّ. فما

مِـنْ مِهْنَـةٍ يُمْكِـنُ المَـرْءُ أنْ يَمْتَهِنَهـا لا تَقْتَضـي مِـنْ مُمْتَهِنِهـا، لِيُحْسِـنَ القِيـامَ بِهـا علـى الوَجْـهِ الأكْمَـل، ألّا يُخْضِـعَ مَهاراتِـهِ الفَنِّيَّـةَ فيهـا، لِدَفْتَرِ شُـروطٍ أخْلاقِـيٍّ ثَقافِـيٍّ يَتَجـاوَزُ حُـدودَ هـذا الاخْتِصـاصِ أو ذاكَ. إنَّ إنْـزالَ دَفْتَـرِ الشُّـروطِ هـذا مَنْزِلَـةَ الضَـوْءِ مِـنَ المَهـاراتِ العِلْمِيَّـةِ هـو مـا يُمكِـنُ أنْ يُحَفِّـزَ الطُـلّابَ علـى تَوْسـيعِ مَدارِكِهِـم بِحُرِّيَّـةٍ، وعلـى إطْـلاقِ العِنـانِ لِداعِيَةِ الفُضـولِ لَدَيْهِـم.

بَـلْ لَنـا أنْ نَذْهَبَ إلى أبْعَدَ مِمّـا تَقَدَّم: إنَّ البُعْدَ التَّرْبَـوِيَّ المُنْقَطِـعَ كُلَّ الانْقِطـاعِ عَـنِ المَـآرِبِ النَّفْعِيَّـةِ هـوَ الشَّـرْطُ المَشْـروطُ، الآنَ، وفـي المُسْـتَقْبَلِ، لِكَـيْ يَعْمُـرَ المُجْتَمَـعُ بِمُواطنيـنَ يَأْنَسـونَ مِـنْ أنْفُسِـهِم المَسـؤولِيَّةَ بِصِفَتِهِـم هـذِهِ، وبِصِفَتِهِـم هـذِهِ يَطَّرِحـونَ عِنْـدَ الضَّـرورَةِ أنانِيّاتِهِـم مُقَدِّميـنَ عَلَيْهـا المَصْلَحَـةَ العامَّـةَ ومُوجِـبَ التَّضامُـنِ الاجْتِماعِـيِّ والإنْسـانيِّ، رافعيـنَ شِـعارَ التَّسـامُحِ ومُسْتَمْسـكينَ بالحُرِّيَّـةِ

وَبِضَـرورةِ المُحافَظَـةِ على الطَّبيعَـةِ والدِّفاعِ عِنِ العَدالَـة.

توكڤيل: عن الجَمالاتِ المَيْسورَةِ ومَخاطِرِ ديمقراطيّات السّوقِ

نَديـنُ لِتوكـڤيل(*)، فـي مـا نَديـنُ لَـهُ، فـي مُؤَلَّفِـهِ الشَّـهيرِ **الدّيمقراطيَّـة فـي أميـركا**، بِصَفَحـاتٍ مُنيـرَةٍ عَـنِ المَخاطِـرِ التـي تُحْـدِق بـ«الدّيمُقراطِيّـاتِ التِّجارِيَّـةِ»، (أو «ديمقراطيّـات السّـوقِ»)، مِنْ قَبيـلِ الولاياتِ المُتَّحِـدَةِ الأميركيَّة.

يَعْـرِضُ توكـڤيل فـي هـذِهِ الصَّفَحـاتِ لِحَيـاةِ الأميركيِّيـنَ الاجْتِماعيَّـةِ والسِّياسِـيَّةِ راصِـدًا مـا يَحـوطُ بِمُجْتَمَـعٍ دأبُـهُ السَّـعْيُ إلـى الرِّبْـحِ مِـنْ مَخاطِـر. يَـقول:

«لـدى الكَـثيرينَ مِنْهُـم نُـزوعٌ أنانِـيٌّ، تُحَرِّكُـهُ روحُ الإتْجـارِ والصِّناعَـةِ، إلى مُكْـتَشَفاتِ العَقْلِ البَشَـرِيّ؛

(*) ألكسـيس دو توكـڤيل، (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩)، مُـؤَرِّخٌ فَرَنْسِـيٌّ مِـنْ رُوّادِ المُقارَبَـةِ التّاريخِيَّـةِ لِعِلْـمِ السِّياسَـة.

على أنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الحِرْصِ على التَّمْييزِ بَيْنَ هذا النُّزوعِ وبَيْنَ الهوى المُنَزَّهِ الذي تَرى مِنْ خِلالِهِ قِلَّةٌ قَليلةٌ هذِهِ المُكْتَشَفات. نَحْنُ، إذًا، بَيْنَ اثْنَيْن: شَغَفٌ بِتَوْظيفِ المَعارِفِ، وتَوْقٌ إلى المَعارِفِ آخِرُ هَمِّهِ ما يُمكِنُ أنْ تُوَظَّفَ هذِهِ المَعارِفُ في سَبيلِه».

ويُضيفُ توكڤيل:

«إنَّ المَيْلَ إلى المُفيدِ والمُجْدي غالِبٌ على حُبِّ الجَمالِ بِسَبَبٍ مِنَ السَّعْي الحَثيثِ الذي يَسعاهُ كُلُّ أحَدٍ لِتَحْصيلِ المَزيدِ مِنَ الرَّفاهِيَة. وفي مُجْتَمَعٍ نَفْعِيٍّ مِنْ مِثْلِ هذا المُجْتَمَعِ يَنْتهي الأمْرُ بأنْ يَغْلِبَ على النّاسِ حُبُّ الجَمالاتِ المَيْسورَةِ المُتَناوَلِ التي لا تَقْتَضي حِيازَتُها كَبيرَ جَهْدٍ أو كَثيرَ وَقْت... إنَّهُم يُحِبّونَ الكُتُبَ السَّهْلَةَ الاقْتِناءِ، اليَسيرَةَ على القِراءَةِ التي لا يَتَطَلَّبُ الوقوفُ على مَعانيها تَبَحُّرًا في البَحْثِ أو اسْتِغْراقًا في التَّأَمُّل... ولا عَجَبَ مِمَّنْ يَذْهَبُ في التَّفْكيرِ هذا المَذْهَبَ أن يَتَراءَى لَهُ أنَّ أعْظَمَ فُتوحاتِ الذَّكاءِ البَشَرِيِّ هي تِلْكَ الفُتوحاتُ التي تُقَصِّرُ طَريقَ الوصولِ إلى الثَّرْوَةِ، وتِلْكَ الآلاتُ التي تَخْتَصِرُ ساعاتِ العَمَلِ، وتِلْكَ الأدَواتُ التي تُخَفِّضُ نَفَقاتِ الإنْتاجِ، وتِلْكَ المُكْتَشفاتُ التي تُدْني المُتَعَ وتُكَثِّرُها.

تَحْتَ هذِهِ العَناوينِ يَتَّصِلُ ما بَيْنَ الشُّعوبِ الدّيمقراطيَّةِ وبَيْنَ العُلومِ وتَحْتَ هذِهِ العَناوينِ يَكونُ فَهْمُها لها وتَوْفيرُها إيّاها.

مِنْ هذا التَّشْخيصِ يَنْتهي توكْقيل إلى ما يَعْتَبِرهُ خُلاصَةً مَنْطِقيَّة:

«في مُجْتَمَعٍ يَخْضَعُ لهذا النَّمَطِ مِنَ التَّنْظيمِ، لا غَرْوَ أن يُهْمِلَ النّاسُ الجانِبَ النَّظَرِيَّ مِنْ عَمَلِ العَقْل... [وهَكَذا،] ففي الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ لا تكادُ أنْ تَجِدَ مَنْ يقِفُ نَفْسَهُ على النَّظَرِيِّ المُجَرَّدِ مِنَ المعارِفِ الإنْسانِيَّة... ولَعَلَّ هذا الإعْراضَ عَنِ النَّظَرِيِّ والمُجَرَّدِ أنْ يَفْشوَ على ما أظُنُّ، وإنْ بِدَرَجاتٍ أقَلَّ، بَيْنَ سائِرِ الأُمَمِ الدّيمقراطيَّة».

وإذ يُلاحِظُ توكْقيلُ هذِهِ المُلاحَظَةَ، لا يَفوتُهُ أنْ يُحَذِّرَ مِمّا قَدْ يُؤَدّي إلَيْهِ الاحْتِفاءُ بالنّافِعِ المُجْدي والحَطُّ مِنَ الجَهْدِ الذِّهْنِيِّ المُجَرَّدِ مِنْ سُقوطٍ في هاوِياتِ الهَمَجِيَّة:

«وَمِنَ الشُّعوبِ مَنْ يَدَعِ الأنْوارَ التي يَسْتَنيرُ بِها تُنْتَزَعُ مِنْهُ، ومِنَ الشُّعوبِ مِنْ يُطفِئُ هذِهِ الأنْوارَ بِيَدَيْه».

بالطَّبْعِ، لَيْسَ توكـقيل مِـنَ السَّـذاجَةِ بِحَيْـثُ يُعَـوِّلُ علـى مُجَـرَّدِ الآدابِ والفُنـونِ للحَيْلولَـةِ دونَ أنْ يَتَصَحَّـرَ الفِكْـرُ ولكِـنَّهُ علـى قَناعَـةٍ بـأنَّ المَعـارِفَ المَجّانِيَّـةَ والمُنَزَّهَـةَ عَـنِ المَآرِبِ العَمَلِيَّـةِ «تُيَسِّـرُ لأُولَئِـكَ الذيـنَ يَكْـتَسِبونَها أنْ لا تَرْجَـحَ مِنْهُـمُ كِفَّـةُ العُيـوبِ التـي قَـدْ تُعيبُهُـم وذلـكَ بـأنَّ هذِهِ المَعارِفَ تُثَقِّـلُ الكِفَّةَ الأُخرى».

هرتسن: لا وَقْتَ لدى التُّجّار

رَغْـمَ أنَّ الكاتِـبَ الرّوسِـيَّ ألكسـندر هرتسـن(*) لا يَكُـنُّ كَبيـرَ إعْجـابٍ لتوكـقيل فهو يرى، شَـأْنَ هذا الأخيـر، بِتَوَجُّـسٍ، إلى فِئَـةِ التُّجّارِ مِنْ أبْنـاءِ عَصْرِهِ حَيْـثُ إنَّهُـم مُسْـتَغْرِقونَ فـي التِّجـارَةِ ولا شَـيْءَ سِـوى التِّجـارَةِ ومُتَعَلِّقاتِهـا («السِّـلَعُ، المُبـادَلاتُ والمُعاملاتُ وكُلُّ مـا يَقَـعُ تَحْـتَ حَـدِّ المِلْـكِ والحِيـازَة»).

(*) ألكسـندر هيرتسـن، (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، كاتِـبٌ ومُفَكِّرٌ روسِـيٌّ مِـنْ آبـاءِ الفِكْرِ الاشْتِراكي.

بِبَراعَةٍ يَصِفُ هرتسن في كتابه **الماضي والتَّأَمُّلات** دُستورَ هَؤلاءِ التُّجّارِ في الحَياةِ وفي السُّلوك:

«أَثْرِ، ضاعِفْ مَداخيلَكَ لِتَصيرَ كَثيرةً كَثْرَةَ حَبّاتِ الرَّمْلِ على الشّاطئِ، أَفِدْ بِلا قَيْدٍ أو شَرْطٍ أو رادِعٍ مِنْ ثَرْوَتِكَ ومِنْ جاهِكَ، ولكنْ حَذارِ أنْ تُلْحِقَ بِنَفْسِكَ الضُّرَّ؛ عِشْ هكذا مُتَنَعِّمًا بالمالِ والجاهِ فَتَتَقَدَّمَ بِكَ السِّنُّ الهُوَيْنا وتُزَوِّجَ أبناءَكَ وتُخَلِّفَ مِنْ بَعْدِكَ أطْيَبَ الذِّكرى».

مَنْ لا هَمَّ لَهُ سِوى أنْ يَبيعَ بِضاعَتَهُ مُدلِّلًا عَلَيْها بأنَّها الأفْضَلُ، وأنْ يَشْتري بَضائِعَ الآخَرين، بَعْدَ التَّبْخيسِ فيها، بِأقَلَّ مِنْ ثَمَنِها العادِلِ، يَنْتَهي الأمْرُ بِهِ إلى أنْ يُصَوِّرَ الأسْقَطَ مِنْ سَقَطِ المَتاعِ على أنَّهُ نادِرٌ عَزيزٌ، وأنْ يَجْعَلَ مِنْ رِعايَةِ المظاهِرِ هَمَّهُ الوَحيدَ الأوْحَدَ لا مُباليًا بِما قَدْ يُواريهِ هذا المَظْهَرُ مِنْ سَوْآتٍ وعَورات. وفي وَسَطٍ اجْتِماعِيٍّ يُعْلي مِنْ شَأْنِ المَظْهَرِ على حِسابِ «الكَرامَةِ الباطِنَةِ» لا ما يُدْهِشُ أنْ تَتَسَمّى الجَهالَةُ الجَهْلاءُ ثَقافَةً، وأن تُحْمَلَ على

هـذا المَحْمَلِ. وبِما أنَّهُ لا شَـأْنَ يُذْكَـرُ، في مُجْتَمَعٍ بورجـوازي، إلّا لِمـا لَـهُ مَحَـلٌّ واضِـحٌ مِـنَ التَّرْكيبَـةِ الاجْتِماعِيَّـةِ، ومِـنْ نِظـامِ الاسْـتِغلالِ الاجْتماعـيِّ القائِـم، فَلَيْـسِ لِلْعِلْـمِ والتَّعْليمِ في وَسَـطٍ مِنْ هذا القَبيـلِ مَحَـلٌّ فـي الصَّـدارَةِ أوْ شَـأْنٌ رَفيـع، وحَيْثُ الحَياةُ سِـباقٌ لاهِثٌ وَراءَ المالِ والثَّرْوَة، فالإنْسـانُ رَهيـنُ مـا بِحَوْزَتِـهِ مِـنْ ثَـرْوَةٍ ومـا يَمْلِك:

«[فـي وَسَـطٍ مِـنْ هذا القَبيـلِ]، إنَّما الحَياةُ لا شَـيْءَ سِـوى مُضارَبَةٍ في سـوقِ المَـزاد... كُلُّ مَرافِقِ الحَياةِ حَوانيـتُ ودَكاكيـنُ صَيْرَفَـةٍ: إداراتُ تَحْريـرِ الجَرائِدِ، أقْـلامُ الاقْتِراعِ، المجالِـسُ التَّمْثيليَّـة... وعَلَيْه قِسْ...».

جون هنري نيومان:
لا لِجامِعاتٍ هَمُّها الأوْحَدُ تَخريجُ ذَوي المِهَن

فـي عَـدَدٍ مِـنَ المَقـالاتِ ومِـنَ المُطالَعـاتِ التـي خَـصَّ بِهـا جـون هنـري نيومـان(*) الجامِعَـةَ، كَرَّسَ

(*) جـون هنـري نيومان، (١٨٠١ ـ ١٨٩٠)، شـاعِرٌ ولاهوتيٌّ بريطانيٌّ سِـجاليٌّ بَدَأ حياتَـهُ كاهِنًـا أنغليكانيًّا وخَتَمَها كردينـالًا كاثوليكيًّا.

هذا الشّاعِرُ واللّاهوتيُّ البريطانيُّ قَلَمَهُ للمُرافَعَةِ عَنِ القيمَةِ الكُلِّيَّةِ للتَّرْبِيَةِ والتَّعْليم. فَفِكْرَةُ الجامِعَةِ، على رَأْيِ نيومان، هي بالضِّدِّ مِمّا يُحاوِلُ البَعْضُ التَّرْويجَ لَهُ مِنْ أنَّ غايَةَ التَّعْليمِ الجامِعِيِّ هي المَنْفَعَةُ العَمَلِيَّةُ:

«يَذْهَبُ بَعْضُهُم، ولَيْسَ مِمَّنْ يُسْتَهانُ بِهِم، إلى أنَّ التَّرْبِيَةَ والتَّعْليمَ يَنْبغي أنْ يُقْتَصَرا على غاياتٍ مُعَيَّنَةٍ ومُحَدَّدَةٍ وأنْ يُؤَدِّيا إلى نَتائِجَ بِعَيْنِها قابِلَةٍ للكَيْل والقِياس. وَإنَّما يَتَأَسَّسُ هذا المَذْهَبُ على أنَّ لِكُلِّ ما في الوجودِ مِنْ بَشَرٍ أو مِنْ أشْياءَ ثَمَنًا. ويَسْتَتْبِعُ هذِهِ النَّظْرَةَ إلى الوجودِ وما فيهِ، أنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ تَسْتَدْعي عِوَضًا يُعَوِّضُها. هَذِهِ المُعادَلَةُ هي ما يَهْتدي بِهِ الدّاعونَ إلى أنْ تَكونَ التَّرْبِيَةُ، وأنْ يَكونَ التَّعْليمُ، مُوَجَّهَيْنِ وُجْهَةً نَفْعِيَّةً مُفيدة. هكذا، بِناءً على هذِهِ المُعادَلَةِ، رَفَعَ هَؤلاءِ الذين أقْصِدُ الفائِدَةَ والإفادَةَ والمُفيدَ إلى مَرْتَبَةِ الشِّعارِ والبَوْصِلَةِ. وبِما أنَّ طَلَبَ المُفيدِ دينُهُم ودَيْدَنُهُم فَهُمُ لا يَتَرَدَّدونَ عن رَفْعِ عَقائِرِهِم بالسُّؤالِ، مَثَلًا: "بِلِحاظِ الأكْلافِ، ما هي الجَدْوى الاقْتِصادِيَّةُ مِنَ الجامِعَة؟ وما هي القيمَةُ التِّجارِيَّةُ لِهَذِهِ السِّلْعَةِ المُسَمّاةِ عُلومٌ إنسانيَّة؟"».

لا مَعنى، على الإطْلاقِ، في عُرْفِ نيومان، لِزَعْمِ الزّاعمينَ بأنَّهُ لا جَدْوى مِنْ طَلَبِ أيّ شَيءٍ ما لَمْ تُثْبَتْ فائِدتُهُ (العَمَلِيَّةُ أو التِّجارِيَّةُ)، ولا مَعْنى، على الإطْلاقِ، لِزَعْمِ الزّاعمينَ بأنَّ «العُمْرَ قَصيرٌ ولا وَقْتَ لأنْ يُنْفِقَ المَرْءُ وَقْتَهُ في تُرَّهاتٍ لا طائِلَ مِنها سِوى ما تُبْرِقُهُ تَحْتَ الأنْظارِ مِنْ بُروقٍ خُلَّبِيَّة». كذلكَ لا مَعْنى على الإطْلاقِ للاسْتِنْتاجِ الذي مُفادهُ أنْ لا فائِدَةَ تُرَجّى مِنْ تَعْليمٍ لا يَسيرُ بالمُتَعَلِّمِ إلى امْتِهانِ مِهْنَةٍ أو اصْطِناعِ صَنْعَةٍ أو إلى اكْتِشافِ سِرٍّ مَكنونٍ مِنْ أسْرارِ الكَوْنِ المادِّيّ.

واقِفًا مَوْقِف الضِّدِّيَّةِ المُطْلَقَةِ مِنْ تَسْليعِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليمِ، ومِنْ ضَيِّهما تَحْتَ جَناحِ السّوقِ، يُؤكِّدُ نيومان على قيمَةِ العُلومِ والمَعارِفِ بِنَفْسِها وَلِنَفْسِها. بَيْدَ أنَّ تأكيدَهُ هذا، على ما يَقولُ هو نَفْسُهُ، لا يَعْني، في أيِّ حالٍ مِنَ الأحْوالِ أنَّ العِلْمَ غَيْرَ المُسَدَّدِ إلى غاياتٍ مِهَنِيَّةٍ، والمَعارِفَ المُكْتَسَبَةَ لِغَيْرِ

وَجْـهٍ عَمَلِـيٍّ لا تُفْضـي، لاحِقًـا، إلـى نَتائِـجَ أهْـلٌ لأنْ تُوْصَـفَ بـ«المُفيـدَة»:

«... ومِـنْ ثَـمَّ، أؤكِّـدُ أنَّ المَعْرِفَـةَ لَيْسَـتْ وَسـيلَةً يَتَوَسَّـلُ بِهـا المُتَوَسِّـلُ سَـبيلَ مَـأْرَبٍ آخَـر، لَيْسَـتْ تَوْطِئَـةٌ "طَبيعيَّـة" لاكْـتِسابِ مَهـارَةٍ تِقَنِيَّـةٍ؛ إنَّمـا المَعْرِفَـةُ غايَـةٌ يَبْغيهـا المَـرْءُ لِنَفْسِـها وَيَرْتـاحُ إلَيْهـا. وإذْ أقـولُ قَوْلـي هـذا لا أفْتَعِلُ أيَّما طِبـاقٍ أو تَناقُضٍ بَـلْ أصْـدَعُ بِحَقيقَـةٍ مَفْهومَـةٍ بِنَفْسِـها [...] أمّـا أنَّ اكْـتِسابَ المَعـارِفِ قَـدْ يَرْتَدُّ فَوائِدَ على المُكْـتَسِبِ وعلـى جُمْهـورِ الآخَريـنَ فهـذا مـا لا أنْفيـهِ ولا أُنْكِرُهُ ولا أرى مِـنْ سَـبيلٍ إلـى نَفْيـهِ أو إلـى إنْـكارِه».

بـكلامٍ آخـر: إنَّ اكْـتِسابَ المَعْرِفَـةِ، وإنْ لَـمْ يُـؤَدِّ غايَـةً بِعَيْنِهـا أوْ إلـى غايَـةٍ بِعَيْنِهـا يَنْتَهـي حُكْمًـا، بِفَضْـلِ مـا يُثَقِّفُهُ مِنْ ذِهْنِ المُكْـتَسِبِ إلـى فائِدَةٍ أو فوائِـدَ مـا:

«شَـأْنُ الكَـثيرِ مِـنَ الخَيْـرِ أنْ يَسْـتَجْلِبَ كثيـرًا مِـنَ الخَيْـر. ثُـمَّ هـاكَ مـا يَكـونُ مِـنَ الـذَّكاءِ بِنَفْسِـهِ متى أُحْسِـنَتْ رِعايَتُهُ وتَوَفَّرَتْ لأكْمامِهِ أسْـبابُ التَّفَتُّح. إنَّ المَعـارِفَ لَيْسَـتْ كَمـالاتٍ جَديـرَةً بالإجْـلالِ بِنَفْسِـها ولِنَفْسِـها فَحَسْـبُ، ولكِـنَّ نَفْعَها لِمَـنْ يُحْرِزُها، ولِمَنْ هُـمُ حَوْلَـهُ، لا يُقـاسُ ولا يُقَـدَّرُ لأنَّـهُ نَفْـعٌ يَشُـعُّ مِثْلَ

إشْـعاعِ الخَيْـرِ والفَضْـلِ، ولَيْـسَ بالنَّفْـعِ الآنِـيِّ الـذي تَنْتَهـي مَفاعيلُـهُ عِنْـدَ انْقِضـاءِ الحاجَةِ إلَيْـهِ أو بالنَّفْعِ التِّجـارِيِّ الـذي يُشْـرى ويُباع».

مِـنْ ثَـمَّ، وَبِصَـرْفِ النَّظَـرِ عمّا فـي كِتابـاتِ نيومان مِـنْ تأثيـراتٍ لاهوتيَّةٍ، وما يَعْتَمِـلُ فيها من تَوَتُّراتٍ ذاتِ نَفْحَـةٍ دينيَّـةٍ، فـإنَّ بَيْتَ القَصيدِ مِـنْ نَظَرِيّاتِهِ هـو اعْتِقـادُهُ الجـازِمُ بـأنَّ «ثَقافَـةَ الـذَّكاءِ» مُقَدَّمَةٌ علـى النَّجـاحِ المِهَنِـيِّ أو العَمَلِـيِّ، وبـأنَّ المُتَعَلِّـمَ قـادِرٌ على مـا لا يَقْـدِر عَلَيْـهِ الأُمِّيّ».

في العِنايَةِ بِلُغاتِ الماضي: جون لوك وأنتونيو غرامشي

قِلَّـةٌ، علـى الأرْجَـحِ، أولئـك الذيـن قـد تُخاطِبُهُـم الصَّفَحـاتُ المَشْـبوبَةُ المُتَوَتِّرَةُ التي كَـتَبَها نيومان فـي مَديـحِ العِلْـمِ وَتَقْريظِـه. ويَزيدُ مِنْ قِلَّـةِ هَؤلاءِ مـا يَفتُكُـهُ المَنْطِـقُ النَّفْعِـيُّ بِمَناهِـجِ التَّعْليـمِ فـي المَـدارِسِ والجامِعـاتِ. ومِـن آيـاتِ هـذا الفَتْـكِ المُتَوَحِّـشِ مـا يَسـيرُ مِـنْ سُـؤالٍ مُفـادُهُ الجَـدْوى

مِـنْ تَعْليـمِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ فـي عالَـمٍ انْدَثَـرَ فيهِ النّاطِقـونَ بِهـا، وأَوْلـى مِنْهـا حُجَّـةً، أنَّنـا نَعيشُ في عالِـمٍ لا جَـدْوى فيـهِ مِـنَ التَّمَكُّنِ مِـنْ أيٍّ من هذِهِ اللُّغـاتِ لِتَحْصيـلِ عَمَـلٍ أو وَظيفَـة.

مِـنَ الحُجَـجِ الواهِيَـةِ التي يَتَوسَّـلُ بها تُجّـارُ العِلْمِ للقَـدْحِ فـي تَعلُّـمِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ مـا يُدَوِّرونَـهُ مِـنْ أفْـكارٍ عَرَضَـتْ للـوك وحَمَـلَ لِواءَهـا عِلْمًـا أنَّ لـوك نَفْسَـهُ كانَ يَعْتَبِـرُ التَّمَكُّنَ مِـنَ اللّاتينيَّةِ مَتاعًا لا تَكْـتَمِلُ بِدونِـهِ تَرْبِيَـةُ «الجَنْتِلْمَن»:

«هـل أسْـخَرُ وأهْـزَلُ مِنْ أبٍ يُنْفِـقُ مِنْ مالِـهِ ويُضَيِّعُ مِـنْ وَقْـتِ ابْنِـهِ فـي تَعْليمِـهِ لُغَـةَ الرّومـانِ القُدمـاءِ فـي حيـنِ أنَّـهُ يُعِدُّ هـذا الابْـنَ لامْتِهـانِ التِّجـارَةِ، أي لامْتِهـانِ مِهْنَـةٍ لَنْ يَسْـتَفيدَ عِنْدَ مُمارَسَـتِها في شَـيْءٍ مِـنْ هَذِهِ اللُّغَةِ، بَلْ لَعَلَّ مُمارَسَـتَها أنْ تُنْسِـيَهُ القَليلَ الـذي تَعَلَّمَـهُ مِنْهـا عَنْوَةً علـى مَقاعِدِ الدِّراسَـة؟».

تَحْـتَ حُكْـمِ المَنْطِـقِ النَّفْعِـيِّ الـذي يَسْـتَعْلي علـى شـتّى مرافِـقِ حَياتِنـا، وَتَحْـتَ سَـطْوَتِهِ، لَقَـدْ يُصيبُنـا بالدَّهْشَـةِ لَرُبَّمـا أنْ نُطالِـعَ تِلْـكَ المُرافَعَـةَ المَحْمومَـةَ التـي خَطَّهـا، في السِّـجْنِ، سَـنَةَ ١٩٣٢،

قَلَـمُ أنطونيو غرامشـي(*) دِفاعًا عن تَعَلُّـمِ اليونانيَّةِ واللّاتينيَّـةِ والتَّمَكُّـنِ مِنْهُمـا.

«فـي المَدْرَسَـةِ، أيّامَـذاكَ، كانَـتْ دِراسَـةُ قواعِـدِ اللُّغَتَيْـنِ اللاّتينيَّـةِ واليونانيَّـةِ، ودِراسَـةُ آدابِهِمـا، كمـا دِراسَـةُ التّاريـخِ السِّياسِـيِّ اليونانـيِّ والرّومانـيِّ، رُكنًا تَرْبَوِيًّـا رَكينًـا باعْتِبارِ أنَّ المِثالَ الأعْلى الذي جَسَّـدَتْهُ كُلٌّ مِـنْ أثينـا ومِـنْ روما كانَ المِثـالَ الاجْتِماعِـيَّ الأعَـمَّ، وكانَ وَجْهًا أساسِـيًّا مِنْ وُجـوهِ الحَياةِ والثَّقافَةِ الوَطَنِيَّتَيْـن [...]. لَـمْ يَكُـنْ لهـذِهِ الدِّراسَـةِ غَـرَضٌ عَمَلِـيٌّ مِهَنِـيٌّ مُباشَـرٌ بَـلْ كانَـتْ هـذِهِ الدِّراسَـةُ، في الظّاهِـرِ علـى الأقَـلِّ، مُنَزَّهَـةً عَـنْ أيِّ غَـرَضٍ مِنْ هذا القَبيـلِ ومُوَجَّهَـةً وُجْهَةَ بِنـاءِ الشَّـخْصِيَّة الفَرْدِيَّةِ لِكُلِّ واحِـدٍ مِنّـا وَتَطويرِها. لَـمْ نَتَعَلَّـمِ اللّاتينيَّـةَ واليونانِيَّةَ للحَديـثِ بِهِمـا أوْ طَمَعًـا بِوَظيفَـة. كُنّـا نَتَعَلَّمُهُمـا لِنَتَعَرَّفَ مُباشَـرَةً بِحضارَةِ ذَيْنِكَ الشَّـعْبَيْنِ المُؤَسِّسَيْنِ افْتِراضِيًّـا للحَضـارَةِ الحَديثَـةِ. كُنّـا نَتَعَلَّمُهُمـا لِكَـيْ نَـكونَ مَـنْ نَحْـنُ، ولِكَـيْ نَعِـيَ أكْثَـرَ مَـنْ نَحْن».

رَغْـمَ جَمْهَـرةٍ مِـنَ الاحْتِجاجـاتِ علـى إهْمـالِ اللُّغـاتِ القَديمَـةِ، ومِـنَ المُصَنَّفـاتِ المَنْشـورَةِ فـي فَرَنْسـا وإيطاليـا الدّاعِيَـةِ إلـى إعـادَةِ النَّظَـرِ

(*) أنطونيو غرامشي، (١٨٩١ ـ ١٩٣٧)، فَيْلَسوفٌ ومُناضِلٌ ماركسيٌّ إيطالي.

بِواقِعِ الحالِ هذا والمُذَيَّلَةِ بِتَواقيعِ نُخْبَةٍ مِنَ الأساتِذَةِ المُسْتَمْسكينَ بِضَرورَةِ تَعليمِ هذِهِ اللُّغاتِ، ومِنَ المُثَقَّفينَ السّابِحينَ عَكْسَ التَّيّارِ، يَبْدو أنَّ قَطْعَ الطَّريقِ على تَفاقُمِ هذا الإهْمالِ باتَ أمْرًا مُسْتَحيلًا ولا سِيَّما أنَّ الطُّلّابَ يُثْنَوْنَ ثَنْيًا عَنِ الغَوْصِ في دِراساتٍ لا تُؤَدّي بِهِمْ عِنْدَ التَّخَرُّجِ إلى نَتائِجَ مَلْموسَةٍ وإلى أرْباحٍ فَوْرِيَّة. وهَكذا فَإنَّ الإعْراضَ المُطَّرِدَ عَنْ تَعْليمِ اليونانيَّةِ واللّاتينيَّةِ وعَنْ تَعَلُّمِهِما لَنْ يَلْبَثَ أنْ يَمْحَقَ مَحْقًا نِهائِيًّا ثَقافَةً مُسْتَقِرَّةً في أعْماقِ أعْماقِنا تَرْفِدُ ثَقافَتَنا بِروافِدَ شَتّى.

لَمْ يَنْتَظِرِ الرِّوائِيُّ الفَرَنْسِيُّ جوليان غراك(*) أنْ تَقَعَ الواقِعَةُ لِيُدْلِيَ بِدَلْوِهِ في هذِهِ المَسْأَلَة... ففي مَقالَةٍ بِتَوْقيعِهِ نَشَرَتْها جَريدةُ **لو موند** الفَرَنْسِيَّةُ في ٥ كانون الثّاني (يناير) مِنْ سَنَةِ ٢٠٠٠، نَدَّدَ غراك بِما يَشيعُ في وَسائِلِ الإعْلامِ مِنْ سَطْحِيَّةٍ وتَفاهَةٍ مَرَدُّهُما إلى اسْتِقْواءِ اللُّغَةِ

(*) جوليان غراك، (١٩١٠ ـ ٢٠٠٧)، كاتِبٌ فَرَنْسِيّ.

الإنْكليزيَّـةِ علـى حِسـابِ لُغـاتٍ يُظَـنُّ بِهـا قِلَّـةُ الجَـدْوى والنَّفْـعِ مِـنْ مِثْـلِ اللّاتينيَّـة:

«عِـلاوَةً علـى اللُّغَـةِ الأُمِّ، كانَ التَّلاميـذُ، فـي مـا مضـى يَتَعَلَّمـونَ لُغَـةً واحِـدَةً هـي اللّاتينيَّـة. وَلَـمْ تَكُـنِ الدّاعِيَـةُ إلـى تَعَلُّـمِ اللّاتينيَّـةِ تَعَلُّمَ لُغَـةٍ مَيْتَةٍ بِمِقْـدارِ مـا كانَ وَراءَ ذَلِـك، وَرَاءَ تَعَلُّمِها، اكْـتِسابُ مُنَبِّـهٍ ومُحَفِّزٍ فَنِّيٍّ لا مَثيلَ لَهُمـا باعْتِبارِ أنَّ اللّاتينيَّةَ هـذِهِ لُغَـةٌ مُقَطَّـرَةٌ بِفَضْـلِ مـا كُـتِبَ بِهـا مِـنْ آثارٍ، وأنَّهـا، بالتّالـي، ميـزانُ ذائِقَـةٍ لا مُجَـرَّدَ لُغَـة. أمّـا اليَـوْمَ فَهُـم يَتَعَلَّمـونَ الإنْكليزِيَّـةَ بِوَصْفِهـا عامِيَّـةً كَوْنِيَّـةً والطَّريـقَ الأخْصَـرَ إلـى التَّواصُلِ السَّـطْحِي. بَـلْ قُـلْ إنَّ الإنْكليزِيَّـةَ التـي يَتَعَلَّمُها التَّلاميـذُ اليَوْمَ هـي أشْـبَهُ بِمِفْتـاحٍ يَفُـكُّ أقْفـالًا كَثيرةً ولكـنْ حَذارِ مِـنَ الظَّـنِّ بِهـذا المِفْتـاحِ خَيْـرًا فهـو لا يَفُـكُّ قِفْـلًا ويَفْتَـحُ بابًـا إلّا لِقـاءَ إغْـلاقِ قِفْـلٍ وإغْـلاقِ أبْـواب».

وإذا كانَ مِـنْ عَواقِـبِ هـذِهِ النَّزْعَـةِ إلـى إهْمـالِ اللّاتينيَّـةِ واليونانيَّـةِ ألّا يَتَجـاوَزَ عَـدَدُ الطُّلّابِ المُسَـجَّلينَ لِتَعَلُّـمِ هاتَيْـنِ اللُّغَتَيْـنِ أصابِـعَ اليَـدِ، فـإنَّ الحَـلَّ المُقْتَـرَحَ لِتَـدارُكِ كُلْفَـةِ تَخْصيـصِ أسـاتِذَةٍ لِتَعْليمِهِمـا فـي غايَـةِ البَسـاطَة: إلْغـاءُ

هاتَيْـنِ اللُّغَتَيْـنِ وسِـواهُما كالسَّنْسِـكريتيَّةِ مِـنَ المَناهِـج!

بَـلْ إنَّ الأمْـرَ لا يَقِـفُ عِنْـدَ هـذا الحَـدّ. ففـي بَعْـضِ الجامِعـاتِ يَسـودُ تَوجُّـهٌ إلـى شَـطْبِ فِقْـهِ اللُّغَـةِ، (الفيلولوجيـا)، وعِلْـمِ النُّصـوصِ القَديمَـةِ، (الپاليوغرافيـا)، مِـنَ المَناهِج. وَمُـؤَدّى هذا التَّوَجُّهِ أنْ يَنْتَهِـيَ الأمْـرُ عِنْـدَ تَقاعُـدِ الجيـلِ الحاضِـرِ مِـنَ الفيلولوجِيِّيـن والپاليوغرافيِّينَ إلـى إقْفالِ عَدَدٍ مِنَ المَكْـتَباتِ ومِنَ المَتاحِفِ، بَـلْ إلى وَقْفِ عَدَدٍ مِنْ بَرامِـجِ التَّنْقيـبِ عَنِ الآثـارِ وَتَحْقيـقِ المَخْطوطاتِ والوَثائِـق. وجاهِـلٌ أو أحْمَـقُ مَـنْ يُطَفِّـفُ مِـنْ عواقِـبِ هـذا التَّوَجُّـهِ ومِـنْ مُتَرَتِّباتِـهِ العَمَليَّةِ على الدّيمقراطيَّـةِ ــ ونَديـنُ لإيـف بونفـوا(*) بِشَـرْحٍ وافٍ عَـنْ هـذا الوَجْـهِ مِـنْ وُجـوهِ الخَطَر ــ وعلى الحُرِّيّـاتِ ــ ونَديـنُ لجورجيـو بَسْـكوالي(**) بِبَيانِ هـذا الوَجْـهِ الآخَـرِ مِـنْ وُجوهِ الخَطَـرِ حَيْـثُ يَعْتَبِرُ

(*) إيڤ بونفوا، (١٩٢٣ ـ ٢٠١٦)، شاعرٌ وناقِدٌ أدبيٌّ فَرَنْسيّ.

(**) جورجيـو بَسْـكوالي، (١٨٨٥ ـ ١٩٥٢)، مُحَقِّقٌ إيطالِيٌّ أثْـرى عِلْـمَ النَّقْـدِ النَّصِـيِّ بإضافـاتٍ غَيْـرِ مَسْـبوقَة.

أنَّ اسْـتِعادَةَ الأصالَـةِ اللُّغَوِيَّـةِ للنُّصـوصِ القَديمَـةِ عَمَـلٌ تَـتَقاطَعُ عِنْـدَهُ الحَقيقَـةُ والحُرِّيَّـة.

إنَّ اسْـتِمْرارَ الأُمـورِ على هذِهِ الوَتيرةِ المُتَسـارِعَةِ يُنْـذِرُ بإمِّحـاءِ ذاكِرَتِنـا، وأخْشـى مـا يَنْبغـي عَلَيْنـا أنْ نَخْشـاهُ هـو بُلوغُنـا يَوْمًـا مَرْحَلَـةَ فَقْـدِ هـذِهِ الذّاكِـرَةِ بِالكامِل.

عِنْدَهـا، لا غَـرْوَ أنْ نَرى منيموسـين، إلهَـةَ الفُنونِ والمَعـارِفِ فـي الأسـاطيرِ اليونانيَّةِ/الرّومانيَّـةِ، تُغـادِرُ عالَمَنـا، وأنْ يَنْقَطِـعَ فـي رِكابِ مُغادَرَتِهـا حَيْـلُ البَشَـرِ علـى اسْـتِفْتاءِ الماضـي بُغْيَـةَ فَهْـمِ الحاضِـرِ وتَخْطيطِ المُسْـتَقْبَل. يَوْمَها سَـوْفَ يَصِحُّ القَـوْلُ بـأنَّ البَشَـرِيَّةَ فَقَـدَتْ ذاكِرَتَهـا وأضاعَـتْ، فـي جَريـرَةِ ذاكِرَتِهـا، هُوِيَّتَهـا وتاريخَهـا.

الانْدِثارُ المُبَرْمَجُ للتُّراثِ وآثارِه

فـي هـذا السِّـياقِ الـذي نَصِـفُ، يَنْحَسِـرُ مَحَـلُّ التُّراثيّـاتِ فـي المَـدارِسِ والجامِعـات. فالتَلامِـذَةُ

والطُلّاب، في ظِلِّ التَّنْفيرِ المُتَزايدِ مِنْ كُلِّ ما يُوْهَمونَ بأنَّهُ غَيْرُ ذي جدوى ولا نَفْعٍ يَقْضونَ السَّنَواتِ الطِّوالَ في قاعاتِ الدَّرْسِ دونَ أنْ يُطالِعوا أيًّا مِنَ النُّصوصِ التُّراثِيَّةِ المُؤَسِّسَةِ للثَّقافَةِ الغَرْبِيَّة.

بَلْ تَراهُم، عِوَضَ التَّحَكُّكِ بِهَذِهِ النُّصوصِ مُباشَرَةً يَتَكَفَّفونَ بَكُتُبِ المُنْتَخَباتِ والمَواجِزِ وسِواها مِنْ أدَبِيّات التَّبْسيط.

نَعَمْ، عِوَضَ أنْ يُهابَ بالتَّلاميذِ والطُّلّابِ أنْ يَغوصوا في نُصوصِ أريوستو(*) ورونسار(**) وأفلاطون ودي مونتنيه التي قَدْ تُكَلِّفُهُم مَزيدًا مِنَ الوَقْتِ ومِنَ الجَهْدِ ومِنَ الصَّبْرِ، تَراهُم يُشَجَّعونَ على السَّيْرِ في طُرُق المُنْتَخَباتِ باعْتِبارِها الأخْصَرَ والأقَلَّ مَشَقَّة.

(*) لودوڤيكو أريوستو، (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣)، شاعِرٌ إيطاليٌّ مِنْ الطَّبَقَةِ الأوْلى.

(**) پيار دو رونسار، (١٥٢٤ ـ ١٥٨٥)، شاعِرٌ فَرَنْسِيٌّ مِنْ رُوّادِ جَماعَةِ «الپلياد» الشِّعْرِيَّةِ التي سَعَتْ إلى الانْقِلابِ على السّائِدِ أيّامَها مِنْ أعْرافٍ شِعْرِيَّةٍ مُتَوَسِّلَةً في سَبيلِ ذلكَ العَوْدَةَ إلى الأُصولِ ومُحاكاةِ الأدَبِ الكلاسيكيّ.

ولا يُظَنَّنَّ أنَّ مَفاعيلَ هـذِهِ السِّياسَـةِ تَقِـفُ عِنْـدَ أبْـوابِ الجامِعـاتِ والمـدارِس. لِلأسَـفِ، لَيْسَـتْ كَذِلِـكَ ولَعَـلَّ أوَّلَ المُتَضَرِّريـنَ مِـنْ هـذِهِ السِّياسَـةِ هُـمْ ناشِـرو كُـتُبِ التُّـراث.

فـي إيطاليـا لَـمْ يَبْـقَ مِـنْ كُبْرَيـاتِ السَّلاسِـلِ المَوْقوفَـةِ علـى نَشْـرِ التُّراثِيّـاتِ مُخَبِّـر. في فَرَنْسـا تُنافِـحُ إحدى آخِرِ دُورِ النَّشْـرِ العَريقَـةِ المُتَخَصِّصَةِ بالتُّراثِيّـاتِ للبقـاءِ علـى قَيْـدِ الحَيـاة، عِلمًـا أنَّ دارَ النَّشْـرِ هـذِهِ تَلْقـى مَشَـقّاتٍ جَمَّةً فـي العُثورِ على مُحَقِّقيـنَ ومُدَقِّقيـنَ يُمْكِـنُ أنْ تُـوْكَلَ إلَيْهِـم مُهِمَّةُ نَشْـرِ نُصـوصٍ باليونانيَّـة واللّاتينيَّـة. فـي بريطانيـا لَيْسَـتِ الأُمـورُ بأفْضَـلِ حـالٍ، أمّـا فـي ألمانيـا وإسـپانيا فـإنَّ دورَ النَّشْـرِ تَخْتَـزِلُ بَرامِـجَ نَشْـرِ الكُـتُبِ التُّراثِيَّةِ إلى أبْعَدِ الحُدودِ، اللَّهُمَّ أنْ تَـتَوَفَّرَ لهـا مِنَـحٌ وإعاناتٌ مُجْزِيَـة. هذا، في حيـنِ تَزْدَهِرُ، فـي المُقابِـلِ، سـوقُ المُنْتَخَبـاتِ والمُلَخَّصـات...

وإذْ يَسُرُّ هذا الازْدِهارُ لأدَبِ التَّبْسيطِ المُسْتَثْمرينَ فيـه، فَهُـوَ لا يُفْرِحُ علـى الإطْلاقِ أولَئِـكَ الحَريصينَ

علـى إبْقاءِ جَـذْوَةِ الآدابِ والفُنـونِ التُّراثِيَّةِ مُتَّقِدَة. فالشَّـغَفُ بِالفَلْسَـفَةِ أوْ بالشِّـعْرِ أو بالتّاريـخِ لا يُمْكِـنُ أنْ يَتَأَتّـى مِنْ مُطالَعَةِ المُوَطَّئـاتِ والمَواجِزِ وغَيْرِهـا مِنَ الكُـتُبِ التَّعْليميَّة.

وَلكِـنَّ أسْـوأَ ما في الأمْرِ أنَّ مُطالَعَـةَ هَذِهِ الأدَبِيّاتِ الثّانَوِيَّـةِ كَـثيرًا مـا تَـتَحَوَّلُ إلـى عُـذْرٍ يُعْتَـذَرُ بِـهِ للإعْـراضِ عَـنِ النُّصـوصِ الأصْلِيَّة.

الحياةُ على مِحَكِّ التُّراث

لا تَعْليـمَ أهْـلًا لأنْ يُطْلَـقَ عَلَيْهِ هذا الاسْـمُ يُسْـقِطُ مِـنِ اعْتِبـارِهِ كُـتُبَ التُّـراث. فإنَّمـا يَلْتَقـي المُعَلِّـمُ والمُتَعَلِّـمُ عِنْـدَ نَـصٍّ وعلـى مُطالَعَـةِ نَـصّ. بِـدونِ هـذا النَّـصِّ، وخـارِجَ الصِّلَـةِ المُباشَـرَةِ بِـهِ، لا أمَـلَ يُرَجّـى بـأنْ يُحِـبَّ التِّلْميـذُ الفَلْسَـفَةَ أوِ الأدَبَ، ولا أمَـلَ يُرْجّـى بـأنْ يُفْلِـحَ المُعَلِّـمُ، مَهْمـا بَـرَعَ، فـي إيقـادِ شُـعْلَةِ الشَّـغَفِ والحَماسَـةِ لـدى تَلاميـذِه.

فـي النِّهايَـةِ، لا مَفَـرَّ أنْ يَنْقَطِـعَ يَوْمًـا مـا الخَيْـطُ

الـذي يَصِـلُ الكَلِمَةَ المَكْـتوبَةَ بالحَيـاةِ، أي بِصَوْتِ المُعَلِّـمِ، ولا مَفَـرَّ أنْ تَنْكَسِـرَ الحَلْقَـةُ التـي تَجْمَـعُ القُـرّاءَ الأغْـرارَ بِمَـنْ سَـبَقوهُم وبِمَـنْ يَتَعَلَّمـونَ القِـراءَةَ علـى أيْديهِـم، وَيَومـذاكَ لَـنْ يَكـونَ بُـدٌّ مِـنْ أنْ يَتَدَبَّـرَ هـذا الجيـلُ مِـنَ القُـرّاءِ المُتَمَرِّنيـنَ الاسْـتِماعَ إلـى صَـوْتِ الحَياةِ مُباشَـرَةً ومِنْ خِلالِ ما تَقولُـهُ تِلْـكَ النُّصـوصُ نَفْسُـها لا مِـنْ خِلالِ مـا قالَهُ لَهُـم مُعَلِّموهُـم.

مَهْمـا كانَ، لا يَكْفـي الإلْمامُ بِبَعْضِ المُقْتَطَفاتِ مِنْ هـذا الأثَـرِ أو بِبَعْضِ المُنْتَخَباتِ مِنْ ذاك. بِبَسـاطَة: لا مـا يَسُـدُّ مَسَـدَّ قِـراءَةِ هـذِهِ الآثـارِ كامِلَـة. وفـي سِـياقِ هـذِهِ القِـراءَةِ، للمُعَلِّـمِ، بالتَّأكيـدِ، دَوْرٌ فـي غايَـةِ الأهَمِيَّةِ.

حَسْـبُ الواحِـد مِنّا أن يُطالِعَ سـيرَةَ أيٍّ مِنَ العُلَماءِ الكِبـارِ أو تَرْجَمَةَ أيٍّ مِنْهُم لِيَقِفَ، في هذِهِ السّـيرَةِ أو التَّرْجَمَـةِ علـى ذِكْـرى أُسـتاذٍ أو مُعَلِّـمٍ كانَ لَـهُ الـدَّوْرُ الفَصْـلُ في تَوْجيـهِ التَّطَلُّعِ العِلْمـيِّ لِتِلْميذِهِ صَـوْبَ هذا الاخْتِصـاصِ أوْ ذاكَ. بَلْ حَسْـبُ الواحِدِ

مِنّا أنْ يُطالِعَ في سيرَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ لِيَتَبَيَّنَ ما كانَ لِتَأْثيرِ فُلانٍ أوْ فُلانٍ مِنْ أساتِذَتِهِ مِنْ دَوْرٍ في تَحْديدِ مُيولِهِ العِلْمِيَّة.

فَبَيْنَ المُتَعَلِّمِ والمُعَلِّمِ، مِنْ أوَّلِ العَهْدِ بالتَّعَلُّمِ والتَّعْليمِ شَيْءٌ مِنَ الجَذْبِ والانْجِذاب. ومِنْ ثَمَّ ما يَتَعَذَّرُهُ وَصْفُ التَّعْليمِ بالمِهْنَةِ، وما نَذْهَبُ إليهِ عِنْدَ الحَديثِ عَنِ التَّعَلُّمِ بِمَعْناهُ الرّاقي والنَّبيلِ مِنْ وَصْفِهِ بالرِّسالَةِ. فالمُعَلِّمُ المُعَلِّمُ، شَأْنَ الرّاهِبِ، يَنْذُرُ نَفْسَهُ للتَّعْليمِ لا أقلَّ مِنْ ذلِكَ، وبِهذا المَعْنى لا يَنْبَغي التَّطْفيفُ على الإطْلاقِ مِنْ ذَلِكَ التَّحْذيرِ الذي حَذَّرَهُ جورج شتاينر يَوْمًا إذْ قال:

«إنَّ دَرْسًا لا يَسْتَوْفي شُروطَ الجَوْدَةِ جَريمَةٌ نَكْراءُ بالمَعْنى الحَرْفِيِّ للكَلِمَة، وخَطيئَةٌ مُميتَةٌ بالمَعْنى المَجازِيّ!».

فلا فَصْلَ مُمْكِنًا بَيْن ما يَلْتَقيهِ مُعَلِّمٌ ومُتَعَلِّمٌ وبَيْنَ الشَّغَفِ إلى المَعْرِفَةِ الذي يَجْمَعُ بَيْنَهما.

يُوْضِحُ ماكس شيلر(*) هذِهِ الفِكْرَةَ مُستَشْهِدًا بغوته حَيْثُ يَنْقُلُ عَنْهُ قولَهُ:

«لا نَتَعَلَّم إلّا ما نَهْوى ونُحِبّ؛ وبِمقْدارِ ما يَقْوى هوانا وَحُبُّنا تَكْتَمِلُ مَعْرِفَتُنا بِما نَتَعَلَّمُهُ وتَزْدادُ عُمْقًا».

وكما نَعْرِفُ جَميعًا فإنَّما المَجّانيَّةُ شَرْطُ الحُبِّ والهوى. بِهذا الشَّرْطِ، بَلى، يُمْكِنُ لِمُعَلِّمٍ يَلْتَقيهِ مُتَعَلِّمٌ، أو لِمُؤَلَّفٍ يُطالِعُهُ قارِئٌ، أنْ يُغَيِّرا مِنْ حَياةِ هذا المُتَعَلِّمِ أو القارِئ...

المَكْتَباتُ الجامِعِيَّةُ في خَطَر: فَضيحَةُ مَعْهَد واربورغ

... ومِنْ ضَحايا اسْتِعلاءِ المَنْطِقِ الاسْتِثْمارِيِّ التِّجاريِّ المَكْتباتُ ومَعاهِدُ الأبْحاث. ومِنْ أَبْلَغِ الأمْثِلَةِ على ذَلِكَ مَكْتَبَةُ مَعْهَدِ واربورغ اللَّندنِيِّ التي تُعَدُّ مِنْ أكْبَرِ المَكْتَباتِ في

(*) ماكس شيلر، (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨)، فَيْلَسوفٌ ألْمانيٌّ مِنْ أبْرَزِ مَنْ تَتَلْمَذَ على يَدَيْهِ البابا يوحَنّا بولس الثّاني.

العالَـمِ وأهَمِّها مِنْ أكْـبَرِها بِلِحـاظِ مَوْجوداتِها (٣٥٠,٠٠٠ مُجَلَّـد و٤٠٠,٠٠٠ صـورة)، ومِـنْ أهَمِّهـا لِمـا اضْطَلَعَتْ بِـهِ مِنْ أدَوارٍ فـي ازْدِهارِ الثَّقافَـةِ الأوروبِّيَّـةِ وتَضْطَلِـع.

ضِـفْ إلـى هـذا أنَّ تَرْتيـبَ هـذِهِ المَكْتَبَـةِ، أي مَوْضِـعَ كُلِّ كِـتابٍ مِـنَ الكُـتُبِ التـي تَحـوي عَلَيْهـا، ومَوْضِـعَ الـرَّفِّ الـذي يُوْجَـدُ عَلَيْـهِ هـذا الكِتـابُ أو ذاكَ، آيَـةٌ بِحَـدِّ ذاتِـهِ، حَيْـثُ إنَّ هذا التَّرْتيـبَ يُعَبِّـرُ عَـنْ رُؤيَـةٍ كُلِّيَّـةٍ للمَعـارِفِ فـي تَواصُلِهـا وتَفاعُلِهـا هـي الرُّؤْيَةُ التـي رَفَعَ لِواءَها آبـي واربـورغ(*) وأولئـكَ الذيـن اهْتَـدَوا بِهَدْيه.

ولا يُظَنَّـنَ أنَّ هـذِهِ الرُّؤْيَـةَ مَحْجوبَـةٌ عَـنْ رُوّادِ المَكْتَبَـةِ: بَـلِ العَكْسُ هـو الصَّحيحُ حَيْـثُ إنَّ أيَّمـا زائِـرٍ يُمْكِنُـهُ أنْ يَتَفَقَّـدَ هـذا التَّرْتيـبَ بِنَفْسِـهِ: مـا إنْ يَطْلُـبَ كِتابًـا مـا علـى رَفٍّ مِـنَ الرُّفـوفِ حتّـى يَجِـدَ نَفْسَـهُ بَيْـنَ يَـدَيْ مَجْموعَةٍ

(*) آبي واربورغ، (١٨٦٦ ـ ١٩٢٩)، مُنَظِّرٌ ومُؤَرِّخٌ فَنِّيٌّ ألْمانيّ.

مِنَ الكُتُبِ ذاتِ الصِّلَةِ بِمَوضوعِ الكِتابِ المَطْلوب.

إنْقاذًا لِهَذِهِ المَكْتَبَةِ مِنَ الهَمَجِيَّةِ النّازِيَّةِ الصّاعِدَةِ نُقِلَتْ عامَ ١٩٣٤ مِنْ ألمانيا إلى لَنْدَن ثُمَّ أُلْحِقت بجامِعَةِ المَدينةِ في سَنَةِ ١٩٤٤.

خِلالَ القَرْنِ العِشْرينِ توالى على مَعْهَدِ واربوغ القائِمِ في مَيْدانِ ووبرن عَدَدٌ من أعْلامِ الباحِثينَ في عَصْرِ النَّهْضَةِ الأوروبيِّ وَمِنْ مُؤَرِّخيهِ(*).

مَعَ ارْتِباطِ أسْماءِ كُلِّ هَؤلاءِ بِهذا المَعْهَدِ، ومَعَ ما لَهُ، مِنْ مَحَلٍّ فَذٍّ في مَجالِ دِراسَةِ النَّهْضَوِيّاتِ الأوروبِّيَّةِ، فإنَّ مَكْتَبَتَهُ، مُنْذُ

(*) مِنْ هَؤلاءِ الفَيْلَسوفُ الألمانيُّ إرْنِست كاسيرر، وَمُؤَرِّخ الفُنونِ الأمريكيُّ الألمانيُّ الأصْلِ رودولف ويتكووَر، ومُؤَرِّخُ الفُنونِ البريطانيُّ النَّمْسَوِيُّ الأصْلِ السّير إرْنِسْت غومبريتش، ومُؤَرِّخُ الفُنونِ الألمانيُّ إروين پانوفسكي، والمُؤَرِّخَةُ الإنجليزيَّةُ فرانسِس ييتس، ومُؤَرِّخُ الفُنونِ البريطانيُّ الألمانيُّ الأصْلِ إدچار وِيند، ومُؤَرِّخُ الفَلْسَفَةِ الأمريكيُّ الألمانيُّ الأصْلِ پول أوسكار كريستِلر، والنّاقِدُ الأدَبيُّ الإيطالي كارلو ديونيسوتي، واللُّغَويُّ الإيطاليُّ جيوڤاني أكْويلكتشيا، والمُؤَرِّخُ الأمريكيُّ المُعاصِرُ أنتوني چرافتون.

سَـنَواتٍ، فـي خَطَـر. فَبُغْيَـةَ خَفْـضِ النَّفَقـاتِ، وَضَعَـتْ جامِعَـةُ لنـدن مَشْـروعًا تُدْمَـجُ بِمُوجِبِهِ مَعاهِدُهـا وهـذا المَشْـروعُ، بِطَبيعَـةِ الحـالِ، يُهَدِّدُ اسْـتِقْلالَ واربورغ عِلْمًا أنَّ مُؤَسِّـسَ المَعْهَدِ كانَ أحْـرَصَ مـا يَكـونُ، مِـنْ أوَّلِ الأمْـرِ، أي مِـنْ يَـوْمِ أن أُبْـرِمَ اتِّفاقُـهُ مَـع السُّـلُطاتِ الأكاديميَّـةِ البريطانِيَّـةِ، علـى ضَمـانِ هـذا الاسْـتِقْلال.

نَعَـمْ، مِـنْ سُـخْرِيَةِ القَـدَرِ أنَّ هَـذِهِ المَكْـتَبَةَ التـي أسَّسَـها وَريـثُ عائِلَـةٍ مِـنَ المَصْرِفِيِّيـنَ آثَرَ صُحْبَـةَ الكُـتُبِ علـى صُحْبَـةِ الأوْراقِ النَّقْدِيَّـةِ عُرْضَـةٌ للتَّشْـويهِ بِفِعْـلِ قَـراراتٍ يُقَرِّرُهـا ماليّـونَ يَبْنـونَ قَراراتِهم هـذِهِ على اعْتِباراتٍ اسْـتِثْماريَّةٍ ضَيِّقَـة. فـي انْتِظارِ أنْ نَرى لِمَنْ ستُكْـتَبُ الغَلَبَةُ فـي نِهايَـةِ المَطـاف ــ لِلْمَكْتَبَـةِ أمْ لِلْمَنْطِـقِ الاسْـتِثْماري ــ، يَبْقى أنَّ الخَطَرَ على المَكْـتَباتِ، يَفشـو ويَعُمّ.

فـي آبَ ٢٠١٢ نَقَلَـتْ وَسـائِلُ الإعْـلامِ الإيطاليَّـةُ نَبَـأً صادِمًـا بِـكُلِّ مَعنـى الكَلِمَـة:

لَقَـد تَقَـرَّرَ إيـداعُ مَكْـتَبَةِ المَعْهَـدِ الإيطالـيِّ للدِّراسـاتِ الفَلْسَـفِيَّةِ (٣٠٠,٠٠٠ مُجَلَّـد) فـي صَناديـقَ وحاوِيـاتٍ وتَخزينُهـا فـي مُسْـتَوْدَعٍ بإحْـدى ضواحـي ناپولـي! لـم يَتَأخَّـرْ عَميـدُ المَعْهَـدِ، فـي مـا كانَـتِ الشّـاحِناتُ تَنْقُـلُ المَكْـتَبَةَ، مِـنَ التَّنْديـدِ بِالقَـرارِ ولكِـنْ... علـى مَـنْ تَقْـرَأُ مَزاميـرَكَ يـا داوود!

مَكْتَباتُ بَيْعِ الكُتُبِ أيْضًا وأيْضًا

وإذْ يُصيـبُ المَكْـتَباتِ الجامعيَّـةَ مـا يُصيبُهـا مِـنْ خَـرابٍ فـلا دَهَـشَ أن يَرْتَـدَّ الأمْـرُ نَفْسُـهُ علـى مَكْـتَباتِ بَيْعِ الكُـتُبِ، وأنْ تَـتَحوَّلَ هذِهِ المَكْـتَباتُ التـي كانَـتْ، فـي مـا مَضـى، مُنْتَديـاتٍ للفِكْـرِ إلـى أسْـواقٍ يُدَلَّـلُ فيهـا علـى الكُـتُبِ كمـا يُدَلَّـلُ على أيَّـةِ سِـلْعَةٍ أُخـرى.

فـي باريـسَ كمـا فـي رومـا، وسِـواهما، المَشْـهَدُ نَفْسُـهُ يَتَكَرَّر: مَكْـتَباتُ بَيْعِ الكُتُبِ العَريقَةُ تَخْتَفي

عَـنْ بِكْـرَةِ أبيهـا أو تُرْغَمُ، طَلَبًـا للنَّجاةِ، والاسْـتِمرارِ، علـى الخُضـوعِ لمَنْطِـقِ السّـوقِ فَتَراها تُقَلِّـصُ، إلى أبْعَدِ الحُدودِ، المَساحاتِ المُخَصَّصَةَ لِكُـتُبِ التُّراثِ وسِـواها مِـنْ الآثـارِ التي لا يَرقى الشَّـكُّ إلـى قيمَتِها ومَكانَتِهـا، وتُوَسِّـعُ واجِهاتِها للكُـتُبِ التي تَنْجَحُ في امْتِحـانِ الإعْـلامِ فَتُقَلِّدُ لبَعْضِ الوَقْتِ قِلادَةَ «الأكْـثَرَ مَبيعًـا» إلـى أنْ يُطيـحَ بِها عَنْ عَرْشِـها المَوْهومِ هذا «أكْـثَر مبيعًـا» آخَرُ وهكـذا دوالَيْك!

بالطَّبْـعِ، لا يَخْلـو الأمْـرُ، بَعْـدُ، هُنـا وهُنـاكَ، مِنْ جُيـوبِ مُقاوَمَـةٍ يَجِـدُ فيهـا القـارِئُ ضالَّتَـهُ، غَيْرَ أنَّ هـذِهِ الجُيـوبَ تُعاني الأَمَرَّيْـنِ للصُّمودِ فَضْلًا عَمّـا تُرْغَـمُ عَلَيْـهِ مِنَ النُّـزولِ عِنْدَ إمْـلاءاتِ كِبارِ المُوَزِّعيـنَ مُوَزِّعـي «الأكثَرَ مَبيعًـا». وَبِمِقْدارِ ما تَـتَضاءَلُ فُـرَصُ الصُّمـودِ يَزْدادُ مِقْـدارُ التَّنازُلاتِ المَطْلـوبِ تَقْديمُهـا ومِـنْ هـذِهِ التَّنـازُلاتِ مـا نَـراهُ مِـنْ اضْطِـرارٍ إلـى إحْـلالِ باعَـةٍ مَغْموريـنَ يُمْكِـنُ أنْ يُوَظَّفـوا لِبَيْـعِ أيِّ سِـلَعٍ كانَ مَحَـلَّ كُـتُبِيِّين مُحْتَرِفيـنَ علـى دِرايَـةٍ بِمـا يَبيعون.

ما لَزومَ لَهُ ومُفاجآتُهُ السّارّة

... ويا حَبَّذا أن يُفْهَمَ مَديحي للآدابِ وَلِلْفَلْسَفَةِ ولِما يَسْتَجْلِبانِهِ مِنْ مَنافِعَ قَدْ تَبْدو للبَعْضِ غَيْرَ ذاتِ جَدْوى على المَعْنى الذي أقْصِدُ إلَيْه. أقولُ، ولَيْسَ قَوْلي مُجامَلَةً يَطْمَئِنُّ مَعَها زُملائي العِلْمِيِّينَ إلى قَصْدي ـ أقول: لَيْسَ مِنْ غَرَضي أنْ أنْفُخَ الرّوحَ في ذلِكَ السِّجالِ العَقيمِ الذي يَنْتَصِرُ أحَدُ طَرَفَيْهِ للمَعارِفِ الإنْسانِيَّةِ والآخَرُ للمَعارِفِ العِلْمِيَّة.

هيهاتَ أنْ يَكونَ الأمْرُ مِنّي كَذلك. بَلْ أقولُ أكْثَرَ: إنَّ للمَعارِفِ العِلْمِيَّةِ يَدًا لا شَكَّ فيها، ماضِيًا وحاضِرًا، في صَدِّ ما يَسْتَعليه مَنْطِقُ السّوقِ وما يَتَمَدَّدُهُ بَيْنَنا هاجِسُ الرِّبْحِيَّةِ السَّريعَة.

ومِمّا لا يُحْتاجُ إلى التَّذْكيرِ بِهِ أنَّ عَدَدًا مِنَ الجُهودِ العِلْمِيَّةِ التي لَمْ يُوَجِّهْها أصْحابُها إلى مآرِبَ عَمَلِيَّةٍ أفْضَتْ إلى مُفاجَآتٍ

سـارَّةٍ وأينَعَـتْ ثِمـارًا يَصْعُـبُ علـى الواحِـدِ مِنّا والواحِـدَةِ أنْ يَتَصَـوَّر العالَـمَ خُلْـوًا مِنها.

لَقَـدْ كانَ مِـنَ المُسْـتَحيلِ علـى ماركونـي(*) (١٨٧٤ ـ ١٩٧٣) أنْ يَخْتَـرِعَ اخْتِراعاتِـهِ لَـوْلا مـا سَـبَقَهُ إلَيْـهِ جيمـس ماكسـويل(**) وهاينريـش هرتـس(***) مِـنْ أبْحـاثٍ مَدارُهـا علـى التَّـرَدُّدِ الكهرومِغْنَطيسِـيِّ وهـي أبْحـاثٌ إنَّمـا قـامَ بِهـا هذا وذاكَ مِـنْ بـابِ الفُضـولِ النَّظَـرِيِّ لَيْـسَ إلّا.

لَـمْ يُرافِـع أحَـدٌ عَنْ هـذِهِ الفِكْرَةِ كما فَعَـلَ أبراهام فلكسـنر الـذي يُشَـرِّفُني أنْ أضُـمَّ نَـصَّ مُرافَعَتِـهِ الباهِـرَةِ إلـى كِتابـي هذا.

(*) غوليلمـو ماركونـي، (١٨٧٤ ـ ١٩٣٧)، عالِـمٌ ومُخْتَـرِعٌ إيطاليٌّ لَهُ إسْـهاماتٌ فـي الكهرومِغْنَطيسـيّاتِ، وإلَيْـهِ يُنْسَـبُ اخْتِـراعُ الرّاديـو وتِقْنِيَّـةِ الإبْـراقِ اللّاسِـلْكِيّ.

(**) جيمس كلارك ماكسـويل، (١٨٣١ ـ ١٨٧٩)، عالِمٌ اسـكوتلنديٌّ لَهُ إسْـهاماتٌ حاسِـمَةٌ فـي عِلْمَيِّ الجاذِبِيَّـةِ والكَهْرَباء.

(***) هاينريـش رودولـف هرتـس، (١٨٥٧ ـ ١٨٩٤)، فيزيائـيٌّ ألْمانـيٌّ يَديـنُ لَهُ العِلْـمُ بأنَّـهُ أثْبَـتَ وجـودَ التَّرَدُّداتِ اللّاسِـلْكِيَّة. ومِنْ ثَـمَّ فهو مِنْ آبـاءِ ما تلا مِنِ اخْتِـراعِ التِّلِغراف.

يَذْهَبُ فلكسنر في مُرافَعَتِهِ هذِهِ إلى أنَّ الاكْتِشافاتِ الحاسِمَةَ في تاريخِ البَشَرِيَّةِ، والتي غَيَّرَتْ وَجْهَ التّاريخِ، ومَعَهُ وَجْهَ البَشَرِيَّةِ، لَمْ تَتَأَتَّ في سِياقِ اسْتِجْلابِ أيَّةِ مَنْفَعَةٍ عَمَلِيَّةٍ رِبْحِيَّةٍ وإنَّما تأتَّتْ مِمّا أطْلَقَهُ أصْحابُها، في مَنأى مِنْ أيَّةِ غَرَضِيَّةٍ، لفُضولِهِم مِن عِنان. وإذْ يُمَثِّلُ فلكسنر على أمْثالِ هَؤلاءِ المُكْتَشفينَ، فَلَيْسَ بأقَلَّ من هاماتٍ عاليَةٍ كهاماتِ چاليليو(*) ونيوتن(**).

على الرَّغْمِ مِنْ أنَّ الشَّواهِدَ التّاريخيَّةَ تُثْبِتُ بما لا يَقْبَلُ الشَّكَّ فيهِ جَدْوى البَحْثِ المَتْروكِ على

(*) چاليليو چاليلي، (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢)، عالِمٌ فَلَكِيٌّ وفَيْلَسوفٌ وفيزيائيٌّ إيطاليٌّ مِنْ أبْرَزِ المُدافِعينَ عَنْ نَظَرِيَّةِ كوپرنيكوس القائِلَةِ بِمَرْكَزِيَّةِ الشمس. حوكِمَ چاليليو على يَدِ الكَنيسَةِ الكاثوليكيَّةِ بِسَبَبِ مِنْ دِفاعِهِ عَنْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ، وأُدينَ، وَضُرِبَ الحَظْرُ على مُؤَلَّفاتِه. لأعْوامٍ قَليلَةٍ خَلَتْ، تَراجَعَتِ الكَنيسَةُ عَنْ حُكْمِها واعْتَذَرَتْ عَلانِيَةً عمّا ارْتَكَبَتْهُ مِنْ خَطَأٍ بِحَقِّ هذا العالِمِ الفَذّ.

(**) إسحاق نيوتن، (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧)، عالِمٌ إنْچليزيٌّ مِنَ المُبَرَّزينَ في الفيزياءِ والرِّياضيّاتِ يَرْتَبِطُ اسمُهُ بـ «قانونِ الجاذِبِيَّةِ» ولَوْ أنَّ هذا الاكتِشافَ فَتْحٌ مِنْ فُتوحاتِهِ العِلْمِيَّةِ الكَثيرَة.

سَـجِيَّتِهِ فـإنَّ إعْـراضَ الحُكومـاتِ إعْراضًـا مُطَّـرِدًا عَـنْ تَمويـلِ مِثْلِ هذِهِ الأبْحـاثِ يَدْفَـعُ بالجامِعاتِ وبِمراكِـزِ الأبْحـاثِ دَفْعًـا إلـى اسْـتِعْطاءِ المِنَـحِ والعَطايـا مِـنَ القِطـاعِ الخـاصِّ ومِـنْ الشَّـرِكاتِ الكُبْـرى. وإذْ يكـونُ مِـنْ هـذا القِطـاعِ ومِـنْ تِلْـكَ الشَّـرِكاتِ أنْ يُمَوِّلوا مَشـاريعَ بَحْثِيَّةً فَبُغْيَةَ التَّوَصُّلِ إلـى إنْتـاجِ سِـلَعٍ آيلَـةٍ للتَّسْـويقِ أو بُغْيَـةَ تَطويـرِ وسـائِلِ إنْتاجٍ تَسْـتَفيدُ مِنها هذِهِ الشَّـرِكاتُ نَفْسُـها فـي ازْدِهـارِ أعْمالِهـا.

لَيْـسَ لأحَـدٍ أن يُنكِـرَ يَـدَ هـذِهِ العَطايـا والمِنَـحِ فـي دَفْـعِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ قُدُمًـا ولكـنْ لا بُـدَّ مِـنَ الاعْتِـرافِ بـأنَّ بَوْنًـا شاسِـعًا يَفصِلُ بَيْنَ جَـوِّ البَحْثِ العِلْمِـيِّ المَحْكومِ سَـلَفًا بهاجِسِ «الجَـدْوى» وَبَيْنَ جَـوِّ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ في مُؤَسَّسَـةٍ كَمِثْـلِ تِلكَ التي يُشـيرُ إليهـا فلكسـنر، أعنـي «مَعْهَـدَ الدِّراسـاتِ المُتَقَدِّمَـةِ» بپرينسـتون.

مِـنْ ثَـمَّ، لَيْـسَ مِـنْ بـابِ الصُّدْفَـةِ أنِ ازْدَهَـرَ الغِـشُّ والاحْتِيـالُ خِـلالَ العُقـودِ الأخيـرَةِ فـي

مَجالِ البَحْثِ العِلْمِيّ. ومِنْ أبرزِ مَنْ تَوَقَّفَ عِنْدَ هذِهِ الظّاهِرَةِ ودَقَّ ناقوسَ الخَطَرِ مُحَذِّرًا مِنْ عَواقِبِها، الأستاذُ في مَعْهَدِ ألبرت آينشتاين للعُلومِ الطِّبِّيَّةِ في نيويورك أرتورو كاسادِڤال.

وَيُفَسِّرُ كاسادڤال داعِيَتَهُ إلى التَّوَجُّسِ العَلَنِيِّ بأنَّ عام ٢٠٠٧ سَجَّلَ إبْطالَ سِتَّةٍ وتِسْعينَ بَحْثًا من أصْلِ مليون. وَيَزيدُ مِنْ أسْبابِ التَّوَجُّسِ أنَّ أحَدَ الأسْبابِ المُحَرِّضَةِ على الغِشِّ هي الضَّغوطُ التي يَخْضَعُ لها البَحْثُ العِلْمِيُّ، لأسْبابٍ اقْتِصادِيَّة، في مَجالِ البيولوجيا الطِّبِّيَّة.

وإنْ تَحْتَجْ هذِهِ الظّاهِرَةُ إلى ما يُمَثِّلُ عَلَيْها فَخَيْرُ مِثالٍ تِلْكَ المَقالَةُ التي نَشَرَها أندرو ويكفيلد عام ١٩٩٨ في مَجَلَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مَرْموقَةٍ وَشَكَّكَ فيها بِجَدوى التَّطْعيمِ ثُمَ لَمْ تَلْبَثِ المَجَلَّةُ تِلْكَ أنْ سَحَبَتْ تأييدَها للمَقالَةِ المَذكورَةِ وما فيها بَعْدَ أن أُدينَ صاحِبُها لِما ثَبُتَ مِنْ تَرادِفٍ بَيْنَ أبْحاثِهِ العِلْمِيَّةِ وبَيْنَ مَصالِحِهِ الماليَّة.

فيمَ النَّظَرِيّاتُ الرِّياضيَّة؟
مِنْ أقليدس إلى أرخميدس

بِشَهادَةِ أرِسْطو، وبِشهاداتٍ شَتّى مِنْ تَراجِمِ عُلَماءِ العُصورِ القَديمَةِ وما يَرِدُ فيها مِنْ مَنْقولاتٍ، فإنَّ التَّمْييزَ في تِلْكَ العُصورِ بَيْنَ عِلْمٍ تأمُّلِيٍّ مُنَزَّهٍ عَنِ الأغْراضِ العَمَلِيَّةِ وبَيْنَ عِلْمٍ ذي أغْراضٍ عَمَلِيَّةٍ تَطْبيقِيَّةٍ كانَ مِنْ بابِ تَحْصيلِ الحاصِل.

حَسْبُنا للوقوفِ على ذلكَ أن نَتَذَكَّرَ ما يَرْويهِ المُحَقِّقُ ستوبيه(*) مِنْ رِوايَةٍ عَنْ إقليدسَ وأحَدِ تَلاميذِه. فإذْ أخَذَ التِّلْميذُ عَنْ مُعلِّمِهِ إحْدى نَظَرِيّاتِهِ الرِّياضِيَّةِ بادَرَهُ بالسُّؤالِ: «وبَعْدُ؟ أيُّ نَفْعٍ أنْتَفِعُهُ مِمّا أخَذْتُهُ عَنْك؟» فما كانَ مِنْ إقليدسَ إلّا أنْ أمَرَ أحَدَ عَبيدِهِ بأنْ يَنْقُدَ التِّلْميذَ جائِزَةً «لأنَّهُ، [التِّلْميذُ]، في حاجَةٍ إلى اسْتِنْفاعِ مَنْفَعَةٍ ما مِمّا تَعَلَّمَه».

(*) مِنْ أبْناءِ القَرْنِ الخامِسِ الميلادِيّ.

كذلكَ، فَلْنَسْتَأْنِفْ قِراءَةَ تِلْكَ الفِقْرَةِ التي يُخَصِّصها فلوطارخس(*) للكَلامِ على ما كان أرخميدس يَكُنُّهُ مِنِ احْتِقارٍ للميكانيكا حدَّ اعْتِبارِهِ أنَّهُ مِنَ المُعيبِ بالعالِمِ أنْ يَكْتُبَ في المَسائِلِ ذاتِ الصِّلَةِ بالفُنونِ الصِّناعِيَّة:

«لَقَدْ كانَ مِنِ اعْتِزازِ أرخميدسَ بِنَفْسِهِ، وَمِنْ ثاقِبِ نَظَرِهِ، وَمِنْ عِلْمِهِ الغَزيرِ، أنَّهُ ضَرَبَ صَفْحًا، مِنْ أنَفٍ، عَنْ كِتابَةِ سَطْرٍ واحِدٍ في الاخْتِراعاتِ التي اخْتَرَعَها والتي خَلَّدَتْ ذِكْرَهُ، وَرَفَعَتْ ذَكاءَهُ إلى مَرْتَبَةٍ لَمْ يَبْلُغْها العالَمون. فالميكانيكا، وَسِواها مِنَ الأُمورِ التِّقْنِيَّةِ ذاتِ الصِّلَة بِحاجاتِ البَشَرِ اليَوْمِيَّةِ كانَتْ مُحْتَقَرَةً في اعْتِبارِهِ، وكانَ الانْهِماكُ بِها مِنْ شَأْنِ العُمّالِ أصْحابِ الكَفاءاتِ اليَدَوِيَّة. لَقَدْ أفْرَغَ أرخميدس جَهْدَهُ على المَسائِلِ الشَّريفَةِ التي تَزْهو على الضَّروريّاتِ، والتي لا يُقايسُ أهَمِّيَّتَها إلّا ما تَسْتَوْجِبُهُ مِنْ إعْمالِ الفِكْرِ والنَّظَر».

مِنَ الشَّطَطِ أنْ نَحْمِلَ كلامَ فلوطارخس على المَحْمَلِ الحَرْفِيِّ شَأْنَ ما كانَ مِنْ بَعْضِ كِبارِ المُؤَرِّخين. فَعِنايَةُ أرخميدس بِما كانَ يُطْلَقُ

(*) فلوطرخس، (حوالى ٤٥ ـ ١٢٥)، فَيْلَسوفٌ وَمُؤَرِّخٌ يُونانِيّ.

عَلَيْـهِ أيّامـذاكَ الميكانيـكا عِنايَةٌ يُسَـتْدَلُّ عَلَيْها في العَديـدِ مِنْ مُؤلَّفاتِهِ كما فـي العَديدِ مِنِ اخْتِراعاتِهِ الشَّـهيرَة. مـا يَعْنينـا مِـنْ هـذِهِ الشَّـهادَةِ المُتَأثِّـرَةِ علـى الأرْجَـحِ بِنَزْعَـةِ فلوطارخـس الأفلاطونيَّـةِ هـو مـا تَصِفُـهُ مِـنْ شَـخْصِيَّةِ العالِـمِ وفي هـذا الوَصْفِ بَيـانٌ جَلِـيٌّ علـى مـا يَحْضُـرُهُ التَّمْييـزُ بَيْـنَ العِلْـمِ المُنَـزَّهِ والعِلْـمِ العَمَلِـيِّ لـدى الأقْدَميـن.

في أنَّ العِلْمَ ثَرْوَةٌ
لا يُنْقِصُ مِنها التَّصَدُّقُ بِها
[«زكاةُ العِلْمِ نَشْرُه»]

بِنـاءً علـى كُلِّ مـا تَقَـدَّمَ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ بـأنَّ المَطْلـوبَ مِنّـا خِـلالَ السَّـنَواتِ المُقْبِلَـةِ لَيْـسَ حِمايَـةَ العُلـومِ والمُؤَسَّسـاتِ التَّعْليميَّـةِ مِمّـا يُحْـدِقُ بِهـا مِـنْ أخْطارٍ فَحَسْـبُ، بَـلْ حِمايَةُ الثَّقافَـةِ، بَـلْ قُـلْ كُلَّ مـا نُدْرِجُـهُ تَحْـتَ هـذا المَفْهـوم. نَعَـمْ، المَطْلـوبُ مِنّـا هـو أنْ نَتَصَـدّى لِمـا يَتَعـرَّضُ لَـهُ التَّعْليـمُ والبَحْـثُ العِلْمِـيُّ ولِمـا

تَـتَعَرَّضُ لَـهُ التُّراثِيّـاتُ والثَّقافَـةُ مِـنْ مُحـاولاتِ إلْغـاءٍ مُبَرْمَجَـة. ففـي الحَـطِّ مِـنْ شَـأْنِ التَّعْليـمِ والثَّقافَـةِ، وفـي السُّـكوتِ عَـنْ تَقويـضِ أرْكانِهِما، مُحاصَرَةٌ لِمُسْـتَقْبَلِ البَشَـرِيَّةِ لا يُسْتَبْعَدُ أنْ يَنْتَهِيَ بالإجْهـازِ عَلَيْـهِ وعَلَيْهـا!

لِسَـنواتٍ خَلَـتْ أُتيـح لـي، فـي دارٍ للمَخْطوطاتِ بإحـدى الواحـاتِ، أنْ قَـرَأتُ علـى يافِطَـةٍ تُزَيِّـنُ أحَـدَ جُـدْرانِ هـذِهِ المَكْـتَبَةِ العِبـارَةَ التّالِيَـةَ: «العِلْـمُ ثَـرْوَةٌ لا يَنْتَقِـصُ مِنْهـا التَّصَـدُّقُ بِهـا».

لا مَزيـدَ علـى مـا تَقولُـهُ هـذِهِ العِبـارَةُ الموجَـزَةُ: نَشْـرُ المَعـارِفِ، كُلِّ المَعـارِفِ، هـو السَّـبيلُ الأوَحْـدُ لِمُدافَعَـةِ مَنْطِـقِ الاسْـتِئْثارِ والرِّبْـح: فَهَلْ مِـنْ شَـيْءٍ، سِـوى المَعْرِفَـةِ، يُمْكِـنُ الواحِـدُ مِنّـا والواحِـدَةُ أنْ يَتَنـازَلَ عَنْـهُ بِـدونِ أنْ يَفْتَقِـر؟ بَـلْ هَـلْ مِنْ شَـيء سِـوى المَعْرِفَـةِ يُمْكِنُ الواحِـدُ مِنّا والواحِـدَةُ أنْ يَغْتَنـيَ هـو نَفسُـهُ فـي تَنازُلِـهِ عَنْهُ وأنْ يُغْنـي؟

«إنَّما يُدْخِلُ البَهْجَةَ على قَلْبِ الإنْسانِ
أنْ يَتَنعَّمَ بِما يَمْلِكُ لا أنْ يَمْلِكَ ما يَمْلِك».

ميشال دو مونتنيه

III

مِنَ المِلْكِ ما قَتَل: في الكَمالِ الإنْسانيِّ والحُبِّ والحَقيقَة

«صَدى السِّنينِ الحاكي»

على خِتامِ هذهِ الطّائِفَةِ مِنَ التَّأَمُّلاتِ في جَدوى ما لا جَدْوى مِنْهُ مِنَ المَعارِفِ الإنْسانيَّة، أوْلى بِيَ أنْ أدَعَ المِنْبَرَ للأُدَباءِ والعُلَماءِ والفلاسِفَةِ الذين تَأَمَّلوا في هذِهِ الجَدْوى، وأنْ أدْعُوَ قُرّائي إلى الاسْتِماعِ إلَيْهم لَعَلَّ هذا الاتِّصالَ المُباشَرَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَلِماتِ هؤلاءِ السّابِقينَ أنْ يَفْعَلَ فِعْلَهُ فيهم.

على ما تَقَدَّمَ، يَتَبَوَّأُ مَفْهومُ المِلْكِ والحِيازَةِ، في يَوْمِنا الحاضِرِ، مَكانَةً رَفيعةً في سُلَّمِ القِيَمِ الذي تَتَبَنّاه مُجْتَمَعاتُنا.

على الرَّغْمِ مِنْ هذهِ المَكانَةِ، لَمْ يَفُتْ عَدَدًا لا يُسْتَهانُ بِهِ مِنْ أهْلِ الرَّأْي، وَمِنْ أصْحابِ القَلَمِ،

التَّنْبيهُ على طَبيعَةِ المِلْكِ الخُلُبِيَّةِ وعلى آثارِ المِلْكِ المُدَمِّرَةِ للمَعارِفِ وللعَلاقاتِ الإنْسانِيَّةِ سَواءٌ بِسَواء؛ وفي الطَّليعَةِ مِنْ هَؤلاءِ المُحَذِّرينَ مِنَ الاغْتِرارِ بالمِلْكِ والحِيازَةِ ميشال دو مونتينه الذي أفْتَتِحُ هذا الفَصْلَ باسْتِعادَةِ قَوْلَتِهِ الشَّهيرَة:

«إنَّما يُدْخِلُ البَهْجَةَ على قَلْبِ الإنْسانِ أنْ يَتَنَعَّمَ بما يَمْلِكُ لا أن يَمْلِكَ ما يَمْلِك».

مِنْ مَسائِلَ عِدَّةٍ يُمْكِنُ اسْتِحْضارُها في هذا المَقامِ أكْتَفي بِثَلاثٍ لَمْ تَزَلْ تُؤَثِّرُ أيَّما تَأْثيرٍ على حَياةِ البَشَر. وأمّا الثَّلاثُ المَسائِلُ هذه فهي مَسْأَلَةُ الكَمالِ البَشَرِيِّ، ومَسْأَلَةُ الحُبِّ، وَمَسْأَلَةُ الحَقيقَة.

في هذه المَوارِدِ الثَّلاثَةِ لا يَسَعُ شَهْوَةَ المِلْكِ والأثَرَةِ إلّا أنْ تَرْتَدَّ وَبالًا على صاحِبِها في حينِ أنَّها المَجْلى بامْتِيازٍ لِقِيَمِ المَجّانِيَّةِ والبَذْلِ والتَّرَفُّع.

الكَمالُ البَشَريُّ:
وَهْمُ النِّعْمَةِ وتَعْهيرُ الحِكْمَة

هَـلْ يَسْـتَقيمُ أنْ يُقـاسَ كَمـالُ فُـلانٍ مِـنَ النّـاسِ بالثَّـرَواتِ التـي يَمْلِكُها أمْ أنَّ هـذا الكَمالَ لا يُقاسُ إلّا تَبَعًـا لِقِيَمٍ لا شَـأْنَ للرِّبْـحِ وللمَنافِعِ الماديَّةِ بِها؟

أُحِـبُّ أنْ أسْـتَهِلَّ مُحاوَلَـةَ الجَـوابِ عَـنْ هـذا السُّـؤالِ بالإحالَـةِ إلـى مَجْموعَـةِ رَسـائِلَ مَنْسـوبَةٍ إلـى أبقـراط، أبي الطِّـبِّ، يَـرْوي فيها مـا كانَ بَيْنَهُ وبَيْـنَ ديمقريطـس(*) يَـوْمَ أنِ اسْـتُدْعِيَ للكَشْـفِ علـى هـذا الأخيـرِ مِـنْ بَعْدِ أنِ اشْـتُبِهَ بأنَّ مَسًّـا قَدْ مَسَّه .

تَنْبَنـي السَّـرْدِيَّةُ التـي تَجْمَـعُ جِماعَها هـذِهِ الرَّسـائِلُ علـى تَبـادُلٍ للشَّـخْصيّاتِ ولـلأدْوارِ بَيْـنَ الطَّبيـبِ والمَريـضِ حَيْـثُ يَتَقَمَّـصُ المَريـضُ، فـي سِـياقِ السَّـرْدِيَّةِ، قَميـصَ الطَّبيـبِ وَيَتَقَمَّـصُ

(*) ديمقريطـس، (٤٦٠ ق.م. ـ ٣٧٠ ق.م.)، فَيْلَسـوفٌ يونانِـيٌّ مِـنْ أصْحـابِ مَذْهَـبِ الـذَّرَّة.

الطَّبيبُ قَميصَ المَريض. وهكذا يَنقَلِبُ جُنونُ ديمقريطس المَزْعومُ إلى شَيْءٍ أدْنى إلى الحِكْمَةِ، وتَنْقَلِبُ حِكْمَةُ الأبديريِّين، قَوْمِ ديمقريطس، إلى شَيْءٍ أدْنى إلى الجُنون.

تَبْدَأُ السَّرْدِيَّةُ بِمَشْهَدٍ بالِغِ الدَّلالة: مُعْتَكِفًا في دارَتِهِ القائِمَةِ على إحدى الرَّوابي تَسْتَوْلي على الفَيْلَسوفِ نَوْباتٌ مُتواصِلَةٌ مِنَ الضَّحِكِ والقَهْقَهَةِ تَبْلُغُ مَسامِعَ مُواطنيهِ فَيَقْلَقونَ أشَدَّ القَلَقِ مِمّا يُصيبهُ وَيَتَوَسَّمونَ بِهِ عِلَّةً ما، ويَقَرُّ رَأْيُهُم على اسْتِدعاء الطَّبيبِ أبقراط.

إبْتداءً، يُصارِحُ أبقراطُ مُحَدِّثيهِ بأنَّهُ لَيْسَ للمالِ أدْنى تأثيرٍ عَلَيْهِ في مُمارَسَتِهِ الطِّبَّ:

«حَذارِ حَذارِ الإساءَةَ إليَّ والظَّنَّ بأنَّني اسْتَجَبْتُ لِندائِكُمْ طَمَعًا بِمالٍ أجْنيهِ. ثَمَّ سَلِّموا مَعي بأنَّ الطِّبَّ مِهْنَةٌ حُرَّةٌ يَتَعاطاها المَرْءُ بِحُرِّيَّة. طُلّابُ المالِ يُسَخِّرونَ العُلومَ لِمآرِبِهِم مُنْكِرينَ عَلَيْها حُرِّيَّتَها في التَّعْبيرِ عَنْ نَفْسِها وَمُصَفِّدينَ إيّاها في أغْلالِ العُبوديَّة. بِئْسَ حَياةٍ يَعْصِفُ بِها الجَشَعُ عَصْفَ الرِّيحِ في الشِّتاء.

وحَبَّذا، بِمَشيئَةِ الآلهةِ، أنْ تَتَضافَرَ جُهودُ النِّطّاسينَ وأنْ يَجِدوا دَواءً لهذا الدّاءِ، داءِ الجَشَعِ، الذي يَبْدو لي أعْضَلَ بكثيرٍ مِنَ الجُنون».

يَصِلُ أپقراط إلى دارَةِ ديمقريطس ويأخُذُ الرَّجُلانِ بِتَجاذُبِ أطْرافِ الحَديثِ ثُمَّ يَنْتهي الأمْرُ بِهِما إلى ما دعا بالأوَّلِ إلى زِيارَةِ الثّاني، وهُنا يَمضي ديمقريطس في الإجابَةِ على اسْتِفْساراتِ أپقراط:

«إنَّما أضْحَكُ لِغَباءِ الغَبِيِّ مِنْ بَني البَشَرِ وَعَجْزِهِ عَنِ الإتْيانِ بأيِّ عَمَلٍ جَليل.

أضْحَكُ لانْدِفاعِهِ بلا تَرَوٍّ إلى أقْصى أطْرافِ الأرْضِ، وَلِخَوْضِهِ فِجاجَها العَميقَةَ، ولانْهِماكِهِ بِصَهْرِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والاسْتِزادَةِ مِنْهُما، ولِطَلَبِ غَيْرِها مِنَ الخَيْراتِ، وكُلُّ ذلكَ بِذَريعَةِ ألّا يُدْرِكَهُ العَوَزُ.

[ثُمَّ إنَّ الغَبِيَّ مِنْ هَؤلاءِ] لا يَشْعُرُ بأيِّ نَدَمٍ على الجَهْرِ بأنَّهُ سَعيدٌ لا مُلْتَفِتًا إلى أنَّ صُنّاعَ سَعادَتِهِ هذهِ عَبيدٌ مَغْلولونَ بالسَّلاسِلِ يَحفِرونَ الأرْضَ، حتّى أعْمَقِ أعْماقِها، بأيديهِمِ العارِيَةِ فَيَهْلِكُ مِنْهُمُ مَنْ يَهْلِكُ تَحْتَ ما يكونُ مِنِ انْهياراتِ التُّرْبَةِ وانْزياحاتِها ويَحْيا مِنْ يَحْيا فيُواصِلُ

حياتَـهُ البائِسَـةَ هذهِ كَمُجْـرِمٍ حُكِمَ عَلَيْهِ بالأشْـغالِ الشّاقَّة.

[أضْحَـكُ لهـذا الغَبِـيِّ الذي] يَضْـرِبُ فـي الأرْضِ طَلَبًا للذَّهَـبِ والفِضَّـةِ فَيَنْكُـتُ فـي النُّفاياتِ هُنـا، ويَنْقُلُ أكْـوامَ الرِّمـالِ مِـنْ هُنـاكَ إلـى هُنـا، وَيَشُـقُّ صَـدْرَ الأرْضِ هُنالِـك ــ يَشُـقُّ صَـدْرَ هـذهِ الأرْضِ التي هي مِنّـا فـي مَحَـلِّ الأمِّ ويُعامِلُها، لا آبِهًـا بِصَبْرِها، مُعامَلَةَ العَـدُوِّ اللَّدود.

[أضْحَـكُ لِهـذا الغَبِـيِّ الـذي] يَحْتَفِـلُ بِـهِ النّـاسُ ويُعْلُـونَ مِـنْ قَـدْرِهِ فـي حيـنِ أنَّ أقْدامَهُـم تَـدوسُ الأرَضْ، مَصْـدَرَ ثَرْوَتِـهِ، بالنِعـال».

لا غَـرْوَ أنْ يَقِـفَ أبقـراط مَذْهوشًـا بَيْـنَ يدي هذهِ التَّأَمُّـلاتِ. وحتّـى نَحْـنُ، أبنـاءَ الألفيَّـةِ الثّالِثَـةِ، لا نَمْلِـكُ إلّا الانْبِهـارَ بَيْـنَ يَدَيْهـا!

«أُمُّنـا الأرْضُ التـي يُشَـقُّ صَدْرُهـا طَمَعًا باسْـتِخْراجِ الذَّهَـبِ والفِضَّـة»... «الآدَمِيّـونَ المُسْـتَعْبَدونَ والمَغْلُولـونَ بالأصْفـادِ مِثْـلَ مَحْكومِيـنَ بالأشْـغالِ الشّـاقَّة»... مَـنْ يَمْلِـكُ أنْ يَقـولَ أكْـثَرَ مِمّـا يَقولُـهُ ديمقريطـس بِعبـاراتٍ أبْلَـغَ مِنْ عِباراتِـهِ لِيَصِفَ ما

يُـؤَدّي إلَيْهِ الشَّـبَقُ إلـى مُراكَمَةِ المَزيدِ مِـنَ الثَّرْوَةِ مِـنْ أخْطارٍ تُهَدِّدُ مُسْـتَقْبَلَ البَشَـرِيَّة؟ فَهذا الشَّـبَقُ لا يَقْـدَحُ فـي الكَمالِ والكَرامَةِ البَشَـرِيَّيْنَ فَحَسْـبُ، بـل يُزَيِّـنُ السَّـيَرَ فـي طَريـقٍ مَفْضـاهُ إلـى الجُنونِ والانْتِحار.

لِيُبَيِّـنَ الطَّبيعةَ الخادِعَةَ للأوْهـامِ التي يُزَيِّنُها المالُ والسُّـلْطانُ للبَشَـرِ، يُشَـبِّهُ سِـنِكا(*) فـي رسـائِلِهِ إلى لوكيلـوس العالَـمَ بِخَشَـبَةِ مَسْـرَح: مَثَـلُ السَّـعادَةِ التـي يَشْـعُرُ بِهـا الأثْرِيـاءُ مَثَـلُ الشُّـعورِ بالعَظَمَـةِ التـي يَشْـعُرُ بِهـا مُمَثِّـلٌ يُـؤدّي دَوْرَ المَلِـك. مـا إنْ تَنْتَهِـي المَسْـرَحِيَّةُ وَيَخْلَـعُ المُمَثِّـلُ ثِيـابَ المَلِـكِ يَعـودُ كُلُّ شَـيْءٍ إلـى حالِـهِ وَيَعـودُ كُلُّ أحَـدٍ إلـى مَحَلِّـهِ مِـنَ الإعراب:

لَيْـسَ مِـنْ كُلِّ هَـؤلاءِ الذيـن يَتَزَيَّـوْنَ بالإسْـتَبْرَقِ والأُرْجـوانِ مَـنْ هـوَ سَـعيدٌ حقًّـا. مَثَـلُ الواحِـدِ مِنْهُم مَثَـلُ أميـرٍ على خَشَـبَةِ مَسْـرَحٍ لَيْـسَ الصَّوْلَجـانُ مِنْهُ

(*) سِنِكا، (٤ ق.م. ـ ٦٥ م.)، فَيْلَسوفٌ وَخَطيبٌ وكاتِبٌ مَسْرَحِيٌّ رومانِيّ.

والعَباءَةُ إلّا عِدَّةَ الشُّغْلِ التي يَقْتَضيها مِنْهُ تَمْثيلُ هذا الدَّوْر. يَخْتَالُ الواحِدُ مِنْهُم أمامَ الجُمْهورِ وَيَتَبَخْتَرُ وَيَصولُ وَيَجولُ وَيَخْبِطُ الأرْضَ خَبْطًا بِمَداسِهِ ذي الكَعْبِ العالي ولكِنْ ما إنْ يَنْتَهِي الدَّوْرُ المُوْكَلُ إلَيْهِ تأدِيَتُهُ، ويَدْلِفُ إلى الكَواليسِ وَيَتَخَفَّفُ مِنْ زِيِّهِ ومِنْ مَداسِهِ حتّى يَعودَ مَنْ كانَهُ قَبْلَ اعْتِلائِهِ الخَشَبَةَ، ويَعودَ إلَيْهِ قَدُّهُ الذي وَهَبَتْهُ إيّاهُ الطَّبيعةُ بلا زِيادَةٍ ولا نُقصان. نَعَمْ، لَيْسَ مِنْ أحَدٍ مِنْ كُلِّ هَؤلاءِ الذي يُعْلي المالُ والجاهُ مِنْ شَأْنِهِم مَنْ هو كَبيرٌ حقًّا أو عَظيم».

وعلى ما يُتابِعُ سِنِكا فإنَّ ما يُطيشُ سَهْمَ عِلْمِنا بالنّاسِ ومَعْرِفَتِنا بِهِمْ هو أنَّنا لا نَرى إلى الواحِدِ مِنْهُم على حَقيقَتِهِ بَلْ نَرى إلى ما عَلَيْه مِنْ ثِيابٍ ومِنْ حُلِيٍّ:

«أمّا إنْ رُمْتَ أنْ تَتَبَصَّرَ بإنْسانٍ ما حَقَّ التَّبَصُّرِ، وأنْ تَزينَهُ حَقَّ الوَزْنِ، فانْظُرْ إلَيْهِ عارِيًا. أُدْعُهُ أنْ يَخْلَعَ عَنْهُ تَليدَهُ والطَّريفَ وما أنْعَمَتْ بِهِ عَلَيْهِ المَقاديرُ بَلْ جَرِّدْهُ بِنَظَرِكَ مِنْ جِسْمِهِ وانْظُرْ إلى روحِهِ وسَلْ نَفْسَكَ: هَلْ يَسْتَمِدُّ هذا الإنْسانُ ما يَبْدو عَلَيْهِ مِنْ رِفْعَةٍ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ أمْ أنَّ رِفْعَتَهُ رِفْعَةٌ مُسْتَعارَة؟

ثُـمَّ تَمْضـي القُـرونُ تِلْوَ القُـرونِ ويَضَعُ الفَيْلَسـوفُ جيوڤانـي پيكـو ديـلّا ميرانـدولّا(*) مُؤَلَّفَـهُ الشَّـهيرَ **رسـالَة فـي كمـالِ الإنْسـانِ وكرامَتِـه**، وَيُعَرِّفُنا بأنَّ حُرِّيَّـةَ الإرادَةِ هـي سِـرُّ هـذا الكَمالِ ومُسْـتَوْدَعُه.

فـإذْ خَلَـقَ اللّـهُ الإنْسـانَ، وإذْ وَزَّعَ الصِّفـاتِ والمُحَـدِّداتِ علـى مـا خَلَقَـهُ مِـنْ كائِنـاتٍ، وإذْ شـاءَتْ مَشـيئَتُهُ أنْ يَتَمَيَّـزَ الإنْسـانُ عَـنْ هـذِهِ الكائِنـاتِ، لَـمْ يَجِـدْ مِـنْ سَـبيلٍ إلـى ذلـكَ سِـوى بـأنْ يَرْفَـعَ التَّحْديـدَ عَنِ الإنْسـانِ وبِأنْ يَـدَعَ لَهُ أنْ يُقَـرِّرَ مَصيـرَهُ بِنَفْسِـهِ:

«أمّـا الكائِنـاتُ الأُخْـرى فَلَقَـدْ غَرَزْنـا فـي طَبيعَتِها قَوانيـنَ تَحْكُـم عَلَيْهـا. أمّا أنْـتَ، [أيُّها الإنْسـانُ]، فلا ضَوابِـطَ تَحْكُـمُ عَلَيْك. لَكَ، مُتَوَسِّـلًا بِمَلَـكَةِ التَّقْديرِ التـي وَهَبْنـاكَ إيّاهـا، أنْ تُحَـدِّدَ طَبيعَتَـكَ [...] وإذْ لَـمْ نَجْعَلْـكَ دُنْيَوِيًّا ولا سَـماوِيًّا، ولا فانيًـا ولا مُخَلَّدًا، فلِكَيْ تُشَـرَّفَ بأنْ تُقَرِّرَ بِنَفْسِـكَ ما تُريدُ أنْ تَـكونَهُ وأنْ تَـكونَ عَلَيْه».

(*) جيوڤانـي پيكـو ديـلّا ميرانـدولّا، (١٤٦٣ ـ ١٤٩٤)، فَيْلَسـوفٌ ولاهوتِـيٌّ إيطالـيٌّ مِـنْ وجـوهِ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبِّـيّ.

بالإحالَةِ إلى هذِهِ الحُرِّيَّةِ، للإنْسانِ أنْ يُقَرِّرَ بِنَفْسِهِ مَحَلَّهُ مِنْ هذا الكَوْنِ وفيه؛ لَهُ أنْ يَخْتارَ الذُّرى إلى جانِبِ الكائِناتِ السّامِيَةِ أوْ أنْ يَخْتارَ الحَضائِضَ إلى جانِبِ الوحوشِ العُجْم... للإنْسانِ الأمْرُ في أمْرِه: مَنْ تَهْدِهِ الفَلْسَفَةُ، مثلًا، في مَناكِبِ الحَياةِ، لَنْ يَلْبَثَ أنْ يُدْرِكَ بأنَّ كمالَهُ هو في طَلَبِ المَعْرِفَةِ لا في طَلَبِ الأرْباحِ والغَنائِم ــ مَعْرِفَةِ أسْبابِ الأشياء، ومَسالِكِ الطَّبيعَةِ، والتَّدابيرِ الإلهيَّةِ وغَوامِضِ الأرْضينَ والسَّماوات.

بالطَّبْعِ، لِرُؤْيَةِ ديلّا ميراندولّا الكَوْنِيَّةِ القائِمَةِ على مَرْكَزِيَّةِ الإنْسانِ في الكَوْنِ حُدودُها بَيْدَ أنَّ هذِهِ الحُدودَ لا تُقَلِّلُ في شَيْءٍ مِنَ الإكْبارِ الواجِبِ لَهُ عَلَيْنا بِلِحاظِ الجُهْدِ النَّظَرِيِّ الذي بَذَلَهُ لِتَخْليصِ الحِكْمَةِ والكَمالِ البَشَريِّ من رَبِقَةِ الرِّبْحِيَّةِ القاتِلَة:

«وَيَزيدُ الأمْرَ سُوءًا أنَّنا بِتْنا لا نَعُدُّ في الحُكَماءِ إلّا مُرْتَزَقَةَ الحِكْمَة. حتّى العَفيفةُ بَيْنَ العَفيفاتِ،

بـالاس[*] التـي اختـارَتْ بِنِعْمَـةٍ مِـنَ الآلِهَـةِ أنْ تَسْـتَوْطِنَ بيَـن البَشَـرِ، باتَـتْ بِحُكْـمِ الطَّريـدَةِ والمَرْذولَـة. لا مَـنْ يَبْـذِلُ الحُـبَّ لبـالاس ولا مَـنْ يَلْتَفِـتُ إلَيْهـا ــ اللَّهُـمَّ أنْ تَبيعَ نَفْسَـها على مَعْنًى مـا، وأن تُعَهِّرَهـا، وأنْ تَشْـتَرِيَ بالثَّمَـنِ البَخْـسِ لِعُذرِيَّتِهـا السَّـليبَةِ رِضـى عَشـيقٍ يَسـومُها المَذَلَّـةَ لقـاءَ عِشْـقِهِ إيّاهـا».

ولأنَّ الأُمـورَ آلَـتْ إلـى مـا يَصِفُ ديـلا ميراندولّا، فـلا غَـرْوَ أنْ نَرى الكاتِبَ المُهْنَدِسَ ليون باتّيسـتا ألبيرتـي[**] يَضَـعُ كِتابًـا بأُمِّهِ وأبيـهِ لِيُثْبِتَ ضَرورَةَ أن يُكَـرِّسَ المَـرْءُ حياتَـهُ أجْمَـعَ، إنْ رامَ الفَضيلَـةَ حقًّـا، لِدِراسَـةِ الآدابِ والتَّبَحُّـرِ فيهـا لا مُلْقِيًـا بالًا إلى داعـي الكَسْـبِ والإثْراء.

فـي الصَّفحـاتِ الأخيـرَةِ مِـنْ كِـتابِهِ هـذا، وهـي صَفَحـاتٌ يُتَرجِـمُ فيهـا ألبيرتـي لِنَفْسِـهِ، يَقُـصُّ علـى قُرّائِـهِ قِصَّـةَ حُبِّـهِ الخالِـصِ للمَعْرِفَـة:

(*) پالاس، إلَهَةٌ إغْريقيَّةٌ تُنْسَبُ، في ما تُنْسَبُ، إلى الحِكْمَة.

(**) ليـون باتِسـتا ألبرتـي، (١٤٠٤ ـ ١٤٧٢)، مِعْمـارٌ وعالِـمُ رِياضيّـاتٍ وشـاعِرٌ إيطالِـيّ.

«لِوَجْـهِ الآدابِ، على ما يَعـرِف بَعْضُ النّاس، ما كانَ مِـنْ صُمـودي بِشـجاعَةٍ وعَزْمٍ لِمـا تَكَبَّدْتُهُ مِـنْ فَقْرٍ ومـا عانَيْتُـهُ مِنْ ظُلْـمٍ وعَداوَة. نَعَمْ، لـم أصْمُدْ لِكُلِّ هـذهِ المِحَنِ والإحَـنِ مِنْ بابِ الاسْـتِمْتاعِ بالتَّحَدّي، ولا فـي سَـبيلِ كَسْـبٍ مـادِيٍّ لِما تَعَـذَّر عَلَـيَّ الفَوْزُ بِـهِ لَـو ارْتَأَيْـتُ أنْ أُقايِضَ التِّجـارَةَ بِصُحْبَةِ الكُـتُب. ألا حَبَّـذا أنْ تَتَّقِـدَ روحُ أهْلِ الآدابِ بالشَّـوْقِ الدّائِمِ إلـى الحِكْمَةِ لا إلـى المال».

علـى غـرارِ ألبرتـي، يَذْهَـبُ واضِـعُ رسـالةِ **فـي السُّـمُوّ** إلـى أنَّ حُـبَّ الثَّـرْوَةِ داءٌ وبَيـلٌ لا يُفْسِـد النَّفْـسَ الإنْسـانِيَّةَ فَقَـطْ بَلْ يُفْسِـدُ المُجْتَمَعَ أيْضًا والحَيـاةَ المَدَنِيَّـة:

«أجَـلْ، إنَّ الجَشَـعَ إلـى الثَّـرْوَةِ الـذي يَفْتِـكُ بِنـا فَتْـكًا لا نَمْلِـكُ مَعَـه أنْ نُثْنِـيَ أنفُسَـنا عَنْـهُ، وحُـبَّ الشَّـهَواتِ الـذي يَفْتِـكُ بِنـا الفَتْـكَ نَفْسَـهُ، يَحْكُمـانِ عَلَيْنـا بِعُبوديَّـةٍ لا مَفَـرَّ مِنْها. بَلْ قُلْ إنَّ هذا الجَشَـعَ وذَلِـكَ الحُـبَّ لأَشْـبَهُ بِخَرْقَيْـنِ فـي سَـفينَةٍ يَحْكُمانِ عَلَيْهـا بالغَـرَقِ المُحَتَّـم. إنَّ الجَشَـعَ إلى الثَّـرْوَةِ دَاءٌ مُـذِلٌّ [...] وَمَـعَ إطالَـةِ التَّفْكيرِ في الأمَـرِ فإنَّني، في الحَقيقَـةِ، لا أفْهَـمُ كَـيْفَ أنَّنـا، نَحْـنُ الذيـن نُعْلـي مِـنْ شَـأْنِ الثَّـرْوَةِ، بَـلْ يَصِـلُ بِنـا الأمْـرُ إلـى تَأْليهِها،

ونَعْمى، في ما هي تَنْمو بَيْنَ أيْدينا وتَتَراكَم، عَنْ كُلِّ العُيوبِ والمَضارِّ التي تَسْتَنْبِتُها في أنْفُسِنا».

في أنَّ الحُبَّ على سَبيلِ الحِيازَةِ والامْتِلاكِ يَقْتُلُ الحُبّ!

على غِرارِ ما إنَّ التَّأَمُّلَ في الكَمالِ البَشَريِّ يُفْضي إلى تَقْديمِ المَجّانِيَّةِ على سِواها مِنَ القِيَمِ، كَذَلِكَ التَّأَمُّلُ في الحُبّ. فَلُحْمَةُ الحُبِّ وسَداهُ ــ الحُبُّ الحُبُّ ــ هو العَطاءُ الخالِصُ بلا مُقابِلٍ وبِلا تَوَقُّعٍ لأيِّ مُقابِل. مِنْ ثَمَّ فإنَّ أشْبَهَ ما يُمْكِنُ أنْ يُشَبَّهَ بِهِ الحُبُّ الحَقيقيُّ هو اللِّقاءُ بَيْنَ كائِنَيْنِ يَسيرُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما بِمِلْءِ حُرِّيَّتِهِ نَحْوَ الآخَر. إنَّ ما يَجْمَعُ بَيْنَ هَذَيْن الكائِنَيْنِ هو الرَّغْبَةُ المُتَبادَلَةُ في اللِّقاءِ بِمَعزِلٍ مِنْ أيِّ غَرَضٍ شَخْصِيٍّ أو أنانِيٍّ سِوى هذا اللِّقاءِ نَفْسِه.

أمّا متى ما اسْتَعْلَتْ لدى الواحِدِ مِنَ النّاسِ داعَيَةُ التَّمَلُّكِ والحِيازَةِ، فَيَنْقَلِبُ الحُبُّ لَدَيْهِ إلى ما نُسَمّيهِ الغَيْرَة. ومِنْ عَلاماتِ الغَيْرَةِ أنْ

يَسْتَوْلِيَ على المُحِبِّ الهَوَسُ بأنْ يَتَحَقَّقَ في كُلِّ حينٍ مِنْ إخْلاصِ مَحْبوبِهِ لَهُ، وأمانَتِه، وصَفاءِ مَشاعِرِه ونَقائِها.

وحَسْبي في هذا المَقامِ أنْ اسْتَشْهِدَ بِشاهِدَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ أثَرَيْنِ أدَبِيَّيْنِ عَظيمَيْنِ خالِدَيْن: أُحْدوثَةِ «رِنو والفارِس ذي الكَأْسِ الذَّهَب» (التي نَدينُ بِها لِقَلَمِ شاعِرِ النَّهْضَةِ الإيطاليِّ لودوڤيكو أريوستو، (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣)، والتي تَرِدُ في النَّشيدِ الثّالِثِ والأرْبَعينَ مِنْ **رولان غَضوبًا**)، والأُحْدوثَةِ المُعَنْوَنَةِ «في أنَّ الفُضولَ عَيْبٌ فادِحٌ» التي تَرِدُ في القِسَمِ الأوَّلِ مِنْ رائِعَةِ ميغيل دي ثيربانتس، (١٥٤٧ ـ ١٦١٦)، **دون كيخوته**.

أدْرَكَ اللَّيْلُ رِنو، بَطَلَ حِكايات أريوستو، بَيْنَ مانتو وفيراري مِنْ أعْمالِ إيطاليا، فاسْتَقَرى إلى أحَدِ قُصورِ المِنْطَقَةِ التي وَجَدَ نَفْسَهُ فيها. على نِهايَةِ العَشاءِ دعاهُ رَبُّ القَصْرِ إلى امْتِحانِ الكأسِ الذَّهَب. أمّا مُفادُ هذا

الامْتِحانِ فأنْ يَتَجَرَّعَ المُمْتَحَنُ ما في الكَأْسِ تِلْكَ مِنَ الخَمْر: فإنْ تَجَرَّعَ ما فيها ولَمْ يَسِلْ شَيْءٌ مِنْهُ على صَدْرِهِ فَمَعْناهُ أنَّ زَوْجَةَ المُمْتَحَنِ مُخْلِصَةٌ لَه. رَفَعَ رِنو الكَأْسَ بِيَدَيْهِ وَلكنَّهُ، قَبْلَ أنْ يُدْنيها إلى شَفَتَيْهِ، عَدَلَ عَنْ خَوْضِ الامْتِحانِ وأعادَ الكَأْسَ إلى مَحَلِّها مِنَ المائِدَةِ، مُتَحَيِّرًا كُلَّ الحَيْرَةِ بَيْنَ رَغْبَةٍ جامِحَةٍ إلى مَعْرِفَةِ حَقيقَةِ إخْلاصِ زَوْجِهِ لَهُ وبَيْنَ داعِيَةِ الجَهْلِ حيطَةً وحَذَرًا.

يَنْتَهي الأمْرُ بِرِنو إلى العُزوفِ عَنْ وَضْعِ نَفْسِهِ تَحْتَ الامْتِحان: في مَعْرِضِ الحُبِّ، ثَمَنُ الوُقوفِ على الحَقيقَةِ، أو مُحاوَلَةُ الوُقوفِ على الحَقيقَةِ، أن يُخَلِّيَ المَرْءُ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ أنْ تَسْتَوْليَ عَلَيْها الشُّكوكُ والرِّيَب.

على وَشْكِ الإمْتِحانِ، أدْرَكَ رِنو أنَّهُ لا يَسْعى وَراءَ حقيقَةٍ لا سَبيلَ، أصْلًا، إلَيْها إلّا امْرُؤٌ يَتَلَذَّذُ بالعَذاب. فإنّما شَرْطُ الحُبِّ المَشْروطُ أنْ يَتَخَلّى المُحِبُّ عَنْ طَلَبِ اليَقين.

لا مَحَلَّ فـي الحُبِّ المُؤَسَّـسِ على الاحْتِـرامِ بَيْنَ الحَبيبَيْـنِ إلّا للثِّقَـةِ والاطْمِئْنـان. يَقولُ رِنو:

«حَسـبِيَ مـا في نَفْسـي مِـنْ ثِقَـةٍ ومِـنِ اطْمِئْنان... لَقَـدْ كَفَيانـي فـي مـا مضـى، ولـي فيهمـا اليَـوْمَ ما أحْتاجُـهُ مِـنْ كِفايَـة.... نافِـلٌ، إذًا، أنْ أضَـعَ نَفْسـي تَحْـتَ الامْتِحان».

عِنْـدَ هـذا الجَـوابِ أجْهَـشَ الفارِسُ، مُضيـفُ رِنو، بالبُـكاءِ واعْتَـرَفَ لَهُ بـأنَّ الغَيْرَةَ هي مـا كانَ وَراءَ مـا بَيْنَـهُ وبَيْـنَ زَوْجِه مِـنْ فِراق.

فَلَقَد كانَ يَوْمًا أنْ تَسَـلَّطَ عَلَيْهِ الشَّـكُّ في خِيانَتِها إيّـاهُ واسْـتَبَدَّ بِـهِ الخَـوْفُ مِـنْ أن يُهْجَـرَ، فَشَـرَعَ يَمْتِحِـنُ إخْلاصَهـا لَـهُ بِكُلِّ أشْـكالِ الامْتِحان.

صَمَـدَ وَفـاءُ الـزَّوْج لِـكُلِّ ما نَصَبَـهُ لهـا زَوْجُها مِنْ أحابيـلَ وشِـراكٍ إلـى أنِ اقْتَـرَحَ عَلَيْـهِ أحَدُهُم أنْ يَدْفَـعَ إلَيهـا كَلْبًـا لَهُ يَخْـرَأُ ذَهَبًا وجَواهِـرَ لِقاءَ أنْ تَقْضِـيَ لَيْلَةً فـي فِراشِـهِ فَوافَقَت...

لا يَتَمَكَّـثُ أريوسـتو طَويـلًا عِنْـدَ فِكْـرَةِ الإفْسـادِ التـي يَتَسَـبَّبُ بهـا الجَشَـعُ إلـى مُراكَمَـةِ الثَّـرْوَةِ

والمالِ بِمِقْدارِ ما يَتَمَكَّثُ عِنْدَ مَسْؤوليَّةِ الزَّوْجِ الذي تَسَبَّبَ هو نَفْسُهُ، باسْتيلاءِ وَسْواسِ الخِيانَةِ عَلَيْهِ ــ خِيانَةِ زَوْجَتِهِ له.

أصْغى رِنو إلى اعْتِرافاتِ الفارِسِ ذي الكأسِ الذَّهَبِ ثُمَّ عابَ عَلَيْهِ ما اعْتَبَرَهُ خِفَّةً في سُلوكِهِ وحَماقة. فالمَسْؤوليَّةُ عمّا كانَ مِنْ أمْرِ الفارِسِ وَزَوْجِهِ لا تُنْسَبُ إلى الزَّوْجِ وإنَّما إلى الفارِسِ الذي زَيَّنَ له الكِبْرُ والتَّجَبُّرُ أنْ يَمْتَحِنَ إخْلاصَ زَوْجِهِ وصُمودَها أمامَ المُغْرِيات. كانَ الأوْلى بِهِ، بالفارِسِ، أن يَقْهَرَ داعِيَةَ المِلْكِ والحِيازَةِ، وأنْ يَرْتَضيَ بالسَّكَنِ إلى زَوْجِهِ، على بَيِّنَةٍ مِمّا قَدْ يَتَخَلَّلُ هذهِ العِشْرةَ مِنْ مُنَغِّصاتٍ لَيْسَ أقَلَّها فِراقُ ما بَيْنَ الزَوْجَيْن. بِكلامٍ آخَرَ، كانَ الأوْلى بِهِ أنْ يُسَلِّمَ بِهشاشَةِ الحُبِّ وضَعْفِهِ أمامَ الحادِثاتِ وأنْ يَدْفَعَ عَنْهُ التَّوَهُّمَ بأنَّ رابِطَ الحُبِّ لا انْحِلالَ لِوَثاقَتِهِ وأنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ على أنَّ العَلاقاتِ بَيْنَ البَشَرِ لا تَخْلو مِنْ أنْ يَشوبَها الغُموضُ، ولا تَخْلو أنْ تُظَلِّلَها أحيانًا ظِلالٌ مِنَ الشُّكوكِ ومِنَ الظُّنون.

مِـنْ ثَـمَّ فَمَـنْ يَطْلُـبُ فـي مَقـامِ الحُـبِّ الشَّـفافيَّةَ التّامَّـةَ، والحَقيقَـةَ بالمُطْلَـقِ، إنَّمـا يُقَـوِّضُ بِيَدَيْـهِ أركانَ هـذا الحُـبِّ ويَخْنُـقُ، بِذَريعَـةِ المبالَغَـةِ فـي الحَـدْبِ، أنفاسَـه.

إلـى شَـيْءٍ شَـبيهٍ بِحِكْمَـةِ رِنـو تَنْتهـي أُقْصوصَـةُ ثرفانتـس «فـي أنَّ الفُضـولَ عَيْـبٌ فـادِحٌ». تُصَـوِّرُ هـذِهِ الأُقْصوصَـةُ صَديقَيْـنِ مُتآخِيَيْـنِ هُمـا لوتيـر وآنْسِـلْم. يَتَـزوَّجُ آنْسِـلْم الفاتِنَـةَ كاميّـي، وَرَغْـمَ الهَنـاءَةِ التـي تُخَيِّـمُ علـى حياتِهِمـا وعلـى حُبِّهِمـا يَتَسَـلَّلُ الشَّـكُّ إلـى صَـدْرِهِ ويَبْـدَأُ بإيغـارِه: هَـلْ يَسْـتَقيمُ لامْـرأةٍ لَـمْ يُمْتَحَـنَ إخْلاصُهـا لِزَوْجِهـا قَطُّ أنْ تُوصَـفَ بالمُخْلِصَـة؟

«هـل يُعْقَـلُ أنْ يُحْمَـدَ مِنِ امْرَأَةٍ سُـلوكُها مِنْ قَبْلِ أنْ تُسَوِّلَ لَها نَفْسُها الزَّلَـلَ فَـتَـتَأبّى عَنْه؟

هَـل يُعْقَـلُ أنْ تُمْـدَحَ لِتَواضُعِهـا وَخَفيـضِ جَناحِهـا طالَمـا أنَّ سـانِحَةَ التَفَلُّـتِ لَـمْ تَسْـنَحْ لهـا بَعْـدُ مَـعَ عِلْمِهـا بـأنَّ زَوْجَهـا لَـنْ يَتَـرَدَّدَ فـي قَتْلِهـا جَـزاءَ أيِّ فَلْتَـةٍ تَفَلُـتُ مِنْهـا؟ إنَّ المَـرْأَةَ الفاضِلَـةَ عَـنْ خَـوْفٍ وَرَهْبَـةٍ، العَفيفةَ عَياءَ عَشـيقٍ تُواعِدُهُ، لَيْسَـتْ عِنْدي

فـي شَـيْءٍ بَيْنَ يَـدَيِّ المَـرْأَةِ التي تَصُدُّ بِحَـزْمٍ خُطّابَ الـوُدِّ مَهمـا بَلَغ إلْحاحُ هَـؤلاءِ الخُطّـابِ عَلَيْها وبَلَغَتْ مُناشَـداتُهُم إيّاهـا».

مُسَـلِّمًا أمْـرَهُ لِسُـلْطانِ الغَيْـرَةِ يَطْلُـبُ آنْسِـلْم مِـنْ صَديقِـهِ لوتيـر أنْ يُغَـرِّرَ بكاميّـي، امْتِحانًـا لأمانَتِهـا وإخْلاصِهـا. يُعـارِضُ لوتيـر صديقَـهُ فـي مـا يُريـدُهُ عَلَيْـهِ ويَحْشُـدُ لِثَنْيِـهِ عَـنْ مَطْلَبِـهِ حُجَجًـا تُسَـفِّهُ هـذا المَطْلَـبَ كُلَّ التَّسْـفيه: فـإنْ تَمَنَّعَـتِ الـزَّوْجُ المَشْـكوكُ بِهـا وحَفِظَـتْ ذِمَّـةَ زَوْجِهـا فَلَـنْ يَكونَ مِـنْ شَـأْنِ ذَلِـكَ أنْ يَزيـدَ مِـنْ حُبِّهـا لِزَوْجِهـا، وإنْ لَـمْ تَـتَمَنَّعْ وجـارَتِ المُغَـرِّرَ بِهـا فـي ما يُريـدُ فإنَّ الـزَّوْجَ، بافْتِعالِـهِ التَّغْريـرَ، يِكـونُ قَـدِ افْتَـرى علـى نَفْسِـهِ واسْـتَجْلَبَ لَهـا العـار.

ويَزيـدُ لوتيـر علـى حُجَّتَيْـهِ هاتَيْـنِ حُجَّـةً ثالِثَـةً فيَسْتَشـهِدُ بِمـا كانَ مِـنْ أمْـرِ رِنو وتَقديمِـهِ التَّرَوّي علـى خَـوْضِ امْتِحـانِ الـكأسِ الذَّهَـب:

«لَسَـوْفَ يَدْمـى قَلْبُـكَ وَتَـذْرِفُ الدَّمـوعَ الحَـرّى إنْ سِـرْتَ علـى خِطَّتِـكَ هـذهِ ويَكـونُ شـأنُكَ شـأنَ ذاكَ الـذي يَـروي لنـا أريوسـتو قِصَّتَـهُ فـي **رولان غَضوبًـا**

عِلْمًا أنَّ رِنو، كما تَعْلَم، رَفَضَ الامْتِحانَ ورَفَضَ أنْ يَتَجَرَّعَ الخَمْرَ الذي في تلكَ الكأسِ المَسْحورَة. لَعَلَّ هذهِ القِصَّةَ مِنْ نَسْجِ الخَيالِ ولكنَّ فيها حِكْمَةً حَقُّها مِنّا التَّأَمُّلُ والاتِّباع».

يَكونُ هذا مِنْ لوتير ولكنَّ حِكْمَتَهُ تُخْفِقُ في أنْ تَكْتُبَ نِهايَةً سَعيدَةً لِقِصَّةِ حُبِّ آنْسِلْم وكاميي. فما هي حَتّى يَقَعَ لوتير في حُبِّ كاميي، وتَقَعَ كاميي في حُبِّ لوتير، فَيَموتُ آنْسِلْم كَمَدًا ولا يَلْبَثُ العاشِقانِ أنْ يَموتا بِدَوْرِهِما.

مُسْتَبِقًا على مَوْتٍ لا مَفَرَّ مِنْهُ، يَكْتُبُ آنْسلم على نِيَّةِ زَوْجِهِ كَلِماتٍ، يَعْتَرِفُ لها فيها بأنَّهُ السَّبَبُ في ما جرى:

«لَقَدْ كَلَّفني حَياتي عَيْبٌ فادِحٌ عُيِبْتُ بِه. إنْ بَلَغَ نَبَأُ مَوْتي كاميي فَلْتَعْلَم أنَّني صَفَحْتُ عَنْها: لا هي كانَ عَلَيْها أنْ تأتِيَ بالمُعْجِزاتِ ولا كانَ لي، أنا، أنْ أطْلُبَ مِنْها ذلك. وبِما أنَّني اسْتَجْلَبْتُ العارَ على نَفْسي، فَحَقّي أن...».

أقَلُّ ما يُقالُ في هذهِ الأُقْصوصَةِ أنَّها تُثْبِتُ، إنْ كانَ الأمْرُ يَحْتاجُ إلى إثْباتٍ، فِطْنَةَ ثرفانتس

فـي قـراءَة أريوسـتو. علـى أنَّـهُ، وفـي مـا يَتَجـاوَزُ هذَيْـنِ العَلَمَيْـنِ، أريوسـتو وثرفانتـس، فـإنَّ أهـمَّ مـا فـي القِصَّتَيْـنِ المُسْتَشْـهَدِ بِهِمـا أنَّهُمـا، وإنِ اتَّخَذَتـا العَلاقـاتِ الغَرامِيَّـةَ مَوْضوعًـا، تَذْهَبـانِ في الخُلاصـاتِ التـي يُمْكِـنُ اسْـتِخْلاصُها مِنْهُمـا إلـى أبْعَـدَ مِـنْ هـذا القَبيـلِ مِنَ العَلاقـاتِ حَيْـثُ إنَّهُما، فـي العُمْقِ، تَأَمُّلاتٌ في مَسْـأَلَةٍ أوْسَـعَ هي مَسْـأَلَةُ التَّسـامُح: فلوتيـر، علـى خُطى رِنو وهَدْيـه، يَدْعونا أنْ نُسَـلِّمَ بـأنَّ الهَشاشَـةَ مَكْـتوبَةٌ فـي طَبيعَـةِ كُلِّ مـا نَفْتَحُـهُ مِـنْ فُتـوحٍ وَنَحـوزُهُ مِـنْ حِيـازاتٍ ومِـنْ أمـاراتِ هـذه الهَشاشَـةِ العُمْـرُ القَصيـرُ للبَشَـرِ والأشْـياءِ سـواءٌ بِسَـواء!

ومَهْمـا طَلَبْنـا مِـنْ أمْثِلَةٍ علـى الحُبِّ وَمَآلاتَـهِ ومِنْ عَيِّنـات، فَلَـن نَنْتَهِـيَ إلّا إلـى الخُلاصَـةِ إيّاهـا: لا حُـبَّ على سَـبيلِ التَّمَلُّـكِ والحِيازة. ويُغالِطُ نَفْسَـهُ مَـنْ يَحْسَـبُ أنَّ بِوَسْـعِهِ أنْ يَحْبِـسَ الحُـبَّ فـي دائِـرَةٍ مُغْلَقَـةٍ وأنْ يُكْرِهَـهُ علـى قَضاءِ العُمْـرِ فيها: بِبَسـاطَةٍ، لا ما يَحْفَظُ الحُبَّ مِمّا هو مَكْـتوبٌ في

الطَّبيعَـةِ البَشَـرِيَّةِ مِنْ نُزوعٍ إلى التَّحَوُّلِ والتَّناسُـخِ، وهـذا مـا يَذْهَبُ إليه الفَيْلَسـوفُ الفَرَنْسِـيُّ ديدرو حَيْـثُ يَأْتـي تَحْـتَ قَلَمِـهِ فـي كِتابِـهِ **حاشِـيَة على رِحْلَـةِ بوچانڤيل:**

«وَهَـلْ أخْـرَقُ مِـنَ التَّعاليـمِ التـي تَـنَفي مـا هـو مَكْـتوبٌ في طَبيعَتِنا مِنْ نُزوعٍ إلـى التَّبَدُّلِ والتَّغَيُّر؟ أوْ هَـل أخْـرَقُ مِـنْ عَهْـدٍ بـ"الوَفـاءِ المُتَبـادَلِ"، مـدى الدَّهْـرِ، يَقْطَعُـهُ علـى نَفْسَـيْهِما كائِنـانِ مِـنْ لَحْـمٍ ودَمٍ تَحْـتَ سَـماءٍ تُمْطِـرُ حينًـا وتَصْحـو حينًـا آخَـرَ، أو يُشْـهِدانِ عَلَيْـهِ صَخْـرَةً مَصيرُها، رَغْـمَ صَلابَتِها، أنْ تَـتَفَتَّتَ يَوْمًا، أو يُشْـهِدانِ عَلَيْهِ شُـجَيْرَةً لَنْ تَلْبَثَ أنْ تَسْـمِقَ حتّـى لَتُضـارِعَ الغُيـومَ ارْتفاعًـا؟».

بَيْـتُ القصيـد: لا سَـبيلَ إلـى حَبْـسِ الحُـبِّ فـي الأقْفاصِ والزَّنازين، فَشـيمَةُ الحُبِّ التَّرْحالُ والسَّفَر. حَسْـبُنا، رُبَّمـا، لِنُـدْرِكَ المَقْصـودَ بِهـذا الـكَلامِ أنْ نَسْـتَحْضِرِ الصّـورَةَ الرّائِعَـةَ التـي اسْـتَخْدَمَها ريلكِه فـي إحْـدى رَسـائِلِهِ الغراميَّـة:

«مَنْـزِلُ الحُـبِّ، إنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ بُـدٌّ مِـنْ مَنْـزِلٍ، راحَةُ كَـفٍّ مَبْسـوطَةٌ لَـهُ أنْ يَقِفَ عَلَيْهـا أو أن يَطير. أمّا إنِ انْقَبَضَـتْ هـذهِ الكَفُّ فلا يُدْهِشَـنَّنا أنْ يَموتَ الحُبُّ، وأن تَصيـرَ مِنْـهُ كالتّابوتِ مِـنَ المَيّت...».

فشَهْوَةُ المِلْكِ والحِيازَةِ تَقْتُل:

«نَظَراتُ المَرْءِ هي سِلاحُهُ الأمْضى [...] وإن كُتِبَ لأحَدٍ ما أنْ يُثْرِيَ فَلَيْسَتِ الثَّرْوَةُ ما قَدْ يَسْتَقِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ لحينٍ مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ لا يَلْبَثُ مِنْ بَعْدِهِ أنْ يَتَبَخَّرَ، وإنَّما الثَّرْوَةُ كُلُّ ما يُمْكِنُ أنْ يَدْخُلَ في مِلْكِهِ وأنْ يَخْرُجَ مِنْهُ مَثَلَ الدَّخولِ إلى مَنْزِلٍ مِنْ بابِهِ والخُروجِ مِنْها. بِئْسَ أيْدينا إنْ تَحَوَّلَتْ إلى تَوابيتَ نُسَجّي فيها ما نَمْلِك. حَقُّ أيْدينا وشَرَفُها أنْ تَكونَ أسِرَّةً تَنامُ فيها الأشياءُ نَوْمَ الهَناءِ سابِحَةً في أحْلامِها... حَقُّها أنْ تَكونَ أسِرَّةً وَثيرةً تُعَبِّرُ فيها الأشْياءُ خِلالَ نَوِمِها، وخِلالَ أحْلامِها، عَنْ حَميمِيّاتِها الأعَزِّ ودُخْلُلِها المَحْجوبِ عَنِ الأنظارِ [...] فَقَرينُ المِلْكِ والحِيازَةِ الفَقْرُ والقَلَقُ أمّا المِلْكُ والحيازَةُ في مَعْزِلٍ من الفَقْرِ والقَلَقِ فَمَقامٌ لا يَبْلُغُ إلَيْه إلّا مَنْ مَلَكَ وحازَ وأحْسَنَ التَّخلّي عَمّا مَلَكَهُ وحازَه».

في أنَّ امْتِلاكَ الحَقيقةِ وحيازَتَها قَتْلٌ للحَقيقَة

بَيْنَ الحُبِّ والحَقيقَةِ مَسافَةُ خُطْوَةٍ أو أقلّ. فَلْنَسْتَحْضِر أسْطورَةَ إروس بِروايَةِ أفلاطونَ

وهـي الأُسْـطورَة التـي ذاعَ صيتُهـا كُلَّ الذُّيوع لا سِـيَّما فـي عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأُوروبِـيّ.

فـي الحِوارِيَّـةِ المَوْسـومَةِ بـ **المَأدُبـة** يُقـارِن الفَيْلَسـوفُ «الحُـبَّ» بـ«الفَلْسَـفَة». كلاهِمـا يَخْضَـعُ لحُكْـمِ الأضْدادِ في الْتِقائِهِمـا وافْتِراقِهِما المُتَّصِلَيْـنَ إلـى مـا لا نِهايـة.

تُفَصِّـلُ خُرافَـةُ مَوْلِدِ إروس التـي تَقُصُّها الكاهِنَةُ ديوتـوم وَيَرْويهـا أفلاطـون فـي **المَأدُبـة** بِسَـنَدِ سـقراط ــ تُفَصِّـلُ وَجْـهَ الشَّـبَهِ بَيْـنَ الاثْنَيْـنِ علـى أفْضَـلِ مـا يكـون:

خِـلالِ احْتِفـالٍ بِمَوْلَـدِ أفروديـت، (رَبَّـةِ الحِكْمَةِ عِنْـدَ الإغريـق)، يَقْتَـرِنُ پـوروس، (رَبُّ الثَّـرْوَة)، وقـد أسْـكَرَهُ مـا احْتَسـاهُ مِـنْ رَحيـقِ پِنْيـا (رَبَّـةِ العَـوَزِ): مِـنْ هـذا الفِـراشِ يُولَـدُ إروس الـذي يَـرِثُ عـن أبَوَيْـهِ طَبيعَتَيْهِمـا المُتعارِضَـةِ، ومِـنْ ثَـمَّ يُقَـدَّرُ لَـهُ أنْ يُعْـوِزَهُ كُلُّ شَـيْءٍ وأنْ يَنْعَـمَ بِـكُلِ شَـيْء. كذلـكَ، ولأنَّ إروس لَيْـسَ بالفانـي

ولا بالمُخَلَّد، ولأنَّه لَيْسَ بالمُعْوَزِ ولا بالغَنِيِّ، يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أنْ يَضْطَلِعَ بِدَوْرِ «الوَسيطِ»، وبِهذا المَعْنى يَنْعَقِدُ الشَّبَهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الفَيْلَسوفِ المُعَلَّقِ حُكْمًا، وعلى الدَّوامِ، بَيْنَ الحِكْمَةِ والجهالَة.

بَلْ أكْثَرُ مِنْ ذلِكَ: في مَحَلٍّ وَسَطٍ بَيْنَ الآلِهَة الذين تُغْنيهم أُلوهِيَّتُهُم عَنْ طَلَبِ الحِكْمَةِ ونُشْدانِها، وبَيْنَ الجَهَلَةِ الذين يُغْنيهم تَوَهُّمُهُم امْتِلاكَ الحِكْمَةِ عَنْ طَلَبِها ونُشْدانِها، لا يَجِدُ الفَيْلَسوفُ المُحِبُّ للحِكْمَةِ حقَّ المَحَبَّةِ لِنَفْسِهِ مَفَرًّا مِنَ السَّعْي، بلا كَلالَةٍ، إلى مُداناةِ الحِكْمَةِ والاقْتِرابِ ما أمْكَنَ مِنْها.

بأُسْلوبٍ مُبْتَكَرٍ يَسْتَعيرُ جيوردانو برونو صورةَ الفَيْلَسوفِ طالِبِ الحِكْمَةِ، المُثابِرِ، خاطِبِ وُدِّها مِنْ غَيْرِ بأسٍ ولا قُنوطٍ ــ يَسْتَعيرُ هذهِ الصّورَةَ ويَجْلوها حتّى آخِرِ ما يُمْكِن لِجَلْواها أنْ تُفْضِيَ إلَيْهِ مِنْ نَتائِج.

يَسْتَوْحي برونو في كِتابِهِ **الغَضَبات البُطوليَّة** أساليبَ الشِّعْرِ الغَزَلِيِّ مُوَظِّفًا إيّاها لِبَيانِ ما يَكْدَحُهُ طالِبُ الحِكْمَةِ مِنْ كَدْح. وبِلِحاظِ أنَّ تَقْبيلَ ثَغْرِ الحَبيبِ المُتَمَنِّعِ هو غايَةُ العاشِقِ الوَلْهان، يُؤَوِّلُ برونو القُبْلَةَ مُؤَوَّلَ الرَّمْزِ مِمّا يَنْشُدُهُ الفَيْلَسوفُ «الغَضِبُ» في سَعْيِهِ البُطوليِّ إلى الحِكْمَة.

مَحْمولًا على مَتْنِ الشَّوْقِ المَحْمومِ الذي يُشَوِّقُ العاشِقَ الوَلِهَ إلى ما يَصْبو إلَيْهِ، يَتَحَوَّلُ طَلَبُ الحِكْمَةِ إلى شَيْءٍ أشْبَهَ بالطِّرادِ الذي تَرْفِدُهُ روحٌ قِتالِيَّةٌ مَشْبوبَة:

> «كُلَّما بدا للمَرْءِ أنَّ في الأُفُقِ حَقيقةً أهْلٌ لأنْ تُعْرَفَ وخَيْرًا أهْلٌ لأنْ يُسْتَجْلَبَ، عادَ عَوْدَهُ واسْتأنَفَ سَعْيَه طَلَبًا لِتِلْكَ الحَقيقَةِ واسْتِجْلابًا لِذَلِكَ الخَيْر. ولا نِهايَةَ لِهذا الطَّلَبِ عِنْدَ حَقيقَةٍ مُحَدَّدَةٍ ولا نِهايَة لهذا الاسْتِجلابِ عِنْدَ خَيْرٍ مُعَيَّن».

هكذا، يَنْزِلُ طَلَبُ الحِكْمَةِ عِنْدَ برونو مِنْ عَلْيائِه ويَتَحَوَّلُ إلى فِعْلٍ بَشَرِيٍّ عَقْلانِيٍّ لا مَحَلَّ فيهِ للمُعْجِزاتِ أوِ الخَوارِقِ، ولا للسِّحْرِ

أوِ للشَّطْحِ أوْ ما شابَهَ مِنْ زيجاتٍ إلَهيَّةٍ أو مِنْ وعودٍ بِحَيَواتٍ أُخْرَوِيَّة: لا مُسَكِّنَ لِشَوْقِ المُشْتاقِ الغَضِبِ، ولا مُهَدِّئَ، لِسَبَبٍ في غايَةِ البَساطَة: الكائِنُ البَشَرِيُّ مَحْدودٌ مُتناهٍ، أمّا المَعرِفَة فَغَيْرُ مَحْدودَةٍ ولا مُتناهِيَة!

على أنَّ الأمْرَ لا يَقِفُ عِنْدَ هذا الحَدّ. فالمُفارَقَةُ المُفارَقَةُ هي أنَّ التَّوَتُّرَ الحاكِمَ على عَلاقَةِ الإنْسانِ المُتناهي بالمَعْرِفَةِ اللّامُتناهِيَةِ هو ما يُمْكِنُ أنْ يَرْتَقيَ بِهذا الإنْسانِ نَفْسِهِ إلى أعْلى مَدارِجِ المَعْرِفَةِ، وأنْ يَغوصَ بِهِ إلى أَعْمَقِ أسْرارِ الطَّبيعَةِ، وأن يُنْعِمَ عليهِ بالقُدْرَةِ على أنْ يُبْصِرَ بِعَيْنِ العَقْلِ ما يُنَظِّمُ بَدَدَ العالَمِ وتَبَعْثُرَهِ في نِظامٍ واحِدٍ تَرْعاهُ مبادِئُ كُلِيَّة .

ولأنَّ وَعْيَ الإنْسانِ وإدْراكَهِ اسْتِحالَةَ التَّوَحُّدِ بالحِكْمَةِ أو ضَيِّها تَحْتَ جَناحِهِ هو ما يُتَيِّمُ الفَيْلَسوفَ ويَبْعَثُ فيهِ روحَ الفَتْحِ والقِتال، فإنَّ المُعَوَّلَ عَلَيْه لدى برونو لَيْسَ تَحْصيلَ

تِلْـكَ المَعْرِفَـةِ والحِكْمَـةِ اللّامُتَناهِيَتَيْـنِ وإنَّمـا سُـلوكُ السّـالِكِ إلَيْهِمـا وَصِفاتُـهِ وخِصالُـه.

بِـكَلامٍ آخَـرَ، الفَلْسَـفَةُ لـدى برونـو هـي قُـدْرَةُ الفَيْلَسـوفِ علـى البِـرِّ بِمـا تَعْنيـهِ حَرْفِيًّـا لَفْظَـةُ فَلْسَـفَة ــ هـي قُدْرَتُـهُ علـى حُـبِّ الحِكْمَـةِ والمُثابَـرَةِ علـى ذلـك.

غايَـةُ الصَّيْـدِ، على ما يَعْرِفُ بالخِبْرَةِ كُلُّ ذي أحَدٍ تعاطـى الصَّيْـدَ، وعلـى مـا يُذَكِّرُنـا دو مونتنيـه فـي إحْـدى أجْمَل صفحـاتِ كِتابِـهِ **المُحاوَلات** ــ غايَـةُ الصَّيْـدِ مُلاحَقَـةُ الطَّريـدَةِ بَل قُـلْ طِرادُها:

«الطِّـرادُ والصَّيْـدُ قِسْـمَتُنا ولا عُـذْرَ لنا بأنْ نُسِـيءَ تَدَبُّرَهُمـا أمّـا أنْ يُفْلِـحَ الواحِـدُ مِنّـا فـي قَنْـصِ الطَّريـدَةِ أو ألّا يُفْلِـحَ فَشَـأْنٌ آخَـر. لَقَـد رُتِّبْنـا فـي هـذا العالَـمِ لِنَنْشِـدَ الحَقيقـةَ؛ أمّـا حِيازَتُهـا فَلِـذي سُـلْطانٍ واقْتِـدارٍ لَيْسـا مِنّـا فـي شَـيْء [...]. وإنَّما هـذا العالَـمُ مَدْرَسَـةٌ نَتَعَلَّـمُ فيهـا أنْ نَـتَحَرّى عَـنِ الأشـياء، والنّابِـغُ فـي هـذه المَدْرَسَـةِ لَيْـسَ المُتَفَـوِّقَ فـي نَصْـبِ الفِخـاخِ بَـلْ المُتَفَـوِّقُ فـي الطِّـراد...».

لِكَـي نَفْهَـمَ مُقَدِّمـاتِ برونـو ودو مونتينـه وخُلاصاتِهِمـا عَلَيْنـا أنْ نَتَذَكَّـرَ بأنَّهُما عاشـا الحُروبَ الدّينيَّـةَ التي عَصَفَتْ بأُوروبّا وشَـهِدا مآسـيها وَرَأَيا رأيَ العَيْـنِ كَيْـفَ حَـوَّلَ الاقْتِنـاعُ بامْتِـلاكِ الحَقيقةِ وحِيازَتِهـا الكنائِـسَ إلى غُرَفِ عَمَلِيّـاتٍ تُديرُ أعمال العُنْـفِ والإرْهـاب.

لَقَـد لَمَـسَ الإثْنانِ لَمْـسَ اليَدِ كَـيْفَ أدّى التَّعَصُّبُ إلـى هَـلاكِ الآلافِ مِـنَ الأبْريـاءِ العُـزَّلِ وكَيْفَ أدّى إلـى اسْـتِدْخال المَـوْتِ والخَـرابِ إلـى كُلِّ مَرافِـقِ المُجْتَمَـعِ، بِمـا فيهـا الأُسْـرَةُ الواحِـدَة. كانَ هـذا رَغْـمَ مـا سَـبَقَ لإيراسـموس(*) أنْ بَيَّنَـهُ فـي دِفاعِـهِ المُسْـتَميتِ عَـنِ السَّـلامِ مِـنْ أنَّ التَّوَسُّـلَ بالعُنْـفِ وبالخُشـونَةِ لَيْـسَ مِـنَ الدّيـن فـي شَـيْءٍ بَـلْ هـو علـى النَّقيـضِ مِـنَ الدّيـن وجَوْهَـرِه:

«لَيْـسَ فـي النُّصـوصِ التـي يُؤْمِـنُ بِهـا المَسـيحيّونَ، لَيْـسَ فـي العَهْـدِ القديـم ولا فـي العَهْـدِ الجَديد، إلّا الدَّعْـوَةُ إلـى السَّـلام وإلـى ائْتِـلافِ القُلـوب. علـى

(*) ديزيديريـوس إراسـموس، (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦)، عالِـمٌ هولَنْـدِيٌّ مِـنْ أرْكانِ عَصْـرِ النَّهْضَـةِ الأوروبِيّ.

الرَّغْمِ مِنْ ذلك، يَقِفُ بَعْضُ المَسيحيّين حياتَهُم على الحَرْبِ والقِتال».

بِكَلِماتٍ بَسيطَةٍ يَضَعُ إيراسموس يَدَهُ على جُرْحٍ آلَمَ المَسيحيّينَ لِقُرونٍ خَلَتْ غَيْر أنَّهُ ما يَزالُ جُرْحًا فاغِرًا لدى كثيرٍ آخَرين. فالتَّعَصُّبُ جُرثومَةٌ مُلازِمَةٌ للأدْيانِ، كُلِّ الأدْيانِ، ولا يَغُرَّنَنا ما يَكونُ أحْيانًا مِنْ دُخولِ هذهِ الجُرْثومَةِ في النَّوْمِ أوِ الغَيْبوبَة...

فباسْم اللَّهِ، سَلَّمَ مَنْ سَلَّمَ وأنْكَرَ مَنْ أنْكَر، باسْمِ اللَّه، على مَرِّ الحِقَبِ، وفي شَتّى البُلْدانِ، ارتُكِبَ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصى مِنْ جرائِمَ ومِنْ مَجازِرَ ومن إباداتٍ ومن اغْتِيالات، وباسْمِ اللَّهِ أُتْلِفَ ما أُتْلِفَ مِنْ عُيونِ الفَنِّ، وأُحْرِقَ ما أُحْرِقَ مِنَ مَكْتَباتٍ، وأُعْدِمَ مَنْ أُعْدِمَ مِنْ عُلماءَ ومِنْ فَلاسِفَةٍ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ الجَزيلُ في تَطويرِ المَعارِف والعُلوم.

لِنَتَذَكَّرَ ما كانَ في ١٧ شباط (فبراير) ١٦٠٠

مِـنْ إعْـدامِ جوردانـو برنـو حَرْقًـا فـي سـاحَةٍ عامَّـةٍ مـن سـاحاتِ روما بأمْـرٍ مِـنْ مَحْكَمَـةِ التَّفْتيـشِ، ولنَتَذَكَّـرِ العَذابـاتِ التـي أُنْزِلَـت فـي جنيـف، سَـنَةَ ١٥٥٣، بميغيـل سـيرڤيت(*) بأمْـرٍ مِـنَ المُصْلِـحِ الدّينِـيِّ كالڤـن(**). ولكـنْ فَلْنَتَذَكَّرْ أيْضًـا أنَّ كُلَّ أحْـكامِ الإعْـدامِ التـي يُمْكِـنُ أنْ تَنْطِـقَ بِهـا مَحْكَمَـةُ تَفْتيـشٍ أو يُمْكِـنُ أنْ يَنْطِقَ بِهـا فَقيـهٌ مُتَأَلِّـهٌ لا تَمْحـو كَلِمـاتِ سيباسـتيان كاسـتليون(***) فـي الرِّسـالَة التـي وَضَعَهـا فـي المُخالَفَـةِ علـى كالڤـن:

«مَـنْ يأمُـرْ بإحْـراقِ إنْسـانٍ بِحُجَّـةِ الصُّـدوعِ لأحْـكامِ إيمانِـهِ وعَقيدَتِـه إنَّمـا يُحْـرِقُ نَفْسَـه. ومَـنْ يَقْتُـلْ دِفاعًـا عـن عَقيـدةٍ لا يُدافِـع عَـنْ عَقيـدَةٍ بَـلْ يَقْتُـل.

(*) ميغيـل سـيرڤيت، لاهوتِـيٌّ وعالِـمٌ وطَبيـبٌ ومُتَرْجِـمٌ كانَ مَوْلِـدُهُ فـي إسـبانيا فـي ١٥١١، وكانَ إعْدامُـهُ حَرْقًـا بِسَـبَبٍ مِـنْ آرائِـهِ اللّاهوتِيَّـةِ سَـنَةَ ١٥٣٣ فـي جنيـف.

(**)جـان كالڤـن، (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤)، مُصْلِـحٌ دينِـيٌّ ولاهوتِـيٌّ فَرَنْسِـيٌّ اسْـتَوْطَنَ جنيـف سَـنَةَ ١٥٤١ وأجْـرَى فيها حُكْمَـهُ تَبَعًـا لآرائِـه.

(***) سيباسـتيان كاسـتليون، لاهوتِـيٌّ كانَ مَوْلِـدُهُ بِفَرَنسـا عـام ١٥١٥ وكانَـتْ وفاتُـهُ ببـازل السّويسـريَّةِ عـام ١٥٦٣، عُـرِفَ بِمُنافَحَتِـهِ عَـنْ حُرِّيَّـةِ الـرَّأْي وَدَعْوَتِـهِ إلـى التَّسـامُحِ الدّينـيّ.

يَـوْمَ قَتَـلَ أهْلُ جنيفَ ميغيل سـيرفيت، لَـمْ يُدافعوا عَـنْ عَقيـدةٍ بَـلْ قَتَلـوا نَفْسًـا زَكِيَّة».

هـو كذلـكَ رَغْـمَ ما فـي الأمْرِ مـن مُفارَقَةٍ: باسْـمِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَـةِ تُرْتَكَـبُ أشْـنَعُ الجَرائِـمِ بِحُجَّةِ أنَّها الشَّـرْطُ المَشْـروطُ لِصَـلاحِ البَشَـرِيَّةِ وخَيْرِها!

علـى أنَّـهُ ففـي هـذا المَقـامِ أيْضًـا لا مـا يَتَصَـدّى للتَّعَصُّـبِ والتَّزَمُّـتِ كَمِثْـلِ الآدابِ التـي تَأْخُـذُ علـى عاتِقِهـا أنْ تُثْبِـتَ، بالكَلِمَةِ، أنَّ وَهْـمَ امْتِلاكِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَـةِ وحيازَتِهـا، حتّـى فـي مَجـالِ الإلهِيّـاتِ مَفْضـاهُ إلـى تَقْويـضِ الدّيـنِ وإلـى تَهافُـتِ الحَقيقـة؛ ويَذْهَـبُ تَفْكيـري مِـنْ بـابِ التَّمْثيـلِ علـى مـا تَقَـدَّمَ إلـى كاتِبَيْـنِ عَظيمَيْـنِ اثْنَيْـن صَـرَّفَ كُلٌّ مِنهُما، على طَريقَتِه وبأُسْـلوبِهِ، قِصَّـةً مَعْروفَـةً مِمّـا يُثْبِـتُ أنَّ صَفْحَةً واحِـدَةً مِنْ أثَـرٍ أدَبِـيٍّ أبْعَـدُ أثَـرًا أحْيانًا مِـنْ مُطالَعَةٍ مُسْـهَبَة. أمّـا القِصَّةُ التي أعْني فَتِلْـكَ المَعْروفَةُ بـ«الخَواتِم الثَّـلاث» التي ضَمَّنها بوكاتشـو فـي **الدّيكاميرون**، (الأيّـام العَشْـرَة)، والتـي اسْـتَأْنَفَ كِتابَتَهـا، بَعْـدَ

أرْبَعَمِئَـةِ سَـنَةٍ، الألمانـيُّ لِسِـنْچ(*) في مَسْـرَحِيّته «ناثـان الحكيـم».

فـي الأُقْصوصَـةِ الثّالِثَةِ مِـنْ أقاصيصِ اليَـوْمِ الأوَّلِ مِـنَ **الدّيكاميرون** يَسْـتَدْعي سُـلطانُ مِصْرَ، صلاحُ الديـن، إلى بَلاطِـهِ الثَّـرِيَّ اليَهوديَّ مِلْشيسِـدِتش لِيَسْـتَفْتيهِ أيًّـا مِـنَ الدِّيانـاتِ الثَّـلاثِ، (اليَهوديَّـةِ والمَسـيحيَّةِ والإسْـلام)، هـيَ الدّيـنُ الصَّحيح.

يَتَوَجَّـسُ الرَّجُـلُ مِـنْ وَراءِ السُّـؤالِ فَخًّـا مَنْصوبًـا لَـهُ فَيُؤْثِـرُ بِحِكْمَتِـهِ أنْ يَسْـتَعيضَ عَـنِ الجَـوابِ المُباشَـرِ عَـنْ هـذا السُّـؤالِ المُشْـكِلِ بحِكايَـة: تَقـولُ الحِكايَـةُ إنَّ أبًـا أوْصـى يَوْمًا، فـي عِدادِ ما أوْصـى بِـهِ لابْنِـهِ الذي اصْطفـاهُ وَريثًا لَـهُ، بِخاتَمٍ مِـنْ ذَهَب.

مِـنْ إذّاكَ اخْتَلَـفَ علـى وِراثَـةِ هـذا الخَاتَـمِ مِنَ الأبْنـاءِ وأبْنـاءِ الأبْنـاءِ وأبْنـاءِ أبْنـاءِ الأبْنـاءِ مَـنِ

(*) إفرايـم لِسِـنْچ، (١٧٢٩ ـ ١٧٨١)، كاتِـبٌ وفَيْلَسـوفٌ وناقِـدٌ فَنِّـيٌّ ألمانِـيٌّ مِـنْ أرْكانِ عَصْـرِ التَّنْويـرِ الأُوروبِيّ.

اعْتُبِرَ الأوْلى بالوِراثَةِ ودَرَجَ الأمْرُ على هذا النَّحْوِ أجْيالًا إلى أنْ اسْتُقْبِلَ أحَدُ الآباءِ بِما لَيْسَ في الحُسبان. فَلَقَدْ أنشَأَ هذا الأبُ ثلاثَةَ أبْناءٍ صالحينَ مُطيعينَ أحَبَّهُم بالقَدْرِ نَفْسِه... فَكَيْفَ لَهُ، وهو كذلكَ، وَهُمُ كذلكَ، أنْ يُكافِئَهُم والخَاتَمُ لا ثاني لَهُ ولا ثالث؟ على سَبيلِ حُسْنِ التَّخَلُّص طَلَبَ الأبُ مِنْ صائِغٍ صَناعٍ أنْ يَعْمَلَ لَهُ نَسْخَتَيْنِ طِبْقَ الأصْلِ مِنَ الخَاتِمَ المَوْروث. وإذْ شَعَرَ الأبُ بِدُنُوِّ أجَلِهِ اسْتَدْعى أبناءَهُ واحِدًا واحِدًا وائْتَمَنَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم على خَاتَمٍ بِوَصْفِهِ الـ «خاتَم».

ثُمَّ ما هِيَ، مِنْ بَعْدِ أنْ ماتَ الأبُ، وأنِ ادَّعى كُلٌّ مِنْهُم أنَّهُ الوَريثُ المُسَمّى، أنْ تَبَيَّنَ للأبْناءِ ما احْتالَهُ أبوهُم مِنْ حيلَةٍ:

«أمّا وأنَّ الخَواتِمَ الثَّلاثَةَ تَشابَهَتْ حَدَّ اسْتِحالَةِ التَّمْييزِ بَيْنَها ومَعْرِفَةِ أيَّها هو الأصْلِيُّ، فَلَقَدْ تَعَذَّرَ تَعْيينُ الوَريثِ الوَريثِ، فَعُلِّقَ الأمْرُ وما يَزالُ إلى يَومِنا هذا مُعَلَّقًا. مَثَلُ هَؤلاءِ الأبْناءِ، يا مولايَ، مَثَلُ الشَّرائِعِ الثَّلاثِ التي أنْزَلَها الرَّبُّ

علـى الأُمَـمِ الثَّلاث [...] كُلُّ أُمَّـةٍ مِنها تَحْسُـبُ نَفْسَـها الوَريـثَ المُسَـمَّى، الحافِظَـةَ للشَّـريعَةِ، الآمِـرَةَ بِمَعْروفِها، النّاهِيَـةَ عَنْ مُنكَرِها. ولكِنْ، أيٌّ مِنْهـا هـيَ الوَريثُ الوَريث؟ شَـأْنُ الخواتِـمِ الثَّلاثَةَ، لا سَـبيلَ إلـى الجَـزْمِ أيُّ واحِـدٍ مِنْها هـو الخَاتَـمُ الأَصْلِـيّ».

أَفْلَحَـتْ حِنْكَـةُ مِلْشيسِـدِتش فـي إرْضاءِ السُّـلْطانِ وبِوُسْـعِها أيْضًـا أنْ تُسَـكِّنَ مِـنْ قَلَقِنـا ومِـنْ هَواجِسِـنا: لَيْـسَ لِبَنـي البَشَـرِ أنْ يَفُكّـوا، بِمـا تَحْـتَ يَدِهِـم مِـنْ وَسـائِلَ بَشَـرِيَّةٍ، أَلْغازًا لا يَمْلِـكُ حَلَّهـا إلّا اللّـه وَحْـدَه. لَمْ تَـكُنِ المَسْـأَلَةُ التـي يَتَصـدّى لَهـا بوكاتشـو بِغَريبَـةٍ عَـنْ عَصْـرِه وَلَـكِنَّ فَضْلَـهُ فـي ما يَقْتَرِحُـه مِـنْ مُعالَجَـةٍ تَنْتَهـي بأيْسَـرِ مَنْطِـقٍ إلـى الدَّعْوَةِ إلـى الاحْتِرامِ المُتَبـادَلِ بَيْـنَ البَشَـرِ والتَّسـامُحِ والتَّعايُـشِ ومـا إلـى ذلـكَ مِـنْ قِيَـم.

علـى خُطـى بوكاتشـو، وبَعْـدَ قُرونٍ عَلَيْـهِ، يَمضـي لِسِـنْچ، فـي رائِعَتِـه **ناثـان الحكيـم**، فـي رِحْلَـةِ البَحْـثِ عَـنِ التَّـوازُنِ بَيْـنَ بَنـي البَشَـر.

رِوايَـةُ لِسِـنْج، فـي **ناثـان الحكيـم**، كَرِوايَـةِ بوكاتشـو: يَهـوديٌّ أيْضًـا ولكـنْ يَهـودِيٌّ مَوْسـومٌ بسِـماتِ عَصْـرِهِ حَيْـثُ إنَّـهُ يُوَجِّـهُ الأبْنـاءَ الثَلاثَةَ المُخْتَلِفيـنَ علـى إرْثِ أبيهِـم إلـى قـاضٍ ليَحْكُـمَ بَيْنَهُـم فَيَرْتـأي القاضي مِنْ بَعْدِ أنْ سَـمِعَ القَضِيَّةَ أن يَنْصَـحَ للأبْناءِ الثَّلاثَـةِ أنْ يَدَعَ كلٌّ مِنْهُم الأمورَ تَجْـري علـى سَـجِيَّتِها وأنْ يَعْتَبِـرَ أنَّ الخاتَمَ الذي آلَ إلَيْـهِ مِـنْ أبيـهِ هـو الخاتَـمُ الأصْلِـي:

«لَعَـلَّ القَصْـدَ الـذي قَصَـدَ إلَيْـهِ أبوكـم ألّا يَطْغـى علـى الميـراثِ مِـنْ بَعْدِهِ صاحِـبُ الخَاتَـمِ الوحيد. لا رَيْـبَ أنَّـهُ أحَبَّكُـم بالسَّـوِيَّةِ [...] مِنْ ثَـمَّ فَلْيَجْهَدْ كُلُّ واحِـدٍ مِنْكُـم بـأنْ يَكونَ على قَـدْرِ الفُصِّ الـذي يُزَيِّنُ خاتَمَـهُ فَيَعُـمُّ الخَيْـرُ الجَميع».

مَقولُـهُ: طالَمـا أنَّهُ مِنَ المُتَعَذَّرِ إثْبـاتُ الدّينِ الحَقِّ فَلْيُحـاوِلْ كُلُّ صاحِـبِ ديـنٍ أنْ يَتَوَسَّـلَ بِمَلَـكاتِ دينِـهِ ليُبَشِّـرَ بِـهِ، وليَمْتَحِـنَ طاقَتَـهُ علـى نَشْـر المَحَبَّـةِ والتَّضامُـنِ والسَّـلام. شـأنَ الفَلْسَـفَةِ، علـى كُلِّ ديـنٍ مِـنَ الأدْيـانِ أنْ يَرتضـيَ أنْ يكـونَ نَمَـطَ عَيْـشٍ وأُسـلوبَ حياة. بذلِـكَ لا تَطْغى أيُّ فَلَسْـفَةٍ

مِـنَ الفَلْسَـفاتِ، ولا يَطْغـى أيُّ ديـنٍ مِـنَ الأدْيـانِ، بذريعَـةِ امْتلاكِ الحَقيقَـةِ المُطْلَقَةِ الصّالِحَةِ للبَشَـرِ كافَّـة. فأيُّمـا أحَـدٍ، مِنْ فَـرْدٍ أو مِـنْ جَماعَـةٍ، يَأْنَسُ مِـنْ نَفْسِـهِ امْتِـلاكَ الحَقيقَـةِ دونَ سـواه، لا يَتَأَخَّـرُ عَـنْ تأويـلِ مِلْكِـهِ هَـذا مُـؤَوَّلَ الواجِـبِ المَوْجوبِ عَلَيْـهِ بـأنْ يُعَمِّـمَ هـذه الحَقيقَـةَ علـى الآخَريـنَ بِزَعْـمِ هِدايَتِهِـم إلـى الصِّـراطِ المُسْـتَقيمِ وَلَـوِ اقْتَضـاهُ تَعْميمُهـا علـى هَـؤلاءِ الآخريـنَ التَّوَسُّـلَ بالقُـوَّةِ والشِّـدَّة. فـلا اسْتِمسـاكَ بِعَقيدَةٍ مَـعَ الظَّنِّ بأنَّهـا الأصْـدَقُ لا يَنْتَهـي إلـى شَـيْءٍ مِـنَ التَّعَصُّب: مِـنَ التَّعَصُّـبِ الأخْلاقِـيِّ أو الدّينيِّ أو السِّياسِـيِّ أوِ الفَلْسَـفِيِّ أو العِلْمِـيِّ. مِـنْ ثَـمَّ لا مُبالَغَـةَ قَـطُّ فـي اسْـتِخلاصِ الخُلاصَـةِ التّالِيَة: كُلُّ ذي أحَـدٍ يَحْمِلُ ما يَحْسُـبُهُ حَقيقـةً على مَحْمَـلِ الحَقيقَةِ الفَـرْدِ، قامِعٌ للبَحْـثِ عَـنِ الحَقيقَـةِ قاتِـلٌ لها.

فَمَـنْ يَسـتَكينُ إلى وَهْمِ امْتِـلاكِ الحَقيقَةِ وَحِيازَتِها يَسْـتَغْنِي حُكمًـا عَنْ طَلَبِها وَيَسْـتَغْنِي عَـنْ مُحاوَرَةِ الآخَريـن وعَـنِ الإصْغـاءِ إلـى مـا لَدَيْهِـم مِـنْ أفْكارٍ

وعَـنْ وَضْعِ نَفْسِـهِ تَحْتَ امْتِحـانِ التَّنَـوُّعِ وَمُجَرَّبِه. وَحْـدَهُ مَـنْ يُحِـبُّ الحَقيقةَ يَسْـعى إلَيْها بِـلا كَلالَة. ولأنَّـهُ كذلـكَ فالشَّـكُّ لَيْـسَ عَـدُوَّ الحَقيقَـةِ بَـل الدّاعِيَـةُ إلى الاسْـتمرارِ فـي طَلَبِها ونُشْـدانِها. ومِنْ هُنـا فـإنَّ مَـنْ يُؤْمِـنَ حَـقَّ الإيمـانِ بـأنَّ الحَقيقـةَ قيمَـةٌ عُلْيـا لا يَتَـرَدَّدُ عَـنِ المُثابَـرَةِ علـى وَضَـعِ مـا يَتَحَصَّـلُ لَدَيْـهِ مِـنْ حقائِـقَ علـى مِحَـكِّ الشَّـكِّ ولا يَتَأَخّـر. وَعَلَيْـهِ أيْضًـا وأيْضًـا فـإنَّ شَـرْطَ التَّسـامُحِ المَشْـروطَ هـو أنْ يُنْكِرَ المَرْءُ ابْتِـداءً وجودَ حَقيقةٍ مُطْلَقَـةٍ لا تَـؤولُ ولا تَحـولُ ولا تَـتَبَدَّل.

نَعَـم، لا بُـدَّ للمَرْءِ مِنْ كَـثيرٍ مِـنَ الحَيْـرَةِ ولا بُدَّ لَهُ مِـنْ كَثيـرٍ مِـنَ التَّواضُعِ في تَقْديـرِ قُدْرَتِـهِ لِيُتاحَ لَهُ أنْ يَلْتقـي بآخَـرَ وآخَرينَ لا يَرى أو يَرَوْنَ إلى الأمورِ بالعَيْـنِ التـي يَراهـا هـو بِهـا ومِـنْ خِلالهـا. وهـذا هـو السَّـبيلُ الـذي يُفْضي بِنا إلـى أنْ نَحْمِـلَ تَعَدُّدَ الآراءِ واللُّغـاتِ والأديانِ والثَّقافاتِ والشُّـعوبِ على مَحْمَـلِ الثَّـرْوَةِ مِنَ البَشَـرِيَّةِ لا على مَحْمَـلِ العَقَبَةِ المانِعَـةِ لِتَقَدُّمِ البَشَـرِيَّةِ وَتَطَوُّرِها.

تَحْتَ هذا العُنوانِ أيْضًا فإنَّ الإنْكارَ على وُجودِ حَقيقَةٍ مُطلقَةٍ لَيْسَ بابًا مِنْ أبْوابِ العَدَمِيَّةِ. فَوَسَطِيَّةُ الآخِذينَ بأنَّهُ لا حَقيقةَ مُطْلَقَةٌ بَيْنَ العقائِدِيّينَ (الزّاعِمينَ كلٌّ على طريقَتِهِ امْتِلاكَ حَقيقةٍ مُطْلَقَةٍ مِنَ الحَقائِقِ)، والعَدَمِيّينَ (المُنْكِرينَ ابْتَداءً وجودَ الحَقيقة)، ــ وَسَطِيَّةُ الآخِذينَ بِهذا المَذْهَبِ تَرْفَعُهُم إلى مَرْتَبَةِ المُحِبّينَ حَقَّ المَحَبَّةِ للحَقيقَةِ واسْتِطرادًا إلى مَرْتَبَةِ طُلّابِها المُثابرينَ بِلا قُنوطٍ ولا كَلالَة.

كَلّا، لَيْسَ انْحيازًا إلى حِزْبِ اللّاعَقْلانِيَّةِ والعَشْوائِيَّةِ أنْ يَتَقَبَّلَ المَرْءُ احْتِمالَ دُخولِ الخَطَأِ على رأيِهِ، وَأنْ يَضَعَ نَفْسَهُ ومعارِفَهُ تَحْتَ غِرْبالِ التَّصْحيحِ والتَّصويبِ، بَلْ هو تَأْكيدٌ على أوَّلِيَّةِ النَّقْدِ، وعلى أوَّلِيَّةِ مُمارَسَتِهِ، وتَأْكيدٌ على الحاجَةِ المُسْتَمِرَّةِ إلى التَّفاوُضِ حِوارًا مَعَ الآخرينَ بِمَنْ فيهم أولَئِكَ الذين يُنافِحونَ عَنْ قِيَمٍ مُخالِفَةٍ للقِيَمِ التي يأخُذُ بها الواحِدُ مِنّا.

كانَ جـون ميلتـون(*) مِـنْ أبْـرَزِ المُدافعيـنَ عَـنْ حُرِّيَّـةِ الصِّحافَـةِ بِوَجْـهِ الرِّقابَـةِ بَشَـتّى أشْـكالِها وصُوَرِهـا، ومِـنْ ثَمَّ فلا غَـرْوَ أنْ رَأى، وهو الضَّريرُ، إلـى الحَقيقَـةِ بِوَصْفِهـا نَبْـعَ مـاءٍ جارٍ:

«لَيْـسَ مِمّـا يَغيـبُ عَـنْ كُلِّ ذي أحَـدٍ اعْتـادَ التَّبَصُّرَ بالأُمـورِ، والتَّمَعُّـنَ فيهـا، مـا للمُثابَرَةِ مِـنْ فَضْلٍ في تَفَتُّـحِ معارِفِنا شـأنَ مـا لها مِنْ فَضْلٍ فـي الرِّياضاتِ الجَسَدِيَّة.

تُشَـبَّهُ الحَقيقَـةُ، فـي الكِتـابِ المُقَـدَّسِ، بِمـاءٍ جـارٍ لأنَّ المـاءَ متـى ما انْقَطَعَ عَـنِ الجَرَيانِ أسِـنَ وخَمَّ. كذلـك قُـلْ عَـنِ الحَقيقَة».

ومِمّـا يَذْهَـب إلَيْـهِ ميلتـون فـي مـا يَذْهَـبُ أنَّ أولَئِـكَ الذيـن يَتَوَسَّـلونَ بـ«العَدالَـةِ المُسَـلَّحَةِ» بِحُجَّـةِ إحْقـاقِ الحَقيقـةِ لا يأتـونَ مِنْ شَـيْءٍ، في واقِـعِ الأمْـر، سـوى قَتْـلِ الحَقيقَـةِ قَتْـلًا لا مَبْعَـثَ لَهـا مِنْـه؛ وَبِقَتْلِهِـمِ الحَقيقـةَ، يَقْتُلـونَ، علـى بَيِّنَةٍ مِـنْ أمْرِهِـم أو علـى غَيْـرِ بَيِّنَـةٍ، الحُرِّيَّـة. وخِلافُ

(*) جـون ميلتـون، (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤)، شـاعِرٌ وعالِـمٌ إنجليـزيٌّ أشْـهَرُ قصائِـدِهِ «الفِـرْدَوْس المَفْقـود» التـي كَتَبَهـا عـامَ ١٦٦٧. كُـفَّ بَصَـرُهُ ذاتَ حيـنٍ غَيْـرَ أنَّ هـذِهِ العاهَـةَ لَـمْ تَحُـلْ بَيْنَـهُ وبَيْـنَ مُتابَعَـةِ الكِتابَـةِ والتَّفَـوُّقِ فيهـا.

مـا تَقَـدَّم صَحيـحٌ أيضًـا: مَـنْ دأبُـهُ قَمْـعُ الحُرِّيَّةِ، يَقْمَـعُ اسْـتِطرادًا كُلَّ سَـعْيٍ إلـى طَلَـبِ الحَقيقَـةِ ونُشـدانِها:

«اسْـلُبوني مـا شِـئْتُم مِـنْ حُرِّيّاتـي ولكِـنْ دَعـوا لي حُرِّيَّـةَ القَـوْلِ والكِـتابَةِ بِحَسْـبِ مـا يُمْلِيـهِ علـيَّ ضَميـري».

فحُرِّيَّـةُ التَّعْبيـرِ عَـنِ الـرَّأْي، وحُرِّيَّـةُ الحِـوارِ والمُجادَلَـةِ، هـي ما يُتيـحُ تَجْميعَ نُتَـفِ الحَقيقَة، مِـنْ هُنـا وهُنـاك، وُصـولًا إلـى الحَقيقَـة:

«فـأنْ نَسْـعى، بِـلا كَلالَـةٍ، إلى تَعَلُّـمِ ما نَجْهَلُـهُ بِناءً علـى مـا نَعْرِفُـهُ، وأن نَسْـعى إلـى إضافَـةِ الحَقيقَـةِ علـى الحَقيقَـة، (باعْتِبارِ أنَّ الحَقائِـقَ تأتَلِفُ)، هذهِ هـي قاعِـدَةُ المَعْرِفَـةِ الذَّهَبِيَّـةُ فـي اللّاهـوتِ كمـا فـي الرِّياضيّات».

كُلُّ مـا تَقَـدَّمَ لا يَعْـدو أنْ يكـونَ قَليـلًا مِـنْ كَـثيرٍ حَقُّـهُ أنْ يُثْبَـتَ وأنْ يُسْـتَعاد.

مُقِـرًّا بِتَقْصيـري عَنْ إيفاءِ المَسْـأَلَةِ التـي نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْهـا حَقَّهـا مِـنَ التَّفْصيـل أكْتفـي، علـى سَـبيلِ

اخْتتامِ هـذا الفَصْـلِ، بِقَـوْلٍ للفَيْلَسـوفِ الألمانـي لِسِـنْچ يَخْتَصِـرُ فيهـا مُوجِـبَ طَلَـبِ الحَقيقـةِ ونُشْـدانِها علـى الإنْسـان:

«ليسَـتْ قيمَـةُ الإنْسـانِ في مـا يَمْلِكُهُ مِـنْ حَقيقَةٍ أو مـا يَدَّعـي امْتِلاكَـهُ مِنْهـا وإنَّمـا فـي مـا يَبْذُلُـهُ مِـنْ جَهْـدٍ صـادِقٍ لِبلـوغِ الحَقيقَة.

فالمَلَـكاتُ التـي تَسـيرُ بالإنْسـانِ إلـى مَزيـدٍ مِـنَ الكَمـالِ لا تَزيـدُ بِمـا يُحَصِّلُهُ مِـنَ الحَقيقَـةِ بَلْ بِما يَنْشُـدُهُ مِنها.

المِلْكُ والحِيازَةُ أخْصَرُ سَبيلَيْنِ إلى الدَّعَةِ المُتكاسِلَةِ والصَّلَفِ الأحْمَق.

لَـوِ اجْتَمَعَـتْ فـي يَميـنِ المَوْلـى كُلُّ الحَقائِـق، وفـي يُسْـراه كُلُّ المَشَـقَّةِ التـي يَقْتَضيهـا البَحْـثُ عِـنِ الحَقيقَـةِ، ثُـمَّ عَـرَضَ المَوْلـى عَلَـيَّ كَفَّيْـهِ وقـال: "إخْتَـرْ!"، لَمِلْـتُ، بِـلا تَـرَدُّدٍ، علـى بَيِّنَـةٍ مِنْ أمْـري، نَحْـوَ اليُسْـرى، وَلِسـانُ حالي يَقـول: هاتِ! مـولايَ، هـاتِ، إنَّمـا الحَقيقَـةُ الحَقيقَةُ لَـكَ وَحْدَكَ لا شَـريكَ لَـكَ فيهـا!».

كُلّي ثِقَةٌ بأنَّ هذا الاسْتِشْـهادَ، كما الاسْتِشْـهاداتِ التـي تَوالَـتْ في الصَّفَحـاتِ السّـابِقَةِ، كَفيلَةٌ بأنْ

تَجِـدَ طَريقَهـا إلـى أعْماقِ الفُـؤادِ مِـنْ كُلِّ واحِدٍ وواحِـدَةٍ مِنّـا، وبأنْ تُسَـرِّعَ مِـنْ وَتيـرَةِ المُتَباطِئِ مِـنْ خَفَقانِـهِ، وبـأنْ تَشْـهَدَ بالحَـقِّ علـى لُزومِ ما يُزَيَّـنُ لنـا أحْيانًا أنْ لا لـزومَ لَه.

نَعَـمْ، إنَّ هـذِهِ الكَلِمـاتِ تَشْـهَدُ، بِرَسْـمِنا، وَبِرَسْـمِ الأجْيـالِ التـي مِـنْ بَعْدِنـا، أنَّ النُّـزوعَ إلـى طَلَـبِ المَعْرِفَـةِ المُتَحَـرِّرَ مِـنْ أيِّ مُوجِبٍ نَفْعِـيٍّ أو عَمَلِيٍّ هـو المُعَـوَّلُ عليـه لِتُرَفـرِفَ بالبَشَـرِيَّةِ أجْنِحَتُهـا صَـوْبَ مزيـدٍ مِـنَ الحُريَّةِ ومِـنَ التَّسـامُحِ... بَلْ قُل: صَـوْبَ مَزيـدٍ مِـنَ الإنْسـانيَّة...

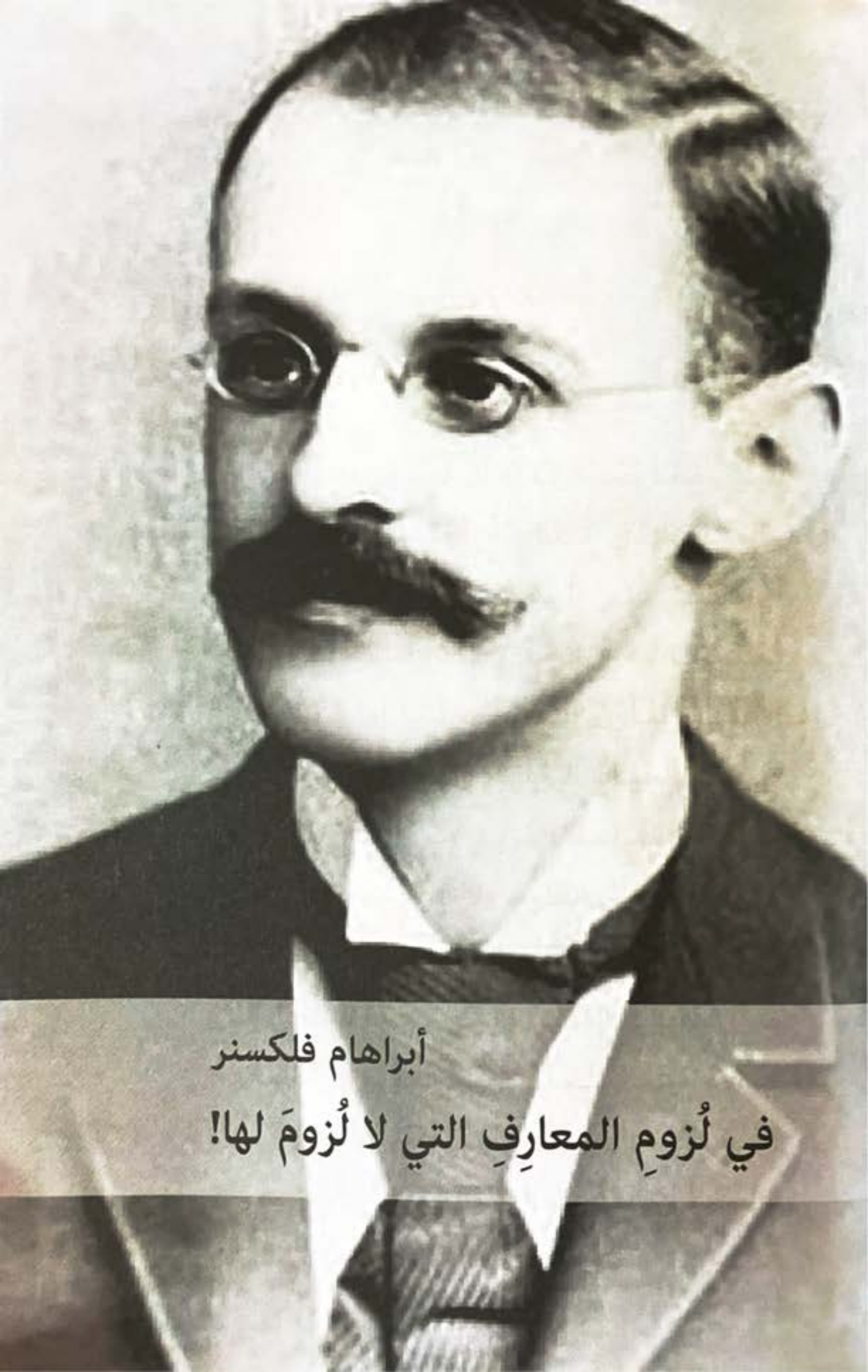

أبراهام فلكسنر

في لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها!

١

أَلَيْسَ مِمّا يُسْتَغْرَبُ لَهُ أنْ نَجِدَ في هذا العالَمِ، عالَمِنا، الذي تَتَناهَبُهُ أحْقادٌ عَمْياءُ تَكادُ أنْ تَقْضِيَ على الحَضارَةِ نَفْسِها ــ أَلَيْسَ مِمّا يُسْتَغْرَبُ لَهُ أنْ نَجِدَ رِجالًا ونِساءً، مِنْ سائِرِ الأعْمارِ، يَنْأَوْنَ بِأَنْفُسِهِم، كُلِّيًّا أو جُزْئِيًّا، عَنْ صَخَبِ الحَياةِ اليَوْمِيَّةِ وضَوْضائِها ويُكَرِّسونَ أنْفُسَهُم لِصِناعَةِ المَزيدِ مِنَ الآثارِ الجَميلَةِ، وَلِتَوْسيعِ آفاقِ العُلومِ، ولاخْتِراعِ عِلاجاتٍ تَشْفي مِنْ أمْراضٍ تُوْصَفُ بالمُسْتَعْصِيَةِ، وللتَّخْفيفِ مِنْ عَذاباتِ البَشَرِ، ويكونُ هذا السَّعْيُ مِنْ هَؤلاءِ بَيْنَما يَنْصَبُّ جَهْدُ آخَرينَ، يَتَمَلَّكُهُمُ التَّعَصُّبُ، على نَشْرِ البَشاعَةِ والأَلَمِ واليَأْسِ والضَّغائِنِ بِكُلِّ ما أُوْتوا مِنْ بَأْسٍ وقُوَّةٍ؟

نَعَـمْ، مِـنْ أوَّلِ الأمَـرِ لَـمْ يَـزَلْ عالَمُنـا هـذا مَكانًـا يَعُمُّـهُ البُـؤْسُ والاضْطِـراب. هـو كذلِـكَ، ولكـنْ مِـنْ حُسْـنِ الحَـظِّ أنَّ شـيمَةَ الشُّـعَراءِ والفَنّانيـنَ والعُلَمـاءِ أنْ يَتَجاهَلـوا ما يَحوطُ بِهِم مِنْ أسْـبابِ القُنـوطِ فَيَمْضـونَ فـي حـالِ سَـبيلِهِم حاجِزيـنَ بَيْنَهُـمْ وَبَيْـنَ كُلِّ مـا يُمْكِـنُ أنْ يَقْطَـعَ عَلَيْهِـم طَريـقَ الشِّـعْرِ أو مَنافِـذَ الاكْـتِشاف.

بالمَقاييـسِ العَمَليَّـةِ النَّفْعِيَّـةِ، لا جَـدْوى، فـي الظّاهِـرِ، مِـنْ أعْمـالِ الفِكْـرِ والذِّهْنِ أو مـا يُمْكِنُ أنْ نُطْلِـقَ عَلَيْـهِ عُمومًا مُسَـمّى النَّشـاطِ الثَّقافيّ؛ فإنَّمـا النَّشـاطُ الثَّقافـيُّ، تَبَعًـا لهـذِهِ المَقاييـسِ، مَرْفِـقٌ مِـنْ مَرافِـقِ الحَيـاةِ البَشَـرِيَّةِ يَجِـدُ بَعْـضُ النّـاسِ فـي وَقْـفِ أنْفُسِـهِم وَحَياتِهِم عَلَيْـهِ مُتْعَةً، بَـلْ مُتَعًـا، لا تُوَفِّرُهـا المَرافِـقُ الأُخـرى.

إنَّ غايَتـي مِنْ هذهِ المَقالَـةِ أنْ أُبَيِّنَ، أوْ بالأحْرى، أنْ أُحـاوِلَ أنْ أُبَيِّـنَ، كَيْـفَ يَتَّفِـقُ لهـذهِ المُتَـعِ النّافِلَـةِ التي يَسْـتَغْرِقُ فيها بَعْضُ النّـاسِ أنْ تُؤْتِيَ نَتائِـجَ باهِـرَةً لم تَخْطُرْ، أحيانًـا، حتّى بِبالِ طُلّابها.

مِـنَ الأحاديـثِ المَكْـرورَةِ التـي تُصَـمُّ بِهـا الآذانُ، حَديـثٌ مُفـادُهُ أنَّ عَصْرَنا المُسْـتَغْرِقَ فـي مادِّيَّتِهِ مَدْعُـوٌّ بإلْحـاحٍ إلى السَّـعْي إلى أنْ تُـوَزَّعَ مَوارِدُهُ المادِّيَّـةُ، وفُـرَصُ النَّجـاحِ الاجْتِماعِـيِّ فيـهِ، علـى نَحْـوٍ أعْدَل.

فَمِـنْ سِـماتِ عَصْرِنـا التَّذَمُّـرُ المُبَرَّرُ البالِـغُ أحْيانًا حَـدَّ الثَّـوْرَةِ الـذي يَصْـدَعُ بِـهِ كُلُّ هـؤلاءِ الذيـنَ كَـتَبَتْ عَلَيْهِـم المَقاديـرُ أن يُحْرَمـوا النَّصيـبَ العـادِلَ مِـنَ الخَيْراتِ ومِـنَ الفُرَصِ، والـذي يُؤَدّي بِهِـم، أو بِطائِفَـةٍ كَبيـرَةٍ مِنْهُـم، إلـى الإعْـراضِ عَنْ فُـروعِ العِلْـمِ التـي تَخَصَّـصَ فيهـا آباؤهُـم، وإلـى التَّحَـوُّلِ إلـى فُـروعِ العِلْـمِ التـي تُعْنـى بالاجْتِماعِ والاقْتِصـادِ وفُنـونِ التَّدْبيـرِ الحُكومـيّ.

لا اعْتِراضَ عِندي على هذا التَّوَجُّه. فالعالَمُ هو ما تَهْدينا حَواسُّنا إلَيْهِ باعْتِبارِهِ العالَم. وطالَما أنَّ هذا العالَمَ على حالِهِ، وطالَما أنَّنا لَمْ نُحْسِنْ تَطْويرَهُ ولا أفْلَحْنا في جَعْلِهِ أعْدَلَ مِمّا هو، فلا غَرْوَ أنْ يَسْتَمِرَّ المَلايينُ مِنَ البَشَرِ في

حَثَّ الخُطى إلى نِهاياتِهِم المَحْتومَةِ صامِتينَ مَحْزونينَ مُحْبَطين.

ولَطالَما رَثَيْتُ، أنا نَفْسي، أنَّ مَدارِسَنا تَتَعامى عَنْ واقِعِ العالَمِ أي عَنِ العالَمِ الذي لا مَهْرَبَ للتَّلاميذِ والطُّلّابِ، عاجِلًا أم آجِلاً، مِنَ العَيْشِ فيهِ ومِنَ النُّزولِ عِنْدَ أحْكامِه.

كانَ ذلكَ مِنّي ولكِنَّني، اليَوْمَ، لا أمْلِكُ إلّا أنْ أتَساءَلَ: هَلْ مِنْ مُتَّسَعٍ بَعْدُ، في هذا العالَمِ الذي أُخْلِيَ مِنْ كُلِّ ما لا لُزومَ لَهُ ــ هَلْ مِنْ مُتَّسَعٍ فيهِ، بَعْدُ، لِكَمالاتِ الحَياةِ الإنْسانِيَّةِ، أي لِتِلْكَ العناصِرِ التي تَمْحَضُ الحَياةَ الإنْسانِيَّةَ بُعْدَها الرُّوحيّ؟ بِكَلامٍ آخَرَ: هل ضاقَ تَعْريفُنا لِما هو لازِمٌ إلى حَدٍّ لا مَحَلَّ مَعَهُ، بَعْدُ، لِنَزَواتِ الرّوحِ الإنْسانِيَّةِ بَلْ لِطَيْشِها ونَزَقِها؟

ولنا أنْ نَنْظُرَ في هذهِ المَسْألَةِ مِنْ وُجْهَتَيْنِ اثْنَتَيْن: الوُجْهَةِ العِلْمِيَّةِ والوُجْهَةِ الإنْسانِيَّةِ، (أو الرّوحيَّة).

فَلْنَبْـدأ بالأولـى: لِسَـنَواتٍ خَلَـتْ دارَ بَيْنـي وَبَيْـنَ جـورج إيسـتمان(*) حَديـثٌ مَـدارُهُ علـى النّافِـعِ والنّافـل؛ أمّـا مُناسَـبَةُ هـذا الحَديـثِ مَـعَ هـذا الرَّجَـلِ الحَكيـمِ اللَّطيـفِ البَعيـدِ النَّظَـرِ عِـلاوَة علـى مـا وُهِبَهُ مِـنْ ذائِقَـةٍ موسـيقيَّةٍ فَنِّيَّـةٍ رَفيعةٍ فَمـا كانَ إيسـتمان قـد عَقَدَ العَزْمَ عَلَيْـهِ مِنْ وَقْفِ جُـزْءٍ مِـنْ ثَرْوَتِـهِ الطّائِلَـةِ لِتَشْـجيعِ التَّعْليـمِ فـي فُـروعِ العِلْـمِ النّافِعَـة.

فـي مَعْـرِضِ حَديثِنـا سَـأَلْتُهُ، علـى بَيِّنَـةٍ مِمّـا فـي سُـؤالي مِـنْ مُجازَفَـة: مَنْ هُـوَ المُقَـدَّمُ لَدَيْـكَ مِنَ العُلَماءِ بِلِحاظِ ما أنْعَمَهُ على البَشَـرِيَّةِ مِنْ مَنْفَعَةٍ فـي المَجـالِ العِلْمِـيّ؟ بلا تَـرَدُّدٍ أجـاب: ماركوني! لَـمْ أتَمالَـكْـني، عِنْـدَ جَوابِـهِ هـذا، مِـنَ التَّعْليـق: «أيًّـا تَـكُنِ المُتْعَـةُ التـي يُوَفِّرُهـا لنا المِذْيـاعُ، وأيًّا تَـكُنِ أهَمِّيَّـةُ الاتِّصالِ اللّاسِـلْكِيِّ في حَياةِ البَشَـرِ، فـإنَّ يَـدَ ماركوني فـي هذا جميعًا لا تَـكادُ تُذْكَر!».

(*) جـورج إيسـتمان، (١٨٥٤ ـ ١٩٣٢)، مُؤَسِّـسُ شَـرِكَةِ «إيسـتمان كـوداك» التـي عَمَّمَـتْ ثقافَـةَ التَّصْويـرِ بَيْـنَ عامَّـةِ النّـاس.

وإنْ أنْسى لا أنْسى دَهْشَتَهُ مِنْ تَعْليقي هذا. وإذِ اسْتَزادَني في بَيانِ ما أعْني حَدَّثْتُهُ بالكَلِماتِ التّالِيَة: «يا سَيِّدي العَزيز، لا، لَيْسَ لي، ولا لأحَدٍ أنْ يُنْكِرَ فَضْلَ ماركوني؛ غَيْرَ أنَّهُ، إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ أن يُنْسَبَ فَضْلُ هذا الاخْتِراعِ الحاسِمِ إلى أحَدٍ مِنَ النّاس، فالأوْلى بالفَضْلِ أنْ يُنْسَبَ إلى العَلّامة كليرك ماكسويل الذي اشْتَغَلَ عام ١٨٦٥ على مَجْموعَةٍ مِنَ الحِساباتِ المُعَقَّدَةِ العَويصَةِ في مَجالِ المِغْنَطيسيّاتِ والكَهْرباءِ والذي نَشَرَ المُعادَلاتِ النَّظَرِيَّةَ التي تَوَصَّلَ إلَيْها مِنْ حِساباتِهِ تِلْكَ عام ١٨٧٣.

في تِلْكَ السَّنَةِ، وبِمُناسَبَةِ مُؤْتَمَرٍ عَقَدَهُ "المَعْهَدُ البريطانِيُّ للتَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ"، عَلَّقَ أُسْتاذٌ بِجامِعَةِ أوكسفورد على أبْحاثِ ماكسويل وخُلاصاتِها بالقَوْل: "حَقٌّ على كُلِّ عالِمِ رِياضِيّاتٍ يُطالِعُ هذهِ الأبْحاثَ أنْ يُقِرَّ بأنَّها إضافَةٌ هامَّةٌ إلى مَنْهَجِ الرِّياضِيّاتِ البَحْتِ وعِلْمِها".

وخِلالَ السَّنَواتِ الخَمْسِ عَشْرَةَ التّالِيَةَ رَفَدَتْ

اكْـتِشافاتٌ أُخْـرى الجَهْـدَ النَّظَـرِيَّ الـذي رادَهُ ماكسـويل. وأخيرًا، في ١٨٨٧ و١٨٨٨ حَلَّ هَيْنريخ هرتـس، مُسـاعِدُ العَلّامَـةِ هلْمهولتـس(*) المَسْـأَلَةَ التـي كانَـتْ لَمْ تَـزَلْ حتّى يَوْمذاكَ عالِقَـةً ومَوْضِعَ أخْـذٍ ورَدٍّ وهـي مَسْـأَلَةُ التَّعَـرُّفِ علـى المَوْجـاتِ الكَهرومِغْنَطيسـيَّةِ المُوصِلَةِ للإشـاراتِ اللّاسـلكيَّة. علـى أنَّـهُ، وَلِلْعِلْـمِ بِالشَّـيْء، فـلا ماكسـويل ولا هرتـس كانـا فـي شُـغْلٍ شـاغِلٍ مِـنَ التَّطبيقـاتِ العَمَلِيَّـةِ المُحْتَمَلَـةِ لأبْحاثِهِمـا واكْتِشـافاتِهِما، بَـلْ لا مُبالَغَـةَ فـي القَـوْلِ إنَّ هـذهِ التَّطبيقـاتِ كانَـتْ آخِـرَ هَمَّهُما.

بالمَعْنـى القانونـيِّ، ماركونـي، نَعَـمْ، هـو صاحِبُ الاخْتِـراعِ، أمّـا بالمَعْنـى العِلْمِـيِّ فما الـذي يُمْكِنُ نِسْـبَةُ اخْتِراعِهِ إلى ماركوني؟ لا شَـيْءَ حَقًّا سِـوى بَعْضِ التَّفاصيلِ التِّقْنِيَّةِ التي يَتَأَلَّفُ مِنْها مِكْشـافُ المَوْجـاتِ، جِهـازُ الاسْـتِقْبالِ الـذي نَتَعـارَفُ علـى

(*) هيرمـان هلمهولتـس، (١٨٢١ ـ ١٨٩٤)، فيزيائِـيٌّ ألْمانِـيٌّ لَـهُ إسْـهاماتٌ جَليلَـةٌ فـي عَـدَدٍ مِـنَ المَجـالاتِ العِلْمِيَّـة.

تَسْمِيَتِهِ بـ "الرّاديو"/"المِذْياعِ"، والذي يَتَقادَمُ اسْتِخدامُهُ إلّا في نِطاقاتٍ جُغرافِيَّةٍ ضَيِّقَة.

نَعَمْ، رُبَّ قائِلٍ إنَّ ماكسويل وهرتس لَمْ يَخْتَرِعا شَيْئًا، وهو قَوْلٌ صَحيحٌ، ولكنْ صَحيحٌ أيْضًا أنَّهُ لَوْلا ما اسْتَغْرَقا فيهِ مِنْ جَهْدٍ نَظَريٍّ لَما تَمَكَّنَ فَنِّيٌّ ماهِرٌ مِنْ قَبيلِ ماركوني مِنِ اخْتِراعِ هذِهِ الوَسيلَةِ الجَديدَةِ النّافِعَةِ والمُسَلِّيَةِ مِنْ وَسائِلِ الاتِّصال، ولَما تَحَقَّقَ لآخَرينَ، بِفَضْلِ هذهِ الوَسيلَةِ، على قِلَّةِ مُساهَمَتِهِم في تَطْويرها، ما تَحَقَّقَ لَهُم مِنْ مَجْدٍ ومَكاسِب. فَلْنَسْألِ السُّؤالَ مُجَدَّدًا: مَنْ هوَ صاحِبُ اليَدِ في هذا الفَتْح؟ بِلا تَرَدُّدٍ: إنَّهُما العَبْقَريّانِ ماكسويل وهرتس اللَّذانِ صَفَتْ نِيَّتُهُما مِنْ أيِّ قَصْدٍ نَفْعِيّ. أمّا ماركوني فإنَّما اخْتَرَعَ ما اخْتَرَع لِوَجْهِ النَّفْعِ لَيْسَ إلّا...».

وإذِ اسْتَحْضَرَ ذِكْرُ هرتس إلى خاطِرِ السَّيِّدِ إيستمان التَّرَدُّداتِ الهِرتسيَّة، اقْتَرَحْتُ عَلَيْهِ أنْ يَتَحَقَّقَ مِنْ أساتِذَةِ الفيزياءِ بِجامِعَةِ روتْشِسْتر مِمّا قامَ بِهِ ماكسويل وهرتس مَعَ ثِقَتي المُطْلَقَةِ

بِما أُؤَكِّدُهُ مِنْ أنَّ العالِمَيْنِ هَذَيْنِ لَمْ يَقْصِدا في كُلِّ أبْحاثِهِما إلى أيَّةِ غايَةٍ عَمَلِيَّةٍ نَفْعِيَّةٍ، ومَعَ ثِقَتي بأنَّ المُعْظَمَ مِنَ الاكْتِشافاتِ ومِنَ الاخْتِراعاتِ الكُبْرى التي أفادَتِ البَشَرِيَّةُ مِنْها إنَّما جَرَتْ على أيْدي رِجالٍ ونِساءٍ لَمْ يُوَلّوا في ما اكْتَشَفوهُ واخْتَرَعوهُ وَجْهَ النَّفْعِ والجَدْوى وإنَّما لَبّوا نِداءَ الفُضولِ والمَعْرِفَةِ المُجَرَّدَة.

- لبّوا نِداءَ الفُضول؟

- نَعَمْ، لبّوا نِداءَ الفُضول!

فالفُضولُ، سَواءٌ أتَمَخَّضَتْ عَنْهُ أُمورٌ نافِعَةٌ أمْ لَمْ يَتَمَخَّضْ عَنْهُ شَيْءٌ، هو السِّمَةُ الأبْرَزُ مِنْ سِماتِ الفِكْرِ الحَديثِ. والحَقيقَةُ أنْ لا جَديدَ حَقًّا بِأنَّهُ كذلك.

فَنَسَبُ الفُضولِ هذا يَرْتَفِعُ إلى عُصورٍ خَلَت، بَلْ يَرْتَفِعُ إلى چاليليو وبيكون(*) ونيوتن، والأوْلى

(*) فرانسيس بيكون، (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، فَيْلَسوفٌ وَرَجُلُ دَوْلَةٍ وكاتِبٌ إنْچليزيٌّ مِنْ رُوّادِ «المُلاحَظَةِ والتَّجْريب».

بِنا أنْ نُشَجِّعَ ازْدهارَهُ بَيْنَنا، والأوْجَبُ على المُؤَسَّساتِ العِلَمِيَّةِ ومَعاهِدِ البَحْثِ أنْ تُشَجِّعَ على ذلك أيضًا. فَبِمِقْدارِ ما يُزاحُ عَنْ كاهِلِ هذِهِ المُؤَسَّساتِ والمَعاهِدِ مُوجِبُ الإنْتاجِ النَّفْعِيِّ المُباشَرِ، بِمِقْدارِ ما يُرَجّى أنْ تَزيدَ مُساهَماتُها في خَيْرِ البَشَرِيَّةِ وصَلاحِها، وبِمِقْدارِ ما يُرَجّى لها أيْضًا، (ولَيْسِ هذا مِمّا يُسْتَهانُ بِهِ)، أنْ تُشْبِعَ الفُضولَ وحُبَّ الاسْتِطلاعِ بِوَصْفِهِما، في عَصْرِنا هذا، سَيِّدا الحياةِ الثَّقافِيَّةِ والعِلْمِيَّة.

II

وما يَصْدُقُ على العالِمِ هينريخ هيرتس الذي عَمِلَ طيلَةَ سَنَواتٍ، على أواخِرِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ، بِصَمْتٍ وَتَجَرُّدٍ، في مُخْتَبَرِ أستاذِهِ هلمهولتس، يَصْدُقُ، إلى حَدٍّ بَعيدٍ، على كُلِّ عُلماءِ العالَم.

حَسْبُنا أنْ نَتَمَثَّلَ في خَيالنا، وَلَوْ لِلَحْظَةٍ واحِدَةٍ، أنَّهُ لولا الجُهودُ التي بَذَلَها بَعْضُ هَؤلاءِ لكُنّا

نَعيشُ في عالَمٍ يُخَيِّمُ عَلَيْهِ، في ما يُخَيِّمُ، الظَّلامُ ــ الظَّلامُ بِالمَعْنى الحَرْفِيِّ للكَلِمَة...

فإنْ يُسْتَفْتى النّاسُ في مَشارِقِ الأرْضِ وَمَغارِبِها عَنْ الاخْتِراعِ الأوْسَعِ انْتِشارًا والأكثَرِ تأثيرًا على حَياتِهِم العَمَلِيَّةِ لما تَرَدَّدَ المُعْظَمُ مِنْهُم عَنِ القَوْل: الكَهْرَباء! فَمَنْ هُمُ أُولئك الذين نَدينُ لَهُم بالاكْتِشافاتِ الرَّئيسَةِ التي أفْضَتْ إلى اخْتِراعِ الكَهْرَباء؟ سُؤالٌ وَجيهٌ وجَوابُهُ في مَحَلِهِ في سِياقِ بَحْثِنا هذا.

هاكُم بَعضًا مِنْ قِصَّةِ الكَهرباء: وُلِدَ مايكل فارادي، (١٧٩١ ـ ١٨٦٧)، لأبٍ يَعْمَلُ حَدّادًا. على الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ التَحَقَ مايكل بِحانوتِ كُتْبِيٍّ يَتَعاطى أيْضًا تَجْليدَ الكُتُبِ لِيَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ التَّجليدِ هذِه.

ثُمَّ كانَ ذاتَ يَوْمٍ، بَعْدَ سَنَواتٍ على ذلك، أنِ اصْطَحَبَهُ صَديقٌ لَهُ إلى «المَعْهَدِ المَلَكِيِّ» لِحُضورِ مُحاضَراتٍ في الكيمياء يُلقيها السّير همفري ديڤي.

مِـنْ وَحْـي هـذه المُحاضَـراتِ، دَوَّنَ الشّـابُّ ذو الإحْدى والعِشْـرينَ سَـنَةً مَجْموعَةً مِنَ المُلاحَظاتِ وافـى السّـير ديڤـي بِنُسْـخَةٍ مِنْها.

لَـمْ يَسْـتَهْتِر ديڤي بِهَـذِهِ المُلاحَظـاتِ ولا تأخَّرَ عن الاتِّصـالِ بالشّـابِ، ومـا هـي إلّا أشْـهُرٌ حتّـى وَجَـدَ فـارادي نَفْسَـهُ فـي وَظيفَـةِ باحِـثٍ مُسـاعِدٍ فـي مُخْتَبَـرِ الكيميـاءِ الـذي يُديـرُهُ ديڤـي.

ومـا إنْ دَخَـلَ العـامُ التّالـي حتّـى وَجَـدَ مايـكل نَفْسَـهُ يُرافِـقُ السّـير ديڤي فـي رِحْلَـةٍ عِلْمِيَّةٍ إلى أوروبّـا. وفـي عـامِ ١٨٢٥، علـى الرّابعـةِ والثّلاثينَ مِـنَ العُمْـرِ، عُيِّـنَ مايكل مُديـرًا لِمُخْتَبَـرِ «المَعْهَدِ المَلَـكِيِّ» وأقـامَ فـي هـذا المَنْصِـبِ أرْبَعًـا وخمسـينَ مُتَتاليـات.

شَـيْئًا فَشَـيْئًا كانَ اهْتِمـامُ فـارادي قَـدْ تَحَـوَّلَ مِـنَ الكيميـاءِ إلـى الكَهْرَبائِيّـاتِ والمِغْنَطيسـيّاتِ وهُمـا المَجـالانِ اللّـذان انْتَهى بِـهِ الأمْـرُ أنْ وَقَفَ عَلَيْهِمـا مُعْظَـم حَياتِـه. بالطَّبْـع لَـمْ يَخْـلُ فـارادي

فـي هَذَيْـنِ المَجالَيْـنِ مِـنْ أسْـلاف؛ فَمِـنْ قَبْلِهِ كان الدِّنْمَرْكِيُّ هانز كريسـتيان أورستد، (١٧٧٧ ـ ١٨٥١)، والفَرَنْسِـيُّ أندريـه مـاري أمبيـر، (١٧٧٥ ـ ١٨٣٦)، والبريطانِـيُّ ويليـم هايده ولسـتو، (١٧٦٦ ـ ١٨٢٨) قَـدْ فَتَحوا فيهِمـا عَدَدًا مِنَ الفُتوحـاتِ، غَيْرَ أنَّ هذهِ الفُتوحـاتِ بَقِيَـتْ مَغْمـورَةً وناقِصَة.

فـي عـامِ ١٨٤١ نَجَـحَ فـارادي فـي حَـلِّ عَـدَدٍ مِنَ المَسـائِلِ التـي لَـمْ يَكُـنْ أسْـلافُهُ قَـدْ تَمَكَّنـوا مِنْها واسْـتَحْدَثَ مـا نُسَـمّيهِ بـ«التَّيّـارِ الكَهْرَبائيّ».

بَعْـدَ أرْبَـعِ سَـنَواتٍ علـى ذلـكَ اكْـتَشَفَ تأثيـرَ المِغْنَطيـسِ علـى «الضَّـوْءِ المُسْـتَقْطَبِ» ودَشَّـنَ مَـعَ هـذا الاكْـتِشافِ مَرْحَلَـةً جَديـدةً مِـنْ حَياتِـهِ المِهَنِيَّـةِ والعَمَلِيَّـةِ لا تَـتَدَنّى أَلَقًـا عَـنِ المَرْحَلَـةِ الأولى. وإنْ تَـكُنْ اكْتِشـافاتُ فارادي في المَرْحَلَةِ الأولـى قَـدْ تُرْجِمَـتْ إلـى مـا لا حَصْرَ لَـهُ ولا عَدَدَ مِـنَ التَّطْبيقـاتِ والاسْـتِخداماتِ العَمَلِيَّـةِ حَيْـثُ خَفَّفَـتِ الكَهْربـاءُ بِمـا لا يُـقاسُ مِنْ أعْبـاءِ الحَياةِ وتَـكاليفِها، فـإنَّ اكْـتِشافاتِ المَرْحَلَـةِ الثّانِيَـةِ لَمْ

تُتَرْجَمْ، حتّى اليَوْمَ، تَطْبيقاتٍ عَمَلِيَّة. هَلْ لِهذا الفارِقِ بَيْنَ المَرْحَلَتَيْنِ، وما تَرَتَّبَ على كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُما مِنْ نَتائِجَ عَمَلِيَّةٍ أوْ لَمْ يَتَرَتَّب، عِنْدَ فارادي نَفْسِهِ، مِنْ حُسْبان؟ أحْمَقُ مَنْ يَظُنُّ أنَّهُ كذلك!

فَطيلَةَ حَياتِهِ لَمْ يُبالِ فارادي أدْنى مُبالاةٍ بالوَجْهِ العَمَلِيِّ النَّفْعِيِّ لاكْتِشافاتِه. مُسْتَغْرِقًا في فَكِّ أسْرارِ الكَوْن، في مَجالِ الكيمياءِ أوَّلًا ثُمَّ في مَجالِ الفيزياءِ، لَمْ يُلْقِ فارادي أدْنى بالٍ إلى ما يُمْكِنُ أنْ يَتَأَدّى مِنِ اكْتِشافاتِهِ بَلْ لَعَلَّهُ لَوِ انْشَغَلَ بِذَلِكَ لَضَيَّقَ على نَفْسِهِ وعلى فُضولِهِ، واسْتِطْرادًا على مَلَكَةِ الإبداعِ لَدَيْه.

لَمْ تأخُذِ اكْتِشافاتُ فارادي كُلَّ مَداها النَّفْعِيِّ والعَمَلِيِّ إلّا مُتَأَخِّرًا؛ أمّا تَجارِبُهُ التي أتاحَتْ لَهُ الوصولَ إلى تِلْكَ الاكْتِشافاتِ فَلَمْ تَخْضَعْ يَوْمًا لِمِعْيارِ النَّفْعِ والتَّطْبيقِ العَمَلِيّ.

في هذا العالَمِ الذي نَعيشُ فيهِ والذي هو على

ما هو، مِنَ الواجِبِ أنْ نُسارِعَ إلى القَوْلِ بأنَّ يَدَ العِلْمِ في تَطْويرِ التِّقْنِيّاتِ الحَرْبِيَّةِ، وكُلُّنا يَعْرِفُ بأنَّ هَذه التِّقَنِيّاتِ تَزْدادُ فَتْكًا وتَدْميرًا ـ بِأنَّ يَدَ العِلْمِ هذهِ نَتيجَةٌ ثانَوِيَّةٌ، وأحْيانًا طارِئَةٌ، مِنْ نَتائِجِ البَحْثِ العِلْمِيِّ لا يَتَحَمَّلُ هذا البَحْثُ مَسْؤولِيَّتَها والتَّبِعَةَ عَنْها.

لِعَهْدٍ قَريبٍ خَلا ذَكَّرَنا اللورد ريليغ، رَئيسُ «المَعْهَدِ البريطانِيِّ للتَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ»، مُصيبًا في تَذْكيرِنا وفي ما تَكَبَّدَ عَناءَ التَّذْكيرِ بِه، بأنَّ المَسْؤوليَّةَ عَنِ اسْتِخْداماتِ العَناصِرِ الكيميائِيَّةِ في الحُروبِ الحَديثَةِ إنَّما تَقَعُ على البَشَرِ وجُنونِهِم لا على العُلَماءِ ومَقاصِدِهِم.

لَقَدْ أثْمَرَتْ دِراسَةُ مُرَكَّباتِ الكَرْبون وتَفاعُلاتِها، في مَنْأى مِنْ أيِّ غايَةٍ نَفْعِيَّةٍ، ثِمارًا شَتّى مِنْها ما كانَ مِنْ تَخْليقِ مادَّةِ النّيتروغليسيرين، عِلْمًا أنَّ للنّيتروغليسرين اسْتِخْداماتٌ مِنْها النّافِعُ ومِنْها الضّارّ. ثُمَّ كانَ أنْ تَوَصَّلَ الكيميائيُّ السُّوَيْدِيُّ ألفرد نوبل، (١٨٣٣ ـ ١٨٩٦)، بأنْ مَزَجَ بَيْنَ

النّيتروغليسيرين ومَوادَّ أُخْرى، إلى إنْتاجِ مادَّةٍ مُتَفَجِّرَةٍ صَلْبَةٍ تَقْبَلُ التَّحَكُّمَ بها. صَحيحٌ أنَّ الدّيناميتَ باتَ مُرادِفًا لِشُرورِ الحَرْبِ والإرْهابِ ومَآسيهما، ولكِنْ... فَلْنَتَذَكَّرْ أنَّ الفَضْلَ في حَفْرِ المَناجِمِ وَفي شَقِّ أنْفاقِ القِطاراتِ يَعودُ للدّيناميت أيْضًا!

وبِهذا المَعْنى فإنَّ المَسْؤولِيَّةَ عَنِ اسْتِخداماتِ الدّيناميتِ لأغْراضٍ حَرْبِيَّةٍ لا يُمْكِنُ أنْ تُلْقى على العُلَماءِ كما أنَّ دِراسَةَ العُلَماءِ لِطَبَقاتِ الأرْضِ لا يُلْقي عَلَيْهِم مَسْؤولِيَّةَ الزَّلازِلِ أو دِراسَةَ المُحيطاتِ مَسْؤولِيَّةَ الفَيَضاناتِ!

وما يَصِحُّ على الدّيناميتِ يَصِحُّ على اسْتِعْمالِ بَعْضِ الغازاتِ لِغاياتٍ حَرْبِيَّة. فَلْنَتَذَكَّرْ: لأَلْفيِّ عامٍ ماتَ پلين(*) اخْتِناقًا نَتيجَةَ اسْتِنْشاقِهِ غازًا سامًّا انْبَعَثَ مِنْ بُركانِ الڤيزوڤ خِلالَ إحْدى ثَوْراتِه. هَلْ مُفادُ ذلك أنَّ دِراسَةَ الڤيزوڤ هي ما تَسَبَّبَ بِمَوْتِ پلين؟

(*) پلين، (٢٣ ـ ٧٩)، عالِمُ طَبيعِيّاتٍ رومانِيّ. مُؤَلِّفُ **التّاريخ الطّبيعي**.

لَـمْ يَقْصِـدِ العُلَمـاءُ يَـوْمَ أنْ عَزَلـوا مـادَّةَ الكلور، أو يَـوْمَ أنْ صَنَعـوا غـازَ الخَـرْدَلِ، إلـى مـا اسْـتُخْدِمَتْ لَـهُ هـذهِ المَـوادُّ علـى أيْـدي فُـلانٍ أو فُـلانٍ مِـنَ الذيـن أدْرَكـوا أيْضًـا ما يُمْكِـنُ أنْ يَعْنيه، مَـعَ تَطَوُّرِ عِلْـمِ الطَّيَـرانِ، إلْقـاءُ هذهِ المـوادِّ مِنَ الجَـوّ. مَعْقِدُ الأمْـرِ إذًا، متـى ما تَعَلَّـقَ الأمْرُ بالدّينامیـتِ أو بِغازِ الخَـرْدَلِ، هـو في المَسـؤولِيَّةِ عن الاسْـتِخدامِ لا في المَسْـؤولِيَّةِ عَـنِ الاخْتِراع.

فَلْنَنْتَقِـلِ الآنَ للحَديـثِ بَعْـضَ الشَّـيْءِ عَـنِ الرِّياضيّـاتِ البَحْـت.

علـى مـا نَعْرِف جَميعًـا فإنَّ الفَتْـحَ الأبْرَزَ فـي عِلْمِ الرِّياضِيّـاتِ خِـلالَ القَرْنَيْـنِ الثّامِـنِ والتّاسِـعَ عَشَـرَ هـو الهَنْدَسَـةُ غَيْـرُ الإقْليديَّـة. هـو كذلـك، بَيْـدَ أنَّ التَّذْكيـرَ واجِـبٌ بـأنَّ العَلّامَةَ الرِّياضـيَّ يوهان كارل فريدريـش چـاوس (١٧٧٧ـ ١٨٥٥)، مـع عُلُـوِّ كَعْبِهِ بَيْـنَ رِياضِيّـي زَمانِـهِ، لَـمْ يَجْرؤ علـى نَشْـرِ نَظَرِيَّتِهِ الخاصَّـةِ بالهَنْدَسَـةِ غَيْـرِ الإقْليديَّـةِ طيلَةَ رُبْـعِ قَرْن. ومِـنْ بـابِ التَّذْكيـرِ أيْضًا فـإنَّ نَظَرِيَّةَ النِّسْـبِيَّةِ ذاتِ

الاسْـتِخداماتِ العَمَلِيَّـةِ العَديـدَةِ مـا كانَ لهـا أنْ تُكْتَشَـفَ لَـوْلا الفَتْـحُ العِلْمِـيُّ الـذي فَتَحَـهُ چاوس وأبْقـاهُ طَـيَّ الكِتْمـانِ سَـنَواتٍ طَويلَة.

كَذَلِـكَ قُـلْ عَـنِ النَّظَرِيَّـةِ الرِّياضِيَّـةِ المَعْروفَـةِ بـ«نَظَرِيَّـةِ المَجْموعـات». لَمْ تَخْرُجْ هـذهِ النَّظَرِيَّةُ، أوَّلَ الأمْـرِ، عَـنْ كَوْنِها نَظَرِيَّـةً رِياضِيَّـةً مُجَـرَّدَةً طَوَّرَهـا، جَماعَـةٌ مِـنَ العُلمـاءِ، خِـلالَ أبْحاثِهِـم، علـى نَحْـوٍ مِـنَ الصُّدْفَةِ والاتِّفـاق. على أنَّـهُ، فَهَذِهِ النَّظَرِيَّـةُ غَيْـرُ ذاتِ الاسْـتِخْدامِ العَمَلِـيِّ هـي فـي أسـاسِ نَظَرِيَّـةِ «الكوانتـوم» التـي تُتيـحُ بِدَوْرِهـا لآلافِ البَشَـرِ، يَوْمِيًّا، أنْ يُخْضَعـوا، لِـدَواعٍ عِلاجِيَّـةٍ، علـى غَيْـرِ بَيِّنَـةٍ مِـنْ كُلِّ هـذهِ التَّفاصيـلِ، للتَّحْليلِ الطِّبِّـيِّ المَعْـروفِ بـ«التَّحْليـلِ الطَّيْفـيّ»!

لا يَخْـرُجُ حِسـابُ الاحْتِمـالاتِ عَـنْ هـذهِ الدّائِـرَةِ مِـنْ صُـدَفِ البَحْـثِ العِلْمِـيِّ واتِّفاقاتِـه. فَلَقَدْ نَشَـأَ حِسـابُ الاحْتِمـالاتِ مِـنْ عَـزْمِ عَـدَدٍ مِـنْ عُلَمـاءِ الرِّياضيّـاتِ علـى عَقْلَنَـةِ ألْعـابِ الحَـظّ. نَعَـم، لَـمْ يَتَوَصَّلـوا إلـى مـا قَصَـدوا إلَيْـهِ ولـكِنَّ أبْحاثَهُـم

هـي القاعِـدَةُ العِلْمَيَّـةُ التـي تَسْـتَنِدُ إلَيْها شَـرِكاتُ التَّأْميـنِ فـي العُقـودِ التـي تُوَقِّعُها مَـعَ عُمَلائِهـا!

وبمـا أنَّ الشَّـيْءَ بالشَّـيْءِ يُذْكَـرُ، يَحْلـو لـي هُنا أنْ اسْتَشْـهِدَ بِمُقْتَطَـفٍ مِـنْ مَقالَـةٍ نُشِـرَت مؤخَّـرًا في إحْـدى المَجَـلّاتِ العِلْمِيَّة:

«يَبْـدو لـي أنَّ شُـهَرَةَ العلّامَـةِ ألبـرت آينشـتاين قَـدْ طـارَتْ إلـى آفـاقٍ أبْعَـدَ مِنْ تِلْـكَ التـي كانَتْ قَـدْ وَصَلَتْها مِـنْ بَعْـدِ أنْ ذاعَ فـي المَـلَأِ أنَّ هـذا الرِّياضـيَّ والفيزيائـيَّ الفَـذَّ قَـدْ بَلْـوَرَ لِخَمْـسَ عَشَـرَةَ سَـنَةً خَلَـتْ مُعـادَلاتٍ رِياضيَّـةً تُسْـهِمُ فـي تَفْسـيرِ سُـيولَةِ غـازِ الهليـوم الفائِقَةِ عِنْـدَ تَعْريضِهِ لِدَرَجـاتِ حـرارةٍ قَريبَـةٍ مِـنَ الصِّفْـرِ المُطْلَق. ففي مُؤْتَمَـرٍ دعـا إليـه "المَعْهَـدُ الكِيميائِـيُّ الأميركـيُّ" نَسَـبَ الأُسْـتاذُ بِجامِعَـةِ باريـس ف. لنـدن ــ الأُسْـتاذُ الزّائِـرُ بِجامِعَـةِ ديـوك حاليًّا ــ نَسَـبَ إلى ألبـرت آينشـتاين الفَضْـلَ فـي اشْـتِقاقِ مَفْهـومِ "الغـازِ المِثالِـيِّ" وذلـك بالإحالَـةِ إلـى عَـدَدٍ مِـنَ المَقـالاتِ التـي كانَ آينشـتاين قَـدْ نَشَـرَها خِـلالَ العامَيْـنِ ١٩٢٤/١٩٢٥.

فـي ذلـكَ الحيـنِ لَـمْ يَكُـنْ آينشـتاين مَشْـغولًا بِنَظَرِيَّـةِ النِّسْـبِيَّةِ وإنَّمـا بِعَـدَدٍ مِـنَ المَسـائِلِ

التَّفْصيليَّـةِ المُنْقَطِعَـةِ، علـى ما بَـدَتْ أيّامَذاكَ، عَنْ أيِّ بُعْـدٍ عَمَلِـيّ أوْ أيِّ تَطْبيـقٍ مُحَـدَّد.

كانَ آينشـتاين مَشْـغولًا بِوَصْـفِ مـا يَلْحَـقُ بِبَعْـضِ الغـازاتِ لـدى تَعْريضِهـا لِدَرجـاتِ حَـرارةٍ مُتَدَنِّيَـة. وإذْ كانَ مَعْروفًـا لـدى العُلَماءِ، علـى وَجْه العُمومِ، مـا يُصيـبُ الغـازاتِ في مِثْلِ هـذه الحالِ، لَـمْ يُلْقَ بـالٌ إلى أبْحـاثِ آينشـتاين تِلْـكَ ومَقالاتِه.

ثُمَ كانَ ما كانَ مِنِ اكْـتِشافِ آينشـتاين أنَّ الهليومَ اسْـتِثْناءٌ علـى القاعِـدَةِ، حَيْـثُ إنَّـهُ عِنْـدَ تَعْريضِـهِ إلـى حَـرارَةٍ مُتَدَنِّيَـةٍ يَـزْدادُ سُـيولةً عِـوَضَ أنْ يَزْدادَ لُزوجَـةً شـأنَ الغـازاتِ الأُخـرى، ثُـمَّ إنَّـهُ، عِنْـدَ تعْريضِـهِ لِهَـذِهِ الحَـرارَةِ يَتَحَـوَّلُ إلى ناقِـلٍ للحَرارَةِ لا مَثيـلَ لَـه...».

ويَخْلُـصُ لنـدن بَعْـدَ مَزيـدِ شَـرْحٍ وتَفْصيـلٍ إلى أنَّ سُـيولَةَ الهليـومِ المُدْهِشَـةِ تُبَـرِّرُ تَصَـوُّرَ السُّـيولَةِ كَمَفْهـومٍ قَريـبٍ مِـنْ طَـوافِ الإلكترونـاتِ فـي المَعـادِن...

بَيْـتُ القَصيـدِ أنَّ الطَّريـقَ إلـى النِّسْـبِيَّةِ التـي لا تُذْكَـرُ إلّا بالإحالَـةِ إلـى اسْـمِ آينشـتاين لـم تَـكُنْ

خطًّا مُسْتَقيمًا بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ اثْنَتَيْن. لَقَدِ اقْتَضى آينشتاين أنْ يَعْبُرَ بِمَحَطَاتٍ بَحْثِيَّةٍ شَتّى، لا جَدْوى مِنْها بالمَعْنى العَمَلِيِّ للكَلِمَةِ، قَبْلَ أنْ انْقَدَحَتْ عَبْقَرِيَّتُهُ عَن تِلْكَ المُعادَلَةِ الفَذَّةِ التي وَسَّعَتْ لنا الكَوْنَ وَوَسَّعَتْ مَعْرِفَتَنا بِه.

فَلْنَعُدْ عَوْدَنا الآنَ مِنْ آينشتاين إلى القَرْنِ التّاسِعِ عَشَرَ وإلى نَموذَجٍ ذي صِلَةٍ بالطِّبِّ وبِالصِّحَّةِ العامَّةِ وأعْني بِهِ عِلْمَ الجَراثيمِ أو البَكْتريولوجيا.

غَداةَ الحَرْبِ الفَرَنْسِيَّة/البروسيَّةِ، (١٨٧٠)، أسَّسَتْ ألمانيا جامِعَةَ ستراسبورچ العَريقَةَ وَجَعَلَتْ على رَأْسِها الطَّبيبَ العَلّامَةَ هاينريش ڤيلهم فون ڤالداير (١٨٣٦ ـ ١٩٢١).

وَيَرْوي فون ڤالداير، مِمّا يَرْويهِ في مُذَكِّراتِهِ، أنَّ أحَدَ الطُّلّابِ الذين تابَعوا أوَّلَ الفُصولِ الدِّراسِيَّةِ في الجامِعَةِ المُسْتَحْدَثَةِ كانَ طالِبًا في السّابِعَةَ عَشَرَ، لَيْسَ في شَخْصِهِ ما يَسْتَرعي الانْتِباهَ لِلْوَهْلَةِ الأوْلى، اسْمُهُ پول إرليخ. لَمْ يُبْدِ إرليخ،

(١٨٥٤ ـ ١٩١٥)، كَبيرَ اهْتِمامٍ بِدُروسِ التَّشْريحِ التي كانَ تَعْليمُها مِنْ مَسْؤولِيَّةِ فون ڤالداير... على أنَّهُ:

«لَمْ أتَأَخَّرْ بأنْ لاحَظْتُ بأنَّ إرليخ يُمْضي السّاعاتِ الطِّوالَ مُنْكَبًّا على مَكْتَبِهِ مُسْتَغْرِقًا بِتَفَحُّصِ أشياءَ ما بالميكروسكوپ. كذلك لاحَظْتُ أنَّ بُقَعًا مِنْ كُلِّ الألْوانِ تَنْتَشِرُ فَوْقَ مَكْتَبِهِ وَيَزْدادُ انْتِشارُها اليَوْمَ تِلْوَ الآخَر. ذاتَ يَوْمٍ حانَ مِنّي أنْ أفهَمَ في ما يَقْضي هذا الطّالِبُ وَقْتَه؛ فَدَنَوْتُ مِنْهُ واسْتَفْسَرْتُ مِنْهُ عَمّا يُشْغِلُه. بِرَباطَةِ جَأْشٍ شَزَرَني الطّالِبُ وقال: "Ich probiere"، وهي عِبارَةٌ تَحْتَمِلُ التَّأْويلَ على مُؤَوَّلِ "إنَّني أُجَرِّبُ" كما على مُؤَوَّلِ "إنَّني ألْهو". فَقُلْتُ لَهُ: "حَسَنًا، واصل لَهْوَك". كانَ ذلكَ مِنّي ولكِنَّني سُرْعانَ ما تَبَيَّنْتُ أنَّ إرليخَ طالِبٌ اسْتِثْنائِيٌّ وأنَّهُ لَمْ يَحْتَجْ إلى مَزيدِ تَوْجيهٍ لِيَجِدَ طَريقَه!».

عَنْ حُسنِ تَقْديرٍ وحِكْمَةٍ تَرَكَ فون ڤالداير لإرليخ أنْ يُتابِعَ لَهْوَه! واصَلَ التِّلْميذُ، على شَيْءٍ مِنَ التَّعَثُّرِ أحْيانًا، دِراسَةَ الطِّبِّ ونالَ الإجازَةَ فيهِ وعادِ الفَضْلُ في ذلكَ، على نَحْوٍ

حاسِمٍ، إلـى أساتِذَتِهِ الذين أدْرَكوا أنَّـهُ لا يَنْوي اتِّخـاذَ الطِّـبِّ مِهْنَـةً يَعْتـاشُ منهـا.

عِنْدَ تَخَرُّجِهِ قَصَدَ إرليخ مَدينَةَ برسلاو حَيْثُ عَمِلَ تَحْتَ إشْرافِ العَلَّامَةِ يوليوس كونهايم (١٨٣٩ ـ ١٨٨٤) الذي دَرَسَ على يَدِهِ طَبيبٌ نَعْرِفُهُ جَيِّدًا في هذهِ البلادِ، [في الولاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّة]، هو الدّكتور وليم وِلْش، (١٨٥٠ ـ ١٩٣٤)، مُؤَسِّسُ كُلِّيَّةِ الطِّبِّ في جامِعَةِ جون هوپكينز.

لا يَبْـدو أنَّ خاطِـرَ النَّفْـعِ والجَدْوى مَـرّا يَوْمًا في خاطِـرِ إلريـخ. مِـنْ ثَـمَّ تابَـعَ، مـا اسْـتَطاعَ، لَهْوَهُ لا مُقَدِّمًـا علـى فُضولِـهِ العِلْمِيِّ أيَّ شَـيْءٍ آخَر...

ثُـمَّ كانَ أنِ ابْتَـدَعَ العَلّامَـةُ الألْمانِـيُّ هينريـش كـوخ، (١٨٤٣ ـ ١٩١٠)، ومُعاونُـوُه عِلْمًـا جَديدًا عُـرِفَ باسـم البكـتيريولوجيا فأفـادَ أحَـدُ زُمـلاءِ إرليـخ مِـنْ تَجارِبِهِ في مَجـالِ تَلْوينِ البَكْـتيريا، وواصَـلَ إرليـخ نَفْسُـهُ تجارِبَـهُ وَلَهْـوَهُ فَطَـوَّرَ بِنَفْسِـهِ تِقَنِيَّـةَ تَلْويـنِ صَفائِـحِ الـدَّمِ التـي يَقـومُ

على أساسِها تَوْزيعُ الكُرَياتِ الدَّمَوِيَّةِ إلى بَيْضاءَ وحَمْراء!

في آلافٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ مُخْتَبَراتِ العالَمِ ومَشافيهِ، تُجْرى يَوْمِيًّا آلافٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ فُحوصاتِ الدَّمِ التي تُحيلُ، على عِلْمٍ وبَيِّنَةٍ مِمَّنْ يَقومونَ بِها وَمِمَّنْ يَسْتَفيدونَ مِنْها، أو على غَيْرِ عِلْمٍ وَبَيِّنَةٍ منهم، إلى تَجارِبِ إرليخ وإلى ما انَصْرَفَ إلَيْه يَوْمًا، في زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا مُخْتَبَرٍ في سَتراسبوغ، مِنْ لَهو!

فَلْنَضْرِبْ مَثَلًا آخَرَ، مِنْ عِدادِ أمْثِلَةٍ كَثيرةٍ، مُسْتَوحًى هذهِ المَرَّةِ مِنْ عالَمِ الصِّناعات؛ وأُحيلُ هُنا، في تَفاصيلِ المَثَلِ الذي أضْرِبُهُ، إلى العَلّامةِ والترِ برل، (١٩١٧ ـ ١٩٩٨)، مِنْ أعْلامِ مَعْهَدِ كارنجي للتكنولوجيا بمدينة بيتسبرج الأميركيَّة: إنَّما نَدينُ بِنُشوءِ تِقْنِيَّةِ الحَريرِ الصِّناعيِّ إلى النَّبيلِ الفَرَنْسِيِّ الكونت شاردونيه، (١٨٣٩ ـ ١٩٢٤)!

كانَتِ التِّقْنِيَّةُ التي يَلْجَأ إليها شاردونيه تَنُصُّ

على تَذْويبِ قُطْنِ النّيترونِ في كُحولِ الأثيرِ ثُمَّ على تَصْفِيَةِ المَحلولِ اللَّزِجِ المُتَخَلِّقِ مِنْ هذا المَزيجِ خَلَلَ أنابيبَ دَقيقَةٍ ثُمَّ على تَغْرِيقِ المَزيجِ المُصَفّى في الماءِ بِما يَضْمَنُ تَجَمُّدَ السّائِلِ على هَيْئَةِ شُعَيْراتٍ تُعَرَّضُ بَعْدَ تَغريقِها في الماءِ للهَواءِ قَبْلَ أنْ تُلَفَّ على بكرات.

ذاتَ يَوْمٍ لاحَظَ شاردونيه خِلالَ جَوْلَةٍ لَهُ في مَصْنَعِهِ في بيزانسون، (شَرْق فَرَنْسا)، الذي كانَتِ المِياهُ قَدِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أنَّ عَمَلِيَّةَ الغَزْلِ بِدونُ التَّغْريقِ في الماءِ تُؤْتي نَتائِجَ أفْضَلَ مِنْ عَمَلِيَّةِ الغَزْلِ مَعَ التَّغْريق: يَوْمذاكَ اكْتُشِفَ ما يُسَمّى الغَزْلُ الجافُّ، وهي تِقْنِيَّةُ غَزْلٍ ما تَزالُ مُسْتَخدَمَةً إلى يَوْمِنا هذا على أوْسَع نِطاق.

III

لا يُفْهَمَنَّ مِمّا تَقَدَّمَ أنَّني أزْعُمُ بأنَّ كُلَّ الأبْحاثِ التي تُجْرى وَراءَ أبوابِ المُخْتَبَراتِ المُغْلَقَةِ تَنْتَهي

حَتْمًا إلى نَتائِجَ عَمَلِيَّةٍ أوْ أنَّ هذهِ النَّتائِجَ هي ما يَحْتَجُّ للبَحْثِ العِلْمِيّ.

إنَّما مَعْقِدُ دَعْوَتي البَسيطَةِ والجازِمَةِ، في آنٍ، هي أنَّ نَنْفي مِنْ قاموسِنا كَلِمَةَ «جدْوى»، وأنْ نَدَعَ للفِكْرِ وللخَيالِ البَشَرِيَّيْنَ أنْ يُحَلِّقا على سَجِيَّتِهما.

لا اسْتَبْعِدُ أنْ يَفيدَ بَعْضُ المُشَعْوِذينَ مِنْ هذهِ الحُرِيَّةِ المُطْلَقَةِ في البَحْثِ، ولا أسْتَبْعِدُ اسْتِطرادًا أنْ نَخْسَرَ بَعْضَ الأمْوال؛ ولكِنَّ خَيْرَ هذا، تَحْريرَ العَقْلِ والفِكْرِ، بِشَرٍّ ذا. نَعَم، يَقيني أنَّ المُعادَلَةَ بَيْنَ ما يُمْكِنُ أن يَحْصُلَ مِنْ شَرٍّ ومن خَيْرٍ راجِحَةٌ لِمَصْلَحِةِ هذا الأخير.

ولنَتَذكَّرْ، وَلنُذَكِّرْ بَعْضُنا بَعْضًا: لوْلا ما حَلَّقَتْهُ عَبْقَرِيَّةُ الأميركي جورج هيل، (١٨٦٨ ـ ١٩٣٨)، والبريطاني إرنست رذرفورد، (١٨٧١ ـ ١٩٣٧)، وآينشتاين وأقرانِهِم لما باتَتْ أقاصي الفَضاءِ حَدودَ عالَمِنا، ولما انْطَلَقَتْ مِنَ الذَّرَّةِ هذهِ

الطّاقَـةُ الهائِلَـةُ التـي تَحْـتَ أيْدينـا اليـوم. ولَـوْلا داعِيَـةُ الفُضـولِ التـي تَلَبَّسَـتْ أمْثـالَ الدَّنْمَركـيِّ نيلـس بـور، (١٨٨٥ ـ ١٩٦٢)، والأميركـيِّ روبـرت ميلّيـكان، (١٨٦٨ ـ ١٩٥٣)، وَرَغَّبَتْ لَهُما، ولآخَرينَ، بِـأنْ يَفُكّوا سِـرَّ الـذَّرَّةِ، وَبـأنْ يَطَّلِعوا على مَكْـنونِ تَـكوينِها، لمـا كانَـتْ حَيـاةُ المَلايينِ المُمَلَيْنَةِ مِنَ البَشَـرِ علـى مـا هـي عَلَيْـهِ اليَـوْم.

ولكـنْ فَلْنَتَذَكَّـرْ أيْضًـا أنَّ التَّبَـدُّلَ الـذي دَخَـلَ على حَيـاةِ هَـؤلاءِ البَشَـرِ كانَ نَتيجَـةً ثانَوِيَّـةً وَلَـمْ يَكُـنْ، علـى الإطْـلاقِ، داعِيَـةَ فُـلانٍ أو فُـلانٍ مِـنَ العُلَمـاءِ إلـى مـا انْصَـرَفَ إلَيْـهِ مِـنْ بَحْـثٍ ومـا بَذَلَـهُ مِـنْ جُهْـد. مِـنْ ثَمَّ دَعْوَتـي إلى تَرْكِ الباحِثيـنَ والعُلَماءِ وشأنِهِم.

أحْمَـقُ مَـنْ يَظُـنُّ أنَّ بِوُسْـعِ «مُديرٍ» مـا أوْ «إدارَةٍ» مـا أنْ تُديـرَ الفِكْـرَ والخيـالَ العِلْمِيَّيْنَ بأفْضَـلَ مِمّا يَسْـتَطيعانِ، هُمـا نَفْسُـهُما، أنْ يُديرا نَفْسَـيْهِما.

فَلْنَعُـدْ عَوْدَنـا إلـى نَمـوذَجِ البكتيريولوجيـا: ما مِنْ

عاقِلِ يُمْكِنُهُ أنْ يَذْهَبَ إلى القَوْلِ بأنَّ أثْمانَ ما انْصَرَفَ إلَيْهِ إرليخ مِنْ لَهْوٍ تَزينُ مِنْ شَيْءٍ في مِيزانِ المَنافِعِ التي عادَتْ بِها على البَشَريَّةِ اكْتِشافاتُهُ واكْتِشافاتُ الفرنسيِّ لوي پاستور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥)، أوِ الألمانِيِّ روبرت كوخ، (١٨٤٣ ـ ١٩١٠)، أوِ الأميركيِّ ذي الأصولِ الألمانِيَّةِ تيوبالد سميث، (١٨٥٩ ـ ١٩٣٤)، وغيرِهِم. بَلْ هَلْ مَنْ يَسَعُهُ القَوْلُ إنَّ ما اكْتَشَفَهُ هَؤلاءِ كانَ لِيُكْتَشَفَ لَوْ أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمُ وَضَعَ نَصْبَ عَيْنَيهِ الجَدْوى العَمَليَّةِ لِما يَقوم بِهِ؟

إنَّ هَؤلاءِ المُبْدِعينَ العِظامَ ــ وكُلُّ عالِمٍ حَقًّا مُبْدِعٌ ــ إنَّما تَبِعوا سَبيلَ الفُضولِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ وهو ما سارَ بِهِم إلى ما تَحَقَّقَ على أيْديهِم مِن اكْتِشافات.

كذلك، لا يُفْهَمَنَّ مِنْ قَوْلي الانْتقاصُ مِنْ معاهِدِ الهَنْدَسَةِ أو الحُقوقِ أو سِواها حَيْثُ يَتَسَيَّدُ الدّافِعُ النَّفْعِيّ. بَلْ قَدْ يَحْدُثُ أحْيانًا أنْ تَسْتَثيرَ عَقَباتٌ أوْ صُعوباتٌ عَمَليَّةٌ في مَرافِقِ الصِّناعَةِ

أو فـي المُخْتَبـراتِ تَسـاؤلاتٍ نَظَرِيَّـةً يُـؤدّي التَّأَمُّلُ فيهـا، والسَّـعْيُ إلـى اقْتِـراحِ حُلـولٍ لهـا، إلـى فَتْـحِ آفـاقٍ جَديـدةٍ تُسْـهِمُ فـي تَذْليـلِ تِلَـكْ العَقَبـاتِ أو لا تُسْـهِم كمـا، لَرُبَّمـا، فـي اجْتِـراحِ اجْتِراحـاتٍ غَيْـرِ مُتَوَقَّعَـةٍ ذاتِ تَرْجَمـاتٍ مُسْـتَقْبَلِيَّةٍ، نَظَرِيَّةٍ أو عَمَلِيَّة .

إنَّ المُراكَمَـةَ المُتَسـارِعَةَ لِرَصيـدٍ مُتَعاظِـمٍ مِـنَ المَعـارِفِ اللّانَفْعِيَّـةِ أو النَّظَرِيَّـةِ البَحْـتِ قَدْ أفْضى إلـى واقِـعٍ غَيْـرِ مَسْـبوقٍ مِـنْ ذي قَبْـل. فـإنَّ عَدَدًا مُتَزايـدًا مِـنَ المَشـاكِلِ ذاتِ الطَّبيعَـةِ العِلْمِيَّـةِ قَـدْ دَخَلَـتْ تَحْـتَ حَـدِّ التَّفْكيـرِ العِلْمِـيِّ ولا أعْنـي بذلـكَ التَّفْكيـرَ العِلْمِيَّ المُتَوَجِّـهَ وُجْهَـةً عَمَلِيَّةً بَلِ التَّفْكيـرَ العِلْمِـيَّ الخالِـص.

لَقَـدْ ضَرَبْـتُ في مـا تَقَدَّمَ بِشَـخْصِ ماركونـي مِثالًا علـى ذَلِكَ: إنَّ أفْضـالَ هذا المُخْتَرِعِ على البَشَـرِيَّةِ لا تَنْفـي عَنْـهُ أنَّـهُ لَـمْ يَفْعَـلْ مِـنْ شَـيْءٍ سِـوى تَجْميـعِ مـا كانَ قـدْ سُـبِقَ إلَيـهْ مِـنِ اكْـتِشافاتٍ وتَرْجَمَـةِ هـذه الفُتوحـاتِ العِلْمِيَّـةِ إلـى أداةٍ ذاتِ

اسْتِخْداماتٍ عَمَلِيَّة. كَذَلِكَ الأمْرُ مِنْ توماس أديسون مَثَلًا. أمّا متى نَظَرْنا إلى پاستور وما في رَصيدِهِ مِنْ أفْضالٍ فَسَوْفَ نَجِدُ أنْفُسنا بَيْنَ يَدَيِّ طِرازٍ مُخْتَلِفٍ كُلَّ الاخْتِلاف.

ففي حينِ لَمْ يَتَأَنَّفْ پاستور مِنَ التَّصَدّي لِمُشْكلاتٍ ذاتِ طَبيعَةٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ مِثْلِ تِلْكَ التي تَعْرِضُ لأشْجارِ الكَرْمَةِ في نُمُوِّها أو التي تَعْرِضُ لِتَخْميرِ الجِعَةِ، فهو، في اجْتِهادِهِ لاجْتِراحِ حُلولٍ لِهَذِهِ المُشْكلاتِ، كانَ يَسْتَخْلِصُ خُلاصاتٍ نَفيسَةً، وإنْ غَيْرَ ذي قيمَةٍ نَفْعِيَّةٍ مُباشَرَة، لَمْ تَلْبَثِ البَعْضُ مِنْها أنْ أثْبَتَتْ ما هي عَلَيْهِ مِنْ أهَمِيَّةٍ ومِنْ خَطَر.

لَقَدْ كانَ إرليخ، كما جاءَ في ما سَبَقَ مِنْ قَوْلٍ، عالِمًا يَصِحُّ وَصْفُهُ بالتَّأَمُّلِيِّ العاكِفِ على اسْتِرْضاءِ دواعي الفُضولِ وحُبِّ الاسْتِطلاعِ، على أنَّ إرليخ هذا، نَفْسَهُ، انْشَغَلَ ذاتَ حينٍ بِمَرَضِ السِّفْلِسِ وَلَمْ يُغادِرِ انْشِغالَهُ بِهذا المَرَضِ إلّا بَعْدَ أنْ تَمَكَّنَ مِنْ إيجادِ عِلاجٍ لَه.

كذلِكَ قُلْ عَن اكْتِشافِ الأنسولين على يَدِ الكَنَدِيِّ فريدريك بانتينچ، (١٨٩١ ـ ١٩٤١)، وعَنِ اكْتِشافِ قُدْرَةِ مُسْتَخْرَجاتِ الكَبِدِ على مُعالَجَةِ الأنيميا الخَبيثَةِ على يَدَيِّ العالِمَيْنِ الأميركِيَّيْنِ جورج مينو، (١٨٨٥ ـ ١٩٥٠)، وَجورج ويبل، (١٨٧٨ ـ ١٩٧٦).

يَشْتَرِكُ هذانِ الاكْتِشافانِ بأنَّ أصْحابَهُما أدْرَكوا أنَّ في كَمِّ المَعارِفَ النَّظَرِيَّةِ التي كَدَّسَها العُلَماءُ قَبْلَهُمْ ولَمْ يُبالَوا باسْتِخْداماتِها التَّطْبيقيَّة ما يُمكْن الإفادَةُ مِنْه لاجْتِراحِ جَواباتٍ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الأسْئِلَةِ ذاتِ الطَّبيعَةِ العَمَلِيَّة. بِناءً عَلَيْهِ، لا بُدَّ مِنْ كَثيرٍ مِنَ الدِّقَّةِ والتَّأَنّي في نِسْبَةِ اكْتِشافٍ مُعَيَّنٍ إلى أحَدٍ مِنَ النّاسِ... فَلِمُعْظَمِ الاكْتِشافاتِ أنْسابٌ عَريقَةٌ وأحْيانًا أنْسابٌ غامِضَة.

يَبْدَأُ الأمْرُ باكْتِشافٍ جُزْئِيٍّ هُنا يَليهِ آخَرُ هُناكَ يَليهِ ثالِثٌ هُنالِك ثُمَّ يَتَّفَقُ لأحَدِهِم أنْ يَضُمَّ هذهِ الأجْزاءَ إلى بَعْضِها البَعْضَ ضَمًّا عَبْقَرِيًّا فَيَكونُ ما نُطْلِقُ عَلَيْه اسْمَ الاكْتِشاف. هذا شَأْنُ الأنْهارِ الكُبْرى تَبْدَأ حَيْثُ تَبْدَأُ سَواقٍ صَغيرَةٌ في

غاباتٍ قَصِيَّةٍ تَرْفِدُها سَواقٍ أكْبَر تَتَجَمَّعُ مِياهُها لِتَشُقَّ طَريقَها شَيْئًا فَشَيْئًا مُتَحَوِّلَةٍ خِلالَ مَسيرِها إلى هذهِ الأنْهارِ العَظيمَة الهادِرة.

تُثْبِتُ هذه الشَّواهِدُ والاعْتِباراتُ، إذا كانَ لا بُدَّ مِنْ إثْبات، الأهَمِيَّةَ القُصْوى لِحُرِّيَّةِ الفِكْرِ والبَحْث.

لَقَدِ اكْتَفَيْتُ في ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلي بِضَرِبِ أمْثِلَةٍ مَأْتاها العُلومُ التَّجْريبِيَّةُ والرِّياضِيّاتُ على أنَّ الحُرِّيَّةَ لا تَتَجَزَّأُ، وما يَصِحُّ على العُلومِ وعلى الرِّياضيّاتِ يَصِحُّ أيْضًا على الفُنونِ البَصَرِيَّةِ وعلى الموسيقى وعلى شَتّى التَّعْبيراتِ الفِكْرِيَّةِ التي تَحْمِلُ النَّفْسَ إلى أعْلى عِلِّيينَ ولا تَحْتاجُ، اسْتِطرادًا، وخارِجَ هذا المُؤَدّى، إلى ما يُبَرِّرُ الحُرِّيَّةَ التي تَحْتاجُ إلَيْها.

إنَّ الدِّفاعَ عَنْ أهَمِيَّةِ هذهِ التَّعْبيراتِ بِصَرِفِ النَّظَرِ عَنْ أيَّةِ غايَةٍ نَفْعِيَّةٍ هو دِفاعٌ عَنْ مُؤَسَّساتِ البَحْثِ العِلْمِيِّ ومَعاهِدِه. والمُؤَسَّساتُ التي تَسْتَحِقُّ هذا الدِّفاعَ عَنْها هي المُؤَسَّساتُ التي تُسْهِمُ على مدى

أجْيالٍ مُتَتابِعَةٍ في إطْلاقِ طاقاتِ طُلّابِها حتّى لا تَحْتاجُ إلى ما يُبَرِّرُ وُجودَها والمُرافَعَةَ عَنْ بقائِها بِصَرفِ النَّظَرِ عمّا قَدْ يَكونُ لِكُلِّ طالِبٍ بِعَيْنِهِ مِنْ يَدٍ أو فَضْلٍ في نَماءِ المَعارِفِ البَشَرِيَّة. بَلْ أقولُ: إنَّ قَصيدَةً واحِدَةً أو سيمفونِيَّةً واحِدَةً أوِ اكِتْشافًا عِلْمِيًّا واحِدًا كَفيلٌ بأنْ يُبَرِّرَ ضَرورةَ المُحافَظَةِ على هذِه المُؤسَّسات...

ويَبْدو لي، في ما يَبْدو، أنَّ لِما أقولُهُ هُنا مُبَرِّراتٍ آنِيَّةً كَثيرةً؛ ففي عَدَدٍ مِنْ بِقاعِ الأرْض، ولا سِيَّما في إيطاليا وفي ألمانيا، تَتَعَرَّضُ حُرِّيَّةُ البَحْثِ والتَّفْكيرِ الحُرِّ إلى إساءاتٍ مُقْلِقَة. لَقَدْ أُعيدَتْ هَيْكَلَةُ بَعْضِ الجامِعاتِ على نَحْوٍ يَجْعَلُ مِنْها مَرافِقَ عِلْمِيَّةً في خِدْمَةِ إيديولوجيّاتٍ سِياسِيَّةٍ واقتصاديَّةٍ بَلْ وعُنْصُرِيَّةٍ أحيانًا. ولَمْ يَخْلُ الأمْرُ أنْ شَهِدْنا في بَعْضِ الدُّوَلِ الدّيمقراطيَّةِ القَليلَةِ بَعْدُ في هذا العالَمْ أصْواتًا نَشازًا تُشَكِّكُ في أهَمِيَّةِ الإبْقاءِ على الحُرِّيّاتِ الجامِعِيَّةِ في إتاحَتِها البَحْثَ والتَّعْبيرِ الحُرّ.

فَلْنُسَلِّمْ إذًا، مَرَّةً لا عَوْدَةَ عَنْها، بأنَّ العَدُوَّ اللَّدودَ للجِنْسِ البَشَرِيِّ لَيْسَ العالِمَ الجَرِيءَ الذي لا يَخْشى في البَحْثِ لَوْمَةَ لائِمٍ، سَواءٌ أأصابَ في بَحْثِهِ أم أخْطَأَ، وإنَّما عَدُوُّهُ ذَلِكَ الذي يُحاوِلُ أنْ يَحْبِسَ الفِكْرَ البَشَرِيَّ في زِنْزانَةٍ لا تَتَّسِعُ لِما أثْبَتَ هذا الفِكْرُ في إيطاليا وألمانيا وبريطانيا والوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأميركيَّةِ وغَيْرِها أنَّ لَهُ مِنْ أجْنِحَةٍ خَفّاقَة!

بالطَّبْعِ، هذهِ الفِكْرَةُ لَيْسَتْ بالجَديدَة. إنَّها الفِكْرَةُ نَفْسُها التي اعْتَمَلَتْ في خاطِرِ ڤيلهم فون همبولت، (١٧٦٧ ـ ١٨٣٥)، يَوْمَ أنْ غزا نابليون ألمانيا فَرَسَمَ لإنْشاءِ جامِعَةٍ في بَرْلينَ وكُتِبَ له أن يُؤَسِّسَها.

إنَّها هيَ هيَ الفِكْرَةُ التي سارَ على هَدْيٍ مِنْها المُرَبّي الأميركيُّ العَلّامَةُ دانيل كويت چيلمان، (١٨٣١ ـ ١٩٠٨)، عِنْدما أنشَأَ عامَ ١٨٧٦ جامِعَةَ جون هوپكِنز، وهي الجامِعَةُ التي لَمْ تَلْبَثْ جامِعاتُ الولاياتِ المُتَّحِدَةِ وسواها أنْ نَهَجَتْ نَهْجَها في هَيْكَلَةِ نَفْسِها.

إنَّها هيَ هيَ الفَكْرَةُ التي يُفْتَرَضُ أن يُخْلِصَ لها كُلُّ واحِدٍ مِنَ النّاسِ حَريصٍ على الارْتِقاءِ بِنَفْسِهِ وعَقْلِهِ كائِنًا ما تَكُنِ الأثْمانُ التي قَدْ يُرَغَمُ على دَفْعِها لِقاءَ هذا الإخْلاص.

أقولُ قَوْلي هذا مَعَ التَّأْكيدِ على أنَّ التَّمَسُّكَ بالحُرِّيَّةِ مُقَدَّمٌ على أشْكالِ التَّجديدِ سَواءٌ أكانَ في مَجالِ الآدابِ أمْ في مَجالِ العُلومِ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ هذهِ هي شَرْطُ التَّسامُحِ أمامَ شتّى أشْكالِ التَّنَوّعِ والاخْتِلاف.

فَهَلْ أعْبَثُ، وَهَلْ أقْتَلُ، بِشهادَةِ التّاريخِ البَشَرِيِّ، مِنَ التَّمْييزِ القائِمِ على العِرْقِ أوْ على الدّين؟ وَهَلْ تَحتاجُ البَشَرِيَّةُ إلى عُلومٍ وفُنونٍ صَمّاءَ ثابِتَةٍ لا تَحولُ ولا تَزولَ أمْ أنَّها بِحاجَةٍ، لتُعَبِّرَ عَنْ نَفْسِها حَقَّ التَّعْبيرِ، إلى عُلومٍ وفُنونٍ، أشكالَ ألوان، مُبْدِعوها مِنْ كُلِّ أَلْوانِ الطَّيْفِ البَشَرِيِّ في تَنَوُّعِهِ الدّينيِّ والجِنْسيِّ والعِرْقيّ؟ كُلّي ثِقَةٌ بِأنَّهُ ما مِنْ اثْنَيْنِ يُسَلِّمانِ بِهَذِهِ الأوَّلِيَّةِ يَخْتِلِفانِ في الجَوابِ عَنْ هذا السُّؤال...

IV

لا إخالُني أُبالِغُ أوْ أتَجاوَزُ الحَقيقَةَ إنْ عَدَدْتُ إنْشاءَ «مَعْهَدِ الدِّراساتِ المُتَقَدِّمَةِ» في جامِعَةِ پرينستون بولاية نيوجيرسي على يَدِ رجل الأعمالِ والخَيْرِ لويس بامبرغر، (١٨٥٥ ـ ١٩٤٤)، وشَقيقَتِهِ كارولين، (١٨٦٤ ـ ١٩٤٤، وكارولين هذِهِ هي زَوْجُ فيلكس فولد شَريكِ شَقيقِها لويس في أعْمالِهِ التِّجارِيَّة)، والازْدِهارَ السَّريعَ لِهذا المَعْهَدِ، أحَدَ أبرَزِ الاسْتِجاباتِ لِما فَشا في العالَمِ من عُنْصُرِيَّةٍ بَيْنَ الحَرْبَيْن. فَلَقَدْ بَزَغَتْ فِكْرَةُ إنْشاءِ هذا المَعْهَدِ في عامِ ١٩٣٠، وحَكَمَ على اخْتيارِ پرينستون تَعَلُّقُ بامبرغر بنيوجيرسي. على أنَّني أُقَدِّرُ أنَّ مِنْ دَواعيهِ إلى ذَلِكَ أيْضًا، عِلاوَةً على هَواهُ الشَّخْصيِّ، ما بدا لَهُ مِنْ إمكانيَّةِ التَّعاوُنِ الوَثيقِ بَيْنَ المَعْهَدِ المُزْمَعِ تَأْسيسُهُ وبَيْنَ كُلِّيّاتِ جامِعَةِ پرينستون.

باشَرَ المَعْهَدُ نَشاطَهُ في عامِ ١٩٣٣ مُسْتَقْطِبًا

عَـدَدًا مِـنْ أبْـرَزِ العُلَمـاءِ الأميركيّيـنَ فـي مَجـالِ العُلـومِ البَحْـتِ كمـا فـي مَجـالِ الإنسـانيّات؛ بَيْـدَ أنَّ الفَضْـلَ فـي اسْـتِقطابِ المَعْهَـدِ عُلماءَ مِـنْ وَزْنِ آينشـتاين وجـون فـون نويمـان، (١٩٠٣ ـ ١٩٥٧)، في العلومِ، وإرْنِسـت هرتسـفيلد، (١٨٧٩ ـ ١٩٤٨)، وإرْويـن بانوفسـكي، (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨)، فـي الفنـونِ والإنْسـانيّاتِ، إنَّما يَعـودُ، إنْ جازَتِ العِبـارَةُ، ومَهْما بـدا فـي الأمْـرِ مِـنْ تَناقُـضٍ، إلـى هِتْلَر!

ضِفْ أنَّ اسْـتِقْطابَ المَعْهَدِ هَـؤلاءِ العُلَماءِ لَمْ يَرْفَعْ مِـنْ شَـأنِهِ كَمُؤَسَّسَـةٍ فَقَـط وإنَّمـا أتـاحَ لجيـلٍ مِـنَ الباحِثيـنَ الأميركيّين الشَّـبابِ أنْ يَتَدَرَّبوا على أيْدي هَـؤلاءِ العُلَمـاءِ الأفْـذاذِ، وأتـاحَ اسْـتِطْرادًا للبَحْـثِ العِلْمِـيِّ فـي الوِلايـاتِ المُتَّحِـدَةِ عامَّـةً أنْ يَتَطوَّر.

أمّا بِنْيَةُ المَعْهَدِ فَبَسيطَةٌ وَلَيِّنَةٌ إلى أبْعَدِ الحُدود؛ فهوَ يَتَألَّفُ مِنْ ثَلاثِ كُلِّيّاتٍ، (الرِّياضيّات، العُلوم الإنسانيَّة، العُلوم الاقتصادِيَّةِ والسياسيَّة)، وقِوامُ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْ هذهِ الكُلِّيّاتِ هَيْئَةٌ دائِمَةٌ مِنَ الأساتِذَةِ وهَيْئَةٌ مِنَ الأساتِذةِ المُشارِكينَ يَتَبَدَّلُ

أعْضاؤُها سَنَوِيًّا. ولِكَلِّ كُلِّيَّةٍ أنْ تُديرَ شُؤونَها على النَّحْوِ الذي تَرْتأي، ولِكُلٍّ مِنْ أفرادِ هَيْئَتَيْها التَّعْليمِيَّتَيْنِ أنْ يُدَبِّرَ وَقْتَهُ وجَهْدَهُ على النَّحْوِ الذي يَراهُ مُناسِبًا. ولا شَرْطَ لِقَبولِ الأساتِذَةِ المُشاركينَ مِنْ جِنْسِيَّةٍ أو مِنْ خَلْفِيَّةٍ أكاديميَّةٍ سِوى الجَدارَةِ والاسْتِحقاق. ولِهَؤلاءِ، كما تَقَدَّمَ، ما للأساتِذَةِ الدّائِمينَ، وللواحِدِ مِنْهُم انْ يَتَعاوَنَ مَعَ أُسْتاذٍ دائِمٍ أوْ أنْ يُعْمَلَ لِوَحْدَه. بِالمُخْتَصَر، لا قَواعِدَ مُقَعَّدَةً في مَعْهَد الدِّراساتِ هذا، وعَلَيْهِ زِدْ أنَّ المَعْهَدَ مُنْدَمِجٌ في إطارِ الجامِعَةِ كُلَّ الانْدِماجِ فلا تَكادُ تُمَيِّزُ بَيْنَ أُسْتاذٍ مِنْ أساتِذَةِ الجامِعَةِ وآخرَ مِنْ باحِثي المَعْهَد.

هُنا، في هذا الصَّرْحِ، لا شَيْءَ سِوى المُعْرِفَةِ وهَمُّ تَنْمِيَتِها.

لا لِجانَ أكاديميَّةً ولا مَجالِسَ كُلِّيّاتٍ ولا مَنْ يَحْزَنون: لِعالِمِ الرِّياضيّاتِ أنْ يَنْصَرِفَ إلى رِياضيّاتِهِ، وللباحِثِ في العُلومِ الإنسانِيَّةِ إلى أبْحاثِهِ، وهكذا في مَنْأى مِنْ أيِّ مُنَغِّصٍ إداريٍّ أو ما شاكَل. مِنْ ثَمَّ، لا يَشْعُرُ بالغُرْبَةِ في هذا

المَعْهَـدِ إلّا مَـنْ لا فِكَـرَةَ عِلْمِيَّةً تَشْـغَلُ بالُـهُ أو مَنْ لا يَمْلِـكُ الصَّبْـرَ علـى الاسْـتِغراقِ بالكُلِّيَّـةِ فـي مـا يَشْـغَلُ بالَـهُ مِـنْ فِكْـرَة.

إقْتَـرَحَ المَعْهَـدُ يَوْمًـا علـى أحَـدِ أساتِذَةِ هارفرد أنْ يَلْتَحِـقَ بِهِ فكاتَبَني الأُسْـتاذُ المَحْظوظُ سـائِلًا: «وما عَسـاها أنْ تكونَ واجِباتي عِنـدْ الْتِحاقي بالمَعْهَد؟» وجـاءَ جَوابـي علـى اسْتِفْسـارِهِ بَسـيطًا للغايَـة: «لا واجِبـاتٍ علـى الإطلاق. إنَّهـا فُرَصَـةٌ فانْتَهِزْها».

وهاكُـمْ قِصَّـةُ عالِـمِ رياضيّـاتٍ شـابٍّ لامِـعٍ أُتيـحَ لَهُ أنْ يَسْـتَضيفَهُ المَعْهَـد:

علـى خِتـامِ السَّـنَةِ التـي قَضاهـا العالِمُ الشّـابُّ في المَعْهَـدِ طَـرَقَ بابي مُوَدِّعًـا. وإذْ أوْفَينـا المُجامَلاتِ حَقَّها سَـألَني:

- لَعَلَّـكَ تَرْغَـبُ بـأنْ أُطالِعَـكَ فـي مـا قَضَيْـتُ هـذا العام؟

- بالطَّبْع، أُحِبُّ ذلك.

- تَشْـهَدُ العُلـومُ الرِّياضيَّـةُ تَطَوُّرًا سَـريعًا للغايَة. كذلـكَ فـإنَّ نَشَـرَ الأدَبِيّـاتِ ذاتِ الصِّلَـةِ بهـذهِ

العُلـومِ يَطَّـرِدُ أيْضًا علـى وَقْعٍ سَـريعٍ للغايَة. مِنْ بَعْـدِ أنْ أَنْجَـزْتُ أُطْـروحَةَ الدُّكتـوراه، حاوَلْـتُ وُسْـعي، أنْ أُبْقينـي مُطَّلِعًـا علـى مـا يَجِـدُّ مِـنْ أبْحـاثٍ ومِـنْ نِقاشـاتٍ بَيْـدَ أنَّ مَشـاغِلَ الحَيـاةِ قَطَعَـتْ عَلَـيَّ، أحْيانًـا كَـثيرةً، طَريـقَ المُتابَعَـةِ وَحالَـتْ بَيْنـي وبَيْـنَ تَيْويـمِ مَعارفـي. خِـلالَ السَّـنَةِ التـي قَضَيْتُهـا هُنـا اسْـتَدْرَكْتُ علـى كثيرٍ مِمّـا فاتَنـي، ويَبْـدو لـي أنَّ حُجُبًـا كَثيـرَةً قَـدْ رُفِعَـتْ مِـنْ أمامـي وانْفَتَحَـتْ مَعَهـا آفـاقٌ آمَـلُ أنْ أُتَرْجِـمَ عَنْهـا مِـنْ خِـلالِ بَحْثَيْـنِ اثْنَيْـن.

- وكَـمْ سَيَسْـتَغرِقُك مـن وَقْـتٍ أن تَضَـعَ هذَيْـن البَحْثَيْـن؟

- خَمْسَ سَـنَواتٍ، أو لَرُبَّما عَشْرَ سَنَوات.

- وماذا في مَشـاريعِكَ بَعْدَ ذلك؟

- أنْ أعـودَ إلى هُنا!

أمّا السّالِفَةُ الثّالِثَةُ الأحْدَثُ عَهْدًا والتي يَحلو لي أنْ أرْويها فَبَطَلُها أُسْتاذٌ يُعَلِّمُ في إحدى كُبْرَياتِ جامِعاتِ أوروبّا. كانَ في خِطَّةِ هذا الأُستاذِ عِنْدَ

وصولِهِ إلى المَعْهَدِ لِوَقْتٍ قَصيرٍ خلا أنْ يَتَعاوَنَ مَعَ أحَدِ أساتِذَةِ المَعْهَدِ البروفيسور شارل موري، (١٨٧٧ ـ ١٩٥٥). ثُمَّ كانَ عِنْدَ وصولِ صاحِبِنا إلى پرينستون أنِ اقْتَرَحَ عَلَيْهِ موري أنْ يَتَعاوَنَ مَعَ إروين پانوفسكي، (١٨٩٢ ـ ١٩٦٨)، وچيورچ زفارزنسكي، (١٨٧٦ ـ ١٩٥٧)، عِوَضًا مِنْهُ لَعَلَّ تَعاوُنَهِ مَعَهُما أنْ يكونَ أجدى. أمّا اليَوْمَ فَهُوَ يَتَعاوَنَ مَعَ الثَّلاثَةِ مَعًا! وإذْ طالَعَني مُؤخَّرًا أنَّهُ يَنْوي البَقاءَ في المَعْهَدِ طيلَةَ فَتْرَةِ الصَّيْفِ، وأشْفَقْتُ عَلَيْهِ مِنْ حرارَةِ الطَّقْسِ في نيوجيرسي أجابَني: «لا أظُنُّني مَعَ ما أنا مُسْتَغرِقٌ فيهِ سأُلْقي بالًا إلى حَرارَةِ الطَّقْس!».

وخِتامُها نُكْتَة: «هَلْ إنَّ سَهَرَ اللَّيالي دَأْبُ كُلِّ العامِلينَ في المَعْهَد؟»... هذا ما سَأَلَتْنيهِ مُؤَخَّرًا زَوْجُ أحَدِ زُملائِنا البريطانيّين!

لَيْسَ لِلْمَعْهَدِ، بَعْدُ، مَبْنًى خاصًّا بِهِ. مِنْ ثَمَّ فإنَّ العامِلينَ فيهِ يَتَوَزَّعونَ على عَناوينَ عِدَّة: عُلَماءُ الرِّياضِيّاتِ على كُلِّيَّةِ الرِّياضيّاتِ في جامعة پرينستون، وعُلَماءُ الإنسانيّاتِ على كُلِّيَّةِ

الإنسانِيّاتِ، أمّا الاقْتِصاديّونَ فَيَشْغَلونَ جَناحًا في أحَدِ فنادِقِ الحَيِّ، فيما أنا فأُزاوِلُ نَشاطي في مَبْنًى تجارِيٍّ يُجاوِرُ فيهِ المحامي طبيبَ الأسْنانِ وأخِصّائِيَّ التَّدْليك وهَكَذا.

الشّاهِدُ في ما تَقَدَّم أنَّ شَرَطَ البَحْثِ العِلْمِيِّ الحُرِّ لَيْسَ الأبْنِيَةَ المُنيفَةَ الشّامِخَةَ، وهذا في أيِّ حالٍ ما سَبَقَ أنْ أثْبَتَهُ المُرَبّي الكبير دانيال چيلمان، (١٨٣١ ـ ١٩٠٨)، يَوْمَ أنْ أسَّسَ جامِعَةَ جون هوپكينز.

على أنَّهُ، وفي سَبيلِ تَشْجيعِ التَّواصُلِ غَيْرِ المُقَيَّدِ بقيودٍ بَيْنَ العامِلينَ بالمَعْهَدِ، فَسَوْفَ يَكونُ لَهُ عمّا قَريبٍ مَبْنىً خاصًّا بِهِ يَحْمِلُ اسْمَ كارولين بامبرغر فولد اعْتِرافًا بِفَضْلِها عَلَيْه. خلا ذَلِكَ، لَيْسَ في نِيَّةِ المَعْهَدِ أنْ يَتَوَسَّعَ أو أنْ يَتَفَيَّلَ بَلْ إنَّ خِطَّتَهُ أنْ يَبْقى مُتواضِعَ الحَجْمِ ولكنْ وَفِيًّا كُلَّ الوَفاءِ للمَبادِئِ التي تَأَسَّسَ عَلَيها: حُرِّيَّةُ البَحْثِ المُطْلَقَةُ وحُرِّيَّةُ الباحثينَ في مَنأى مِنَ القُيودِ والرَّسْميّات.

هُنا، في هذا المَعْهَدِ، لا نَقْطَعُ على أنْفُسِنا وعودًا لِنُسارِعَ إلى البِرِّ بِها.

هَمُّنا في هذا المَعْهَدِ أنْ تُثْبِتَ الجُهودُ التي نَبْذُلُ أنَّ السَّعْيَ وَراءَ المَعارِفِ التي تَبْدو غَيْرَ ذاتِ جَدْوى، وغَيْرَ ذاتِ منافِعَ عَمَلِيَّةٍ ـ سَعْيًا لا يَعوقُهُ عائِق ـ هو، اليَوْمَ، كما كانَ في الماضي، سَعْيٌ ذو نَفْعٍ وجَدْوى.

هو كذلكَ ولكِنَّ هذا الهَمَّ لَيْسَ هَمَّنا الأوَّلَ أو الأوْحَد. إنَّما يُريدُ المَعْهَدُ، أوَّلًا وآخِرًا، أنْ يَكونَ فِرْدَوْسًا للعُلَماءِ وللباحِثين... فَمَثَلُ هَؤلاءِ مَثَلُ الشُّعَراءِ والمُوسيقيّين: لَهُم أنْ يَختاروا الظُّروفَ الأوْفَقَ لِتَفَتُّحِ إبْداعِهِم، أيْ لِبَذْلِ ذَواتِ أنْفُسِهِم وإتاحَتِها، بِلا مُقابِلٍ، للآخرين!

هذِهِ التَّرْجَمَةُ بَلْ هذا التَّلْخيص...
٥

•

الإهداء
١١

مَدْخَل
١٣

في الآدابِ
وَجَدْوَى لاجَدْواها
٤٥

الجامِعَةُ بِوَصْفِها مُؤَسَّسَةً تِجاريَّةً
والطّالِبُ بِوَصْفِهِ زَبونًا
٨٩

مِنَ المِلْكِ ما قَتَل:
في الكَمالِ الإنْسانيِّ والحُبِّ والحَقيقَة
١٣٩

•

أبراهام فلكسنر
في لُزومِ المعارِفِ التي لا لُزومَ لها!
١٨٥

لوجْهِ مَا لا يَلزم

مُتَّخِذًا مِنَ التَّأَمُّلِ في مَفاهيمِ «اللُّزومِ» و«النُّفولِ» و«الجَدْوى» و«اللّاجَدْوى» مُقَدِّمَةً وَمُبْتَدَأً، يَتَقَمَّصُ الآكادِيمِيُّ المَوْسوعِيُّ نوتشيو أوردينه في كِتابِهِ هذا، وهو كِتابٌ لا يَتَحَرَّجُ من وَصْفِهِ بـ«البَيانِ»، (المانيفستو)، تَدْليلًا على نَفْحَتِهِ السِّجالِيَّةِ قَميصَ الدَّليلِ والهادي، وَيَقْتَرِحُ على قُرّائِهِ سِياحَةً فِكْرِيَّةً بَيْنَ شَواهِدِ تِلْكَ المَفاهيمِ ومَعالِمِها، في الماضي والحاضِرِ، في الفَلْسَفَةِ والأَدَبِ، في الفَنِّ والعُلومِ، في الجامِعَةِ وفي خَلْوَةِ العاشِقَيْنِ، يَنْتَهي مَعَها إلى أنَّ «اللّاجَدْوى» ــ أي ما يَتَهَيَّأُ لنا أنَّهُ نافِلٌ وغَيْرُ ذي جَدْوى ولا لُزومَ لَهُ ــ مِلْحُ التَّجْرِبَةِ الإنْسانِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ التّاريخِ إلى اليَوْمِ، وَشَرْطُ الحُرِّيَّةِ المَشْروطُ، مُحَذِّرًا مِنْ مُتَرَتِّباتِ ما يَمْضي فيهِ عالَمُنا، تَحْتَ عَناوينِ «الجَدْوى» و«الرِّبْحِيَّةِ» والنُّزولِ عِنْدَ «أَحْكامِ السّوقِ»، مِنْ إفْسادٍ لِهذا المِلْحِ وَمِنْ تَضْييقٍ لِمِساحاتِ الحُرِّيَّةِ ومَرافِقِها.

نوتشيو أوردينه
Nuccio Ordine

أُستاذُ الفَلْسَفَةِ والأَدَبِ الإيطاليِّ في جامِعَةِ كالابريا.
مِنْ أَعْلامِ الباحثين في النَّهْضَةِ الأوروبيَّة.
تَنْزِلُ أَبْحاثُهُ وتآليفُهُ في جوردانو برونو، (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، اللّاهوتيِّ والفَيْلَسوفِ الإيطاليِّ الذي أدانَتْهُ مَحاكِمُ التَّفْتيشِ بِتُهْمَةِ الهَرْطَقَةِ وَحَكَمَتْ عَلَيْهِ بالقَتْلِ حَرْقًا، مَنْزِلَةَ المراجِع.

تُرْجِمَ *لوجْهِ مَا لا يَلزم*، حتّى اليَوْمَ، بِخَمْسَ عَشْرَةَ لُغَةً... والعَرَبِيَّة!

9 789953 111391